هنــــد أبـــــو الشعــر..
أديبة ومؤرخة وموثِّقة

هند أبوالشعر أديبة ومؤرّخة وموثّقة

المؤلف: شكري عزيز الماضي .. (وآخرون)

تقديم: غسان إسماعيل عبدالخالق

الطبعة الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة

مؤسسة عبد الحميد شومان،
ذراع البنك العربي للمسؤولية الثقافية والاجتماعية

مؤسسة عبدالحميد شومان

هاتف: (4633372 - 00962 / 4633627 – 00962)

فاكس: (4633565 - 00962)

ص.ب: 940255 عمّان، 11194 الأردن

AHSF@shoman.org.jo

www.shoman.org

shomanfdn

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublishers.com

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنفه ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2022/5/2543)

ردمك: ISBN 978-9957-13-512-9

هند أبو الشعر..
أديبة ومؤرخة وموثِّقة

٢٠٢١

شكري عزيز الماضي	حسن خميس الملخ
نبيل حداد	محمد محمود الدروبي
منتهى طه الحراحشة	حسين محمد القهواتي
زياد أبو لبن	حسين دعسة
عليان الجالودي	مفلح العدوان
علاء كامل سعادة	جورج طريف
عبد الله مطلق العساف	محمد هاشم غوشة
أنور عودة الخالدي	أنس العموش
ياسين أحمد السعود	محمد عدنان البخيت
زيد خليل القرالة	علي مفلح محافظة

إيهاب زاهر

تقديم: غسان إسماعيل عبد الخالق

إيمانا بأهمية بناء أرضية ثقافية علمية، مع الاعتناء الجاد بالبحث العلمي والتنوير الثقافي والابتكار وتشجيع القراءة، قام البنك العربي، بمبادرة غير ربحية وكخطوة ريادية منه، بتأسيس مؤسسة عبد الحميد شومان في العام 1978، للمساهمة في تأسيس منارة الثقافة والإبداع في الأردن والوطن العربي، وحتى تكون ذراعه للمسؤولية الثقافية والاجتماعية، مع ارتكازها على أركان ثلاثة: "الفكر القيادي، الأدب والفنون، والابتكار".

شركة مساهمة خاصة لا تهدف إلى تحقيق الربح

Based on its belief in the importance of building a scientific cultural ground, with serious attention to scientific research, cultural enlightenment, community innovation and encouraging reading, the Arab Bank established The Abdul Hameed Shoman Foundation (AHSF) in 1978, as a non-profit initiative and a pioneering step to contribute to building the a torch of culture and creativity in Jordan and the Arab world, as well as to be its arm for social, cultural and intellectual responsibility. The Foundation is based on three pillars: "Thought Leadership, Literature and Arts, and Innovation".

Non-profit Private Shareholding Company

940255, Amman, 11194 Jordan | +962 6 4645150 | +962 6 4633565 | Al-Ashrafeyeh +962 6 4765791 | shoman.org | shomanfdn

تقديم

غسان إسماعيل عبد الخالق *

على كثرة المرات التي أولتني فيها مؤسسة عبد الحميد شومان ثقتها وأسعدتني، فإن سعادتي بتسطير التقديم لهذه المأثرة التكريمية هي الأوفر بلا ريب؛ فالدكتورة هند أبو الشعر ليست قامة علمية وثقافية على المستوى الوطني، وعلى المستوى العربي فقط، وليست زميلة نبيلة وصديقة عزيزة فقط، بل جمعتني ويجمعني بها أيضًا، كثير من الأقدار المشتركة التي لن تخطئها عين القارئ اللبيب.

ولعلّ مبعث سعادتي بهذا التقديم يتمثل أولًا؛ بأن مؤسسة عبد الحميد شومان قد أحسنت ـ كالمعتاد ـ اختيار شخصية المكرّم، وأكّدت بهذا الاختيار حرصها الشديد على مواصلة الارتقاء بمفهوم التكريم منهجًا ومضمونًا. كما يتمثل ثانيًا؛ بأنها أحسنت ـ أيضًا ـ اختيار المتحدّثين من العلماء والنقّاد والباحثين والمبدعين الكرام، الذين لم يكادوا يدعون لي أو لغيري، سجيّة من سجايا الدكتورة هند أبو الشعر، إلا وقد تناولوها بالرّصد والتحليل،

* أستاذ الأدب والنقد في جامعة فيلادلفيا الأردنية.

فتحيةً لأيقونة الثقافة الأردنية لقاء نزاهتها العالية، وتحيةً لمن اختارتهم للحديث عن هند أبو الشعر؛ أديبة ومؤرّخة وموثّقة.

❖ ❖ ❖

ثلاثون عامًا هي عمر الزمالة الممتدّة والصداقة الوطيدة التي ربطتني وما زالت تربطني بالدكتورة هند أبو الشعر، انطلاقًا من تلك الجولة القصصية التي نظّمتها وزارة السياحة والثقافة لثلّة من الكتّاب في جنوب الأردن؛ بدءًا من الشوبك مرورًا بالكرك والبتراء والطفيلة ومعان وانتهاء بالعقبة. وعلى كثرة الملاحظات والتجارب والخبرات والأصدقاء الذين ظفرت بهم في هذه الجولة الثقافية الفاصلة، فإن الدكتورة هند أبو الشعر كانت هي القيمة الإبداعية والإنسانية التي توّجت هذا الحجيج، بحضورها الأنيق، وعفويتها الآسرة، وتفانيها المذهل، وقدرتها على إغناء تجربتها القصصية ومخزونها الثقافي، عبر استعدادها اللامحدود للتواصل مع الجميع، بدءًا من سائق العربة الأُميّ في البتراء وليس انتهاء بالحاكم الإداري.

تابعت بعد ذلك، مسيرة الدكتورة هند أبو الشعر، عامًا بعد عام، في جامعة آل البيت، وهي تعمل مع أستاذ الأجيال الدكتور محمد عدنان البخيت، على تأثيث الجامعة الجاثمة في عمق الصحراء، بمضامين معرفية جاذبة، حتى غدت جنّة ثقافية تسرّ الناظرين؛ فكسرت مع ثلّة من رفاقها، سطوة جغرافيا الجفاف، وأنبتت أقسامًا أكاديمية وكليّات علمية ومؤتمرات فكرية وندوات أدبية ومجلاّت ثقافية، وإذا بجامعة آل البيت واحة من الواحات العربية التي يحلم بأن يفيء إليها ويستظل بظلها، كبار العلماء والأكاديميين والباحثين والنقاد المبدعين.

وكأي مثقّف نهضوي مهجوس بالمأسسة والتنوير في آن واحد، فإن الدكتورة هند أبو الشعر لم تسمح لموهبتها في الإدارة بتهجير موهبتها في البحث والإنجاز العلمي، فانخرطت في التأريخ والتوثيق انطلاقًا من استيعائها العميق لجوهر الرؤية الخلدونية المنقوعة في الواقعية التاريخية التي تمثل الوقائع لحمتها وسداتها، فضلاً عن استيعائها العميق أيضًا

لجوهر فكرة الأرشيف بوصفه حجر الزاوية في النقد الثقافي بأنساقه الظاهرة والمضمرة.

سنوات قليلة فقط، فصلت بين هند أبو الشعر القاصّة والباحثة الواعدة والدكتورة هند أبو الشعر المثقّفة والأستاذة البارزة. وبين الاثنتين تعالى كثير من الكتب والأبحاث والمقالات والإنجازات والطلاب اللامعين، وكان يمكن لهذا المدّ أن يغدو موجًا هادرًا متّصلاً لو أن مشروعها بخصوص تحديث أهداف مكتبة الجامعة الأردنية قد سُمح له بأن يثبّت أقدامه في أرض الواقع.

❖ ❖ ❖

ولا يسعني طبعًا، تجاهل أحد الأدوار الرئيسة التي حرصت الدكتورة هند أبو الشعر على الاضطلاع به على خير وجه، وأعني بهذا الدور الكتابة الصحفية التي تمثل الفيصل بين الأكاديمي والمثقّف الطليعي المشتبك والأكاديمي والمثقّف النخبوي المنطوي على ذاته؛ فالكتابة الصحفية ليست ضربًا من ضروب (البريستيج) أو شكلاً من أشكال تأهيل الذات لولوج عالم السياسة ـ كما يظن بعض المغامرين السّذّج ـ بل هي اشتباك دائم ومن نقطة الصفر مع الرأي العام ومراكز القوى وتيارات المجتمع، التي يمكن لأي منها في أي لحظة أن يسيء فهمك أو يهاجمك أو يحاصرك. وأزعم أن هند أبو الشعر قد خاضت هذه المواجهة بشجاعة واقتدار على الدوام، فلم تجامل ولم تساوم ولم تغمغم.

❖ ❖ ❖

في موازاة هذا كلّه، قيّض للدكتورة هند أبو الشعر، أن تكون إضاءة دافئة على الدوام، في ذاكرة جامعة فيلادلفيا التي لم أدّخر ـ بدوري ـ وسعًا لتأثيثها وتدوينها وحراستها . ولا أحسب أن الدكتورة هند أبو الشعر قد غابت عن يوم واحد من أيام جامعة فيلادلفيا المعدودة، بل إنها كانت واسطة عقد بعض هذه الأيام؛ فحازت جائزة فيلادلفيا لأحسن كتاب في حقل العلوم

الإنسانية عام ٢٠٠٢ بجدارة واقتدار لقاء كتابها (تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني)، واختيرت بإجماع المنظّمين لتكون ضيف شرف الدورة الثالثة والعشرين من مؤتمر فيلادلفيا الدولي الذي انعقد في عام ٢٠١٨ بعنوان (الخطاب النسوي في الوطن العربي)، ولم تتردّد اللجنة العليا التي شُكّلت في جامعة فيلادلفيا للاحتفاء بمئوية الدولة الأردنية في المبادرة لطبع ونشر وتوزيع موسوعتها (تاريخ الأردن في عهد الإمارة) بمجلّداتها الأربعة على نفقة الجامعة، كما لم يتردّد رئيس مجلس أمناء الجامعة الدكتور مروان كمال ورئيس الجامعة الدكتور معتز الشيخ سالم في تأكيد حقيقة أن هذه الموسوعة مثّلت وستظل تُمثّل الإنجاز الرئيس والأبرز للجامعة على صعيد الاحتفاء بمئوية الدولة الأردنية. وإذا أضفتُ إلى كل ما تقدّم حقيقة أن الدكتورة هند أبو الشعر كانت وما زالت عضو مجلس أمناء جامعة فيلادلفيا الذي لم يدّخر وسعًا للارتقاء بالجامعة شكلاً ومضمونًا ورؤية ومنهجًا، فإن من واجبي أن أؤكّد أيضًا أن كل ما استأثرت به الدكتورة هند أبو الشعر من حفاوة وتقدير، هو استحقاق شخصي لها بوصفها أكاديمية ومؤرّخة وكاتبة مبدعة، وليس بوصفها عضوًا في مجلس أمناء الجامعة، وقد أسبغ أداؤها المهني والنزيه على هذه المسألة مصداقية كاملة غير قابلة للنقاش. ولا ريب في أن حصولها هذا العام على جائزة الدولة التقديرية في حقل العلوم الاجتماعية، قد مثل تتويجًا ما بعده تتويج للتقدير الرسمي والأهلي لمسيرتها الحافلة.

❖ ❖ ❖

لقد قالوا قديمًا: (لا بد من صنعاء وإن طال السّفَر)! وأحسب أن هذا التطواف في أرجاء عالم الدكتورة هند أبو الشعر، قد آن له أن يُلخَّص بعدد من المؤشّرات القابلة للقياس، والتي يتمثّل أبرزها فيما يلي:

أولًا: يمكنني القطع على الصعيد العام، بأن الدكتورة هند أبو الشعر، هي من أبرز الأكاديميين والمثقّفين والمبدعين في الأردن والوطن العربي.

ثانيًا: يمكنني القطع على الصعيد الخاص، بأن الدكتورة هند أبو الشعر، هي من أبرز الأكاديميات والمثقّفات والمبدعات في الأردن والوطن العربي.

ثالثًا: يمكنني القطع على صعيد أخصّ، بأن الدكتورة هند أبو الشعر، هي من الكاتبات العربيات القلائل اللواتي حُزِّن لقب (المرأة المفكّرة)، نظرًا لأن كثيرًا من الكاتبات ظللن يراوحن في منطقة البوح والتعبير عن المعاناة، ولم يحالفهن الحظ في العبور إلى ضفة التعبير الفكري والموضوعي عن ذواتهن وهويّاتهن النسوية، من منظور معرفي.

رابعًا: يمكنني القطع أيضًا، بأن الدكتورة هند أبو الشعر، هي من الكاتبات العربيات القلائل اللواتي حُزِّن لقب (المرأة العابرة للتخصّصات)، نظرًا لأن كثيرًا من الكاتبات ظللن يراوحن في منطقة اللون الواحد من الإبداع والانشغال، ولم يحالفهن الحظ في العبور إلى ضفّة الثقافة الموسوعية المتشابكة والمتداخلة.

خامسًا: على الرغم من إغراءات التسريع بالحصول على الشهرة والوهج الجماهيري عبر الاندفاع لركوب الموجات والتقليعات الأدبية والفكرية العارضة، إلا أن الدكتورة هند أبو الشعر ظلّت – مبدعة وباحثة ومؤرّخة - من أخلص المخلصين للحداثة الرزينة والرصينة، فلم تتخلّ عن احترامها للنسق والعقلانية والروح النقدية، ولم تنزلق إلى خزعبلات ما بعد الحداثة وشعبوياتها وفوضاها وعبثها .

سادسًا: على الرغم من غزارة ما كتبت وما أصدرت الدكتورة هند أبو الشعر، من قصص وأبحاث وتوثيقات، إلا أنها ظلّت محافظة على تميّز مستوى خطابها الإبداعي والتأريخي، ولم تتنازل عن شرط إغناء الكم بالنوع.

سابعًا: على الرغم من الحضور النوعي اللافت للدكتورة هند أبو الشعر في المشهدين الثقافي والأكاديمي، إلا أنها لم تسمح لنفسها بالوقوع في مصيدة الإعلام أو لعبة العلاقات

العامة، فظلّت بعيدة وقريبة في الوقت نفسه، واختارت على الدوام الوقت المناسب للحضور أو الغياب، وهذه معادلة صعبة لا يتقنها إلا قليل جداً من المثقفين والأكاديميين البارزين.

ثامنًا: على الرغم من أن الإبداع الإداري في عالم الأكاديميا، لا يقل أهمية عن الإبداع الأدبي في عالم الثقافة، إلا أن الدكتورة هند لم تسمح لوهج الإدارة بإطفاء وهج الإبداع والبحث، فوازنت بين الإبداعين وأخلصت لهما كل الإخلاص، على نحو يجعلنا نشعر بالرثاء لغير قليل من الأكاديميين الواعدين الذين لم يوازنوا بين الاثنين، فخسرناهم باحثين أو أكاديميين.

تاسعًا: على الرغم من إغراءات التسريع بالحصول على الشهرة أو الوهج الجماهيري، عبر الصحافة أو عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي غدت المنبر الأول في أرجاء الوطن العربي، إلا أن الدكتورة هند أبو الشعر ظلّت مخلصة للكتابة بوصفها واجبها الشخصي واليومي في المقام الأول.

عاشرًا: على الرغم من تميّز الأساتذة والرؤساء الذين عملت معهم وتتلمذت عليهم وظلّت وفيّة لهم، إلا أن إخلاصها ظلّ منشداً في المقام الأول للفكرة والرسالة، ولم تحسب نفسها على شخص أو مركز أو تيار.

وإذا نظرنا بعين الاعتبار الشديد لحقيقة أن القيمة الحقيقية للأكاديمي والمبدع، تقاس بعدد ما صنّف وأصدر من الكتب والأبحاث المرموقة في المقام الأول، فإن نصيب الدكتورة هند أبو الشعر ـ التي نشرت ثمانين كتاباً في التاريخ والأدب، وثمانين بحثاً في التاريخ والأدب ـ من هذه القيمة، يبدو وافراً وممتداً ويستحق التصفيق طويلاً؛ فطوبى لها مبدعة هادئة ومؤرّخة صادقة وموثّقة أمينة.

الجلسة الأولى

هند أبو الشعر: أديبة ومبدعة

قصص هنـــــد أبــو الشعر القصيـــرة: الماهيـــــة والـــــدور

د . شكري عزيز الماضي *

القصة القصيرة فن حديث يتناغم مع إيقاع العصر السريع والصاخب، ويتفرد بقدرته على إضاءة اللحظات المهمة، والكشف عن العوالم الموارة والمخبوءة في أعماق النفوس وجوف الزمن.

والأديبة الدكتورة «هند أبو الشعر» من المبدعين الذين أخلصوا لفن القصة القصيرة، وأسهموا في حفر مجراه، مع أن مشروعها الإبداعي لا ينحصر في حقل القصة القصيرة؛ إذ ينطوي على أشكال إبداعية متنوعة، فهي تكتب القصة القصيرة والشعر والمشاهد المسرحية، وتمارس الفن التشكيلي. وفوق هذا كله فإنها كاتبة «نصوص»، نصوص تضع نفسها في منطقة الحدود المضطربة بين الأجناس المعروفة أو الأنواع المألوفة؛ إذ تتقاطع مع الشعر والنثـــر وتتداخل

* أستاذ نظرية الأدب والنقد المعاصر في الجامعة الأردنية.

في مستوى ما مع «الإبيجراما»، و«قصيدة النثر»، ومع ما اصطلح عليه مؤخرًا «القصة القصيرة جدًا»، فهي نصوص مكتوبة تطرح إشكالية التصنيف وتجربة الحدود والقيود.

غير أن القصة القصيرة ظلت عشقها الأول، والحقل الفريد الذي غرست فيه سنوات طوالًا من عمرها، واستطاعت ـ باقتدار لافت ـ تجسيد صوت أدبي خاص، صوت هدفه الفن والجمال، وعماده الإنسان، وغايته الحرية والعدالة معًا. لهذا ترى أن أسلوبها التعبيري ـ على مستوى الفن ـ يلون ويظلل وينحت ويصقل ـ وفي البنية الأعمق ـ يتفاعل مع جدلية الحياة وتناقضاتها، فالأسلوب ليس مجرد وسيلة في الإنشاء والبناء، وإنما هو، في اللحظة عينها، طريقة في الكشف والإدراك أيضًا. فهو يغوص عميقًا في قلب اللغة، وفي قلب الحياة معًا. هذا ما يمنح قصص «هند أبو الشعر» ذلك التوازن بين «نظام الخيال» و«نظام التوصيل». فالخيال يهدم ويلاشي ويذيب ويبني صورًا وصفية وسردية وحوارية موحية، ورموزًا مصقولة، وينسج ـ وهو يبني ـ مخاوفنا وهواجسنا وحذرنا وتطلعاتنا. ومفردات اللغة وتراكيبها تحدد وتجسد وتصور التوتر الناجم عن المراوغة بين الدالّ والمدلول، وترسم ـ في آناء التصوير ـ حقلًا من الدلالات المتموجة.

فالقصص و«النصوص» لوحات مرسومة بالكلمات، نابضة بالحركة، فياضة بالصور والإيحاءات والرموز، وهي لوحات مصقولة لتدل، وألوانها وظلالها مشذبة، لتومئ وتعني. ففيها آثار صوتية ومفارقات مؤلمة، وغموض شفاف، وأحيانًا تهكم وسخرية وملامح مزدوجة، وهذه كلها تجعلها نصوصًا مفتوحة، غير مكتملة، أو غير مكتفية بذاتها، فهي تكتمل بفعل القراءة. وهذه الخصائص والسمات تفسح المجال للتركيز على النص، مثلما تشجع القارئ على القيام بدور إبداعي فاعل.

وأعتقد أن خصوصية الصوت الإبداعي الأدبي وهدفه وخصائصه هي بمثابة نتائج

لأسباب أعمق تكمن في الدافع إلى الإبداع ومفهوم الكتابة ودورها. وهي قضايا مهمة لا تستخلص من الأقوال والتصريحات أو المقولات النظرية الذهنية المجردة، بل يجب أن تستنبط من البنية السردية المتعينة وتقنياتها وفضائها العام ودلالاتها.

فقارئ قصص هند أبو الشعر يحلق في فضاء سردي رمادي قاتم ومرعب ... إذ إن المناخ العام مأساوي كئيب، والغيوم مكفهرة ومرعبة، لكنها ـ وهذا من خلال نمو الصور السردية والحوارية ونسيج النهايات ـ غيوم متحركة بل متحركة دائماً. لهذا تبقينا القصص في فزع متصل، وفي يقظة دائمة، ربما لأن الأجواء المأساوية التي تهيمن على العالم القصصي لا تتمحور حول الأنا/ الذات الفردية، بل ترتبط بالآخر/ المصير الجماعي/ المصير الإنساني، وربما لأن القصص تومئ ـ وسط الظلام الحالك ـ إلى أفق بعيد ... فيه كوّة صغيرة، كوّة «الخلاص»، أو فيه قبس «يمكن» أن يتحول إلى شمس لاهبة مطهرة.

لكن بروز المصير الإنساني/ مصير الجماعة واختفاء الذات ـ من خلال تقنية الأصوات المتعددة في عدد من القصص، واختفاء السرد بضمير الغائب في عدد آخر ـ لا يعني أن الذات بمنأى عن الفزع والرعب أو بعيدة عما يحدث، أو أنها مجرد شاهد على ما يجري، بل إن الذات وسط اللجّة، وخلاصها يكمن في خلاص الجماعة.

ويشعر المرء أن «هند أبو الشعر» ترى أن القياس الجمالي للرعب «هو اختبار العمل الفني الجديد». وهو مفهوم قديم حديث .. قال به «أرسطو» عندما تحدث عن المأساة وعاطفتي الخوف والشفقة، والتطهير، ليصل إلى وظيفة الفن المتمثلة في التوازن الانفعالي والعاطفي. لكن كاتبتنا ترى أن القصة لا تبدد الخوف بل تخيف أو يجب أن تخيف، وأن القصة قادرة على أداء هذه المهمة عندما تصور استلاب إنسانية الإنسان، أو عندما ترسم السؤال الصارخ «**إنهم يسحقون الإنسان ... أليس كذلك؟**.»

وأحسب أن الدافع إلى الإبداع ومفهوم الكتابة ودورها، لها أثر كبير ـ إن لم أقل الأثر ـ في تحديد الرؤية وملامح العالم القصصي، ومعالم البنية السردية وسياقها وأبعادها.

فما إن نلج العالم القصصي لـ «هند أبو الشعر» حتى ترافقنا مشاعر الخوف والرعب، وتجابهنا بقع الدماء .. والنزف الدائم .. وتوقف النبض .. والجيف والارتطام .. والقتل، وصور الذعر، حيث انكسار الأحلام ... أحلام الناس «البسطاء» .. والخديعة .. خديعة «الكبار» لـ«الصغار» .. والعلاقات المبتورة. ونشهد أنواعًا لا حصر لها من المخاوف .. المخاوف القابعة في قلوب الناس «المغمورين» .. وأشكالًا متعددة من القهر .. قهر الناس «الهامشيين» .. وحواجز نفسية صلبة بين الأنا/ والآخر .. حواجز تنبع وتنمو من تفاصيل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية .. وكل هذه الصور تتضافر لتولد في نفوسنا إحساسًا بالفزغ والرعب على وجودنا الجماعي/ الاجتماعي المهدد.

لكن هذه الصور القاتمة المرعبة ليست مهيمنة تمامًا وليست ثابتة؛ إذ تتحرك ببطء وبشكل متعرج ومنفرج ومتموج، لتصل بنا إلى تلك «الكوة»، وذاك «القبس». فالكاتبة تستهلّ معظم قصصها من نقطة محددة... نقطة تتصف بالتوتر والرعب .. تسمح بنسج خيوط سردية وقصصية ملتفة ومتشابكة ... لكنها تنتهي عند «لحظة تنوير»، مباينة تمامًا للاستهلال، ما يسم البنية السردية بالاستدارة. فالبنية السردية تنمو وتدور لكن دورانها لا يكتمل؛ لأنها لا تعود إلى النقطة التي بدأت منها:

* فقصة «الحصان» تبدأ بالموت وتوقف النبض، لكنها تنتهي بالأمل والحياة والدعوة إلى الممارسة العملية.
* وعلى الرغم من «النزيف الأبدي»، و«نهر الدم الذي لا يتوقف»، و«البقع الملعونة»، و«شلال الدم الذي ينساح».. إلى آخر ما هنالك من عبارات تتكرر لتدل على هذه المعاني، فإن قصة «الغزال» .. تنتهي بإشراقة الشمس وابتسامتها للعالم:

«ارتفعتْ ملامحنا المقهورة إليه .. أشرقت كلماته الدافئة .. تابعنا المسير .. بدأت الشمس تبتسم للعالم .. أصلحنا من قسماتنا المرهقة ... ضحكنا للشمس ... وبقيت رؤوسنا تتابع خيط الدم الذي لا ينتهي».

* وتبدأ قصة «صبيحة يوم الجمعة» بالذعر والخوف، واندفاع الدم في العروق، وتنتهي برائحة النعناع التي تغمر المسافات.

* وما إن نقرأ عنوان قصة «الموت وسط الزنابق» حتى يرافقنا إحساس بالتشاؤم، لكن القصة تنتهي بنمو الزنابق الطويلة البيضاء النقية، والحشائش الخضراء الندية.

* وعلى الرغم من الأجواء الكئيبة في «أوراق تجمعت في خريف ما» فإنها تنتهي بالأمل والابتسام والمطر والحرية:

«سيغسل المطر كل شيء هذا الصباح ...

ابتسمتْ ... تطلعتْ إلى السقف .. وفكرّتْ كثيرًا بالحرية .. كانت القطرات الصباحية المبكرة تطرق النافذة بحرية».

* وتبدأ قصة «ابتلاع الأشياء الملونة» بالدفن والموت، وبـ«رائحة الأجسام المحترقة»، وتنتهي بأغنية قروية حارة.

* وتبدأ قصة «الذاكرة» بـ «**تجمد الدم في عروقي، والتصق لساني بفكي الأمامي، ولم أعد قادرة على متابعة دقات قلبي المذهولة** ...»، وفيها تتناثر الجمجمة بفعل «قوى الظلام»، لكن هذه القوى تفشل في غزو «الذاكرة» .. فالذاكرة صلبة قوية لا يمكن محوها ... ولهذا تتمدد «الذاكرة» في نهاية القصة، في كل اتجاه .. وتنبت على الرصيف وردة حمراء ندية.

فمن خلال هذه الاستدارة، يمكن تأكيد مفهومها لوظيفة القصة القصيرة، واستخلاص رؤيتها للعالم. فالبدء من فوضى الواقع وعبثيته وتناقضاته، يعني التسليم ـ مؤقتًا ـ بهذه الصفات ... فالكاتبة لا تسعى إلى تجميل العالم، بل تومئ ـ ولو بصورة رمزية في كثير من الأحيان ـ إلى ضرورة إعادة ترتيب العالم، وإلى «الممكنات» الكامنة في ثنايا النسيج السردي... وهذا جزء مما توحي به الاستدارة.

إن نسيج النهايات رمزي/ فني لكنه موح ودالّ ... ودلالاته ـ وربما أهميته ـ تكمن في الإشارة الخفية إلى انفتاح القصة/ وانفتاح الواقع أيضًا/ على احتمالات لا حصر لها، فليست دائرة الظلام والرعب مغلقة؛ لأن الحياة تنبع من الموت (الحصان، الموت وسط الزنابق) والموت طريق الحياة (الغزال يركض .. النسر) والنور يتفاعل مع الظلام ويولد منه (أوراق تجمعت في خريف ما، الأقدام تمر مسرعة، سالم المحمود).

واللافت أنها تعالج في قصصها القصيرة قضايا كبرى، أو إشكاليات حضارية، مع أن شكل القصة القصيرة (وماهيتها، وطاقتها، واسمها الإشكالي «القصيرة»!!) قد لا يحتمل أو لا يصلح لمعالجة الإشكاليات الحضارية التي تفرض الامتداد والرحابة. لكن كاتبتنا استطاعت معالجة مثل هذه القضايا باقتدار لافت:

إن قصة «الحصان» ـ مثالًا لا حصرًا ـ تعالج مشكلة المصير العربي/ مشكلة الوجود المعاصر/ الهوية المهددة بالتلاشي/ المستقبل الغامض، وهي تجسد هذه القضايا من خلال صور رمزية موحية، وبنية سردية ذات طابع حواري دال، وعبر توازيات جميلة بين الماضي والحاضر.

فالحصان الذي يعيش بين الصحوة والموت، رمز للزمان العربي الراهن، مثلما هو رمز للأمة/ أو الشخصية العربية/ أو الفارس العربي. والنص برمته عبارة عن «علامات لسانية»

تنطوي على أزيد من دلالة، ولنتأمل الاستهلال لتأكيد ذلك: «**سكنت حركته أخيرًا. توقف النبض في العروق النافرة. وسكنت الانتفاضة الأخيرة بفجيعة مذهلة. تشنجت ... إلخ. والرمز شفاف فالحصان جاب الكرة الأرضية ذات يوم بقوائمه السريعة الرشيقة ووصل الصين .. واتجه غربًا .. اجتاح العالم .. هل يمكن أن يموت هكذا ببساطة؟ لا يمكنني أن أصدق .. لا يمكن، وجبهته مثل الكرة الأرضية أوسع من المدى وأكبر من الدهور. وغرّته مثل تاج ملك لا ثمن له. وعضلات رقبته شامخة نحو السماء**». ويبدو أن حصان «اليوم» يختلف عن حصان «الأمس»، لكن القضية ليست في ماض مشرق وحاضر مظلم، فإذا كان النور يتفاعل مع الظلام ويولد منه، فإن الماضي ليس مشرقًا أو ناصعًا تمامًا، بل لعل إشراقة الماضي نتاج للتفاعل بين السلبي والإيجابي فيه، لهذا نقرأ في القصة «**في غرناطة ... كانوا يسلمون المفاتيح الكبيرة**»، لكن الحصان الآن/ حصان اليوم/ العرب/ وجودهم/ هويتهم/ يعيش بين الصحوة والموت، وربما توقف النبض في عروقه، وتوقف قلبه فترة من الزمن، لكنّ هذا لا يعني الموت؛ لأن «**دماغه ما زال حيًّا .. يحتاج إلى صدمة كهربائية .. سينتفض وتنبعث الدماء الحارة من جديد في عروقه .. وكلنا يعلم أن هذا ما يحدث دائمًا ... إنه لم يمت ...**».

هذه الإشكالية الحضارية الراهنة، بتفرعاتها وتوازياتها، لا تصاغ من خلال نظرة أحادية أو من خلال رؤية ذاتية ... بل تصور من خلال تعدد الرواة، وتنوع الضمائر، وتقنية الأصوات المتعددة والرموز، فالمشكلة المصورة ليست مشكلة فرد بعينه، **بل هي مشكلة المصير الجماعي، ولهذا يهيمن على السرد ضمير المتكلمين/ الجماعة: «جلسنا كلنا دفعة واحدة، افترشنا التربة البنية الجافة، وكأننا نقوم بطقس مقدس، وبحركات مشهد تمثيلي لا اسم له ولا حدود، وتطلعنا في عمق العينين الزائغتين اللتين جمد فيهما الموت أخيرًا ...»**.

ويجسد الحوار الرامز، من خلال تقنية الأصوات المتعددة، وجهات النظر المتباينة والمواقف المتعارضة. فالشخصيات هنا مجرد أصوات، تقدم بلا ملامح أو أسماء؛ إذ لا قيمة للفرد وملامحه أمام الأزمة العامة التي تهدد مصير الجماعة وهويتها. والأصوات/ أفكار/ أيديولوجيات، وهو ما يؤكد أن القصة حقل صراع أيديولوجي، فبعض الأصوات ترى أن «الحصان» قد انتهى ومات، وهناك من يتحسر على تاريخه وماضيه: «**كان لامعًا مثل نجمة صيف**». وصوت آخر يصاب باليأس: «**لن ننتظر ولن نراهن .. لن ندهش ولن نحارب**». وصوت يرى أنه ما زال يتحرك، وآخر يرى ضرورة البحث عن بديل: «**لا فائدة ... دعونا ندفنه .. ونحضر بديلًا عنه**»، وصوت حائر يردد: «**لا ينفع فيه الطب ولا البكاء ولا الرجاء**». لكن الصوت الأقوى يؤكد أن الثرثرة فات أوانها، ولا بد من الممارسة العملية، فهي المحك الحقيقي: «**اسكتوا جميعًا وساعدوني .. بدأت أدلّك القلب، بدأت أدلّكه وأتحسس الدفء الذي يغمر المسافات التي ما زال يقطر منها العرق الدافئ**» (**الكلمات الأخيرة في القصة**).

هذا العالم القصصي، وهذه الأصوات المتعددة المتعارضة، وهذه المادة الرحبة المتشعبة تصاغ في أربع صفحات، وهو ما يعكس سمة التركيز والتكثيف، ويدل على الطاقة الإيحائية للكلمة المفردة المنتقاة بجهد وعناية، وهو ما منح النسيج اللغوي قدرات رامزة موحية مشعة.

وتأتي القصص/ اللوحات/ الأخرى (الغزال، الطريق إلى صفين، الوحل، الهزيمة، العتمة في كل الشرفات، الوشم، سالومي .. مرة أخرى، الكابوس، اللوحة، الحذاء، موسم مطر، وغيرها)، لتجسد عناصر أخرى من الرؤية، ولتكمل رؤية الماضي والحاضر والمستقبل، أو رؤية العربي في ماضيه وحاضره وتطلعاته، أو رؤية الواقع المعيش وإدانته، أو رؤية المصير الإنساني أو السمات الإنسانية المستلبة.

هذه القصص وغيرها، بمثابة صور اجتماعية تتضافر وتتداخل مع التفاصيل التاريخية

والوطنية؛ لتومئ إلى المصير الجماعي أو الشخصية المهددة بالذوبان، وتذكرنا دائمًا بـ«الحصان» المحتضر، وبـ«الغزال النازف». لكنها صور تؤكد قدرة الكاتبة في توظيف تقنيات فنية حديثة، من قبيل: أحلام النوم، وأحلام اليقظة، وتنوع الرواة، وتعدد الضمائر، والتوازي، والتزامن، والتذكر، والتداعي والاسترجاع والحوار الداخلي، وفن التقطيع، إضافة إلى الرموز المنوعة واللغة المصقولة القادرة على التحديد والإيحاء والتصوير.

هذه الظواهر الفنية المتنوعة تحتاج إلى دراسات مستقلة، ويكفي أن يشير المرء هنا إلى سمة فنية مهمة تتصل بكيفية توظيف هذه التقنيات والأساليب الحديثة، فهي ليست حلية خارجية أو نوعًا من الزخارف، كما أنها لا تأتي مسايرة لدرجة سائدة، بل تأتي تلبية للرؤية الفنية الشاملة، مثلما تسهم (جزئيًا) في تجسيد هذه الرؤية، وإضفاء التوازن على البنية السردية، وهذا يؤكد التلاحم النسبي بين الرؤية والأداة.. ولنتأمل بعض الأمثلة:

* فأحلام النوم لدى التلميذة الصغيرة والعاملة في الحقل، في الوقت نفسه، تتحطم على صخرة العلاقات الاجتماعية المهترئة والمتفسخة (صبيحة يوم الجمعة).
* وأحلام اليقظة لدى الشابة العاملة في مصنع تتمزق على صخرة الفقر والتفاوت الاقتصادي (المعطف).
* وتوضح تقنية الارتداد في «سالم المحمود يزور عمان» الهوة الواسعة بين الريف والمدينة، كما تبين الخديعة، وكيف يتم التلاعب بالأراضي ومصائر الفلاحين.
* ويجسد ضمير المتكلم الحاجز/ المسافة الكبيرة/ بين الفراشة والموظفة المديرة. فمع أنهما تعملان في مكان واحد لكنهما تعيشان في عالمين متباينين متناقضين (قصة الحاجز).
* وتبرز تقنية التداعي ألوان القهر الاجتماعي المغلف بحس إنساني زائف (شقوق في كفّ خضرة).

* وتمتزج تقنيات التذكر والحوار الداخلي والتداعي في قصص (الخوف، الموت في الفضاء الرمادي، المفتاح، الأشياء تتداعى، التحديق في جدار رطب ...) لترسم اللوحة النفسية لشخصيات تهيمن على عالمها المخاوف المتصلة والمطاردة من قوى «معروفة»، وأخرى مجهولة لا تستطيع تحديدها. لكنها كامنة في تفاصيل الواقع وجزئياته.
* وتوحي تقنية التقطيع بالامتداد الزمني والسقوط التدريجي لفئة اجتماعية محددة، يفقدها بحر الوحل بريقها المزيف (قصة الوحل).
* وتوظف تقنية الإسقاط التاريخي لمعالجة المصير الجماعي/ المصير العربي الراهن، فمن خلالها يتم تصوير الحاضر من خلال الماضي (الطريق إلى صفين).

وأخيرًا، فإن كل ما تقدم يؤكد أن قصص هند أبو الشعر/ لوحات/ أو مرايا مصقولة بعناية، تعكس ذواتنا ومخاوفنا وتطلعاتنا، وتدفعنا إلى تأمل الحركة السردية، مثلما ترينا ما وراء الأحداث، وما وراء الشخصيات، وما وراء اللغة .. فهي تصور وتكشف في آن واحد ... ما يجعلها مرايا ونوافذ في اللحظة عينها؛ إذ تمكننا من أن «ننظر» و«نرى» في الوقت نفسه، ولعل هذا ما يدفعنا إلى قراءتها ومعاودة القراءة.

هنـــــد أبــو الشعــر: وجــوه إبــداع متعـــــددة مــع إجــراء نقـــــدي

د. نبيل حداد *

لعل أول ما يمكن ملاحظته في شخصية هند أبو الشعر هو أنها شخصية ثقافية ذات جوانب متعددة، من حيث **الجانب الشخصي الإنساني، والجانب الفني الإبداعي، إضافة إلى الجانب الأكاديمي؛ بوصفها أستاذة وباحثة في أكثر من حقل ثقافي، فضلًا عن جانب الناشطة الثقافية بحضورها الفاعل في المشهد الثقافي.**

أما الجانب الأول، الشخصي الإنساني، فلا حاجة للتوقف عنده طويلًا؛ فثمة إجماع، بين كل من عرف الدكتورة هند، على دفئها الإنساني، وتجسيدها الدائم لروح المرحلة التنويرية، وبأنها ابنة أزيد من مرحلة معاصرة، بل إنها نموذج بهيّ من خيرة من يمثل مسيرة المرأة الأردنية المعاصرة، موقفًا حضاريًّا وإنجازًا ثقافيًّا، وعطاءً إنسانيًّا.

---

* رئيس قسم اللغة العربية وآدابها- جامعة اليرموك.

والجانب الثاني في شخصية هند، هو الجانب الفني والإبداعي، وليس هناك من يجادل في المكانة المتقدمة والريادية التي يحتلها نتاج هند أبو الشعر في مسيرة القصة القصيرة العربية بعامة، والأردنية بشكل خاص، بل إن إنجازها في القصة القصيرة ذات المنحنى النَّسوي، الجندري، بخاصة، يظل علامة مضيئة، ومحطة أساسية لا يملك أي باحث منصف أو قارئ حصيف سوى أن يتوقف عند عطائها الثرّ في هذا الحقل الإبداعي؛ لينهل من معينه، ويفيه حقه من الدرس والتأمل والتلقي الجاد.

وأما الجانب الثالث، أي الأكاديمي؛ فإنه يغري بالتوقف عنده طويلًا، ومع بعض التتبع لهذا الجانب الرئيسي، بقدر ما يسمح به برنامج هذه الندوة.

بداية؛ هناك عطاؤها المتخصص، في العلم الذي اختارته تخصصًا أكاديميًّا، عطاءٌ أعطى المكتبة العربية، بل أجزل العطاء للمكتبة الأردنية بشكل خاص، بما أنجزته الدكتورة هند من أسفار جليلة حول تاريخ الأردن الحديث، ولاسيما إبان العصر العثماني، ورسخت منهجًا علميًّا منتجًا في العودة إلى المظان الأساسية، في جهودها من وثائق رسمية ومتعلقات شخصية وعامة . وهل يمكن أن ننسى جهدها الرائد في التأريخ لإربد وضواحيها، أو نجاوز إنجازها الحاسم في نشأة الرواية العربية، حين أدت جهودها إلى تحول في مسارات هذا التاريخ الأدبي؛ فأماطت اللثام عن كنوز ظلت مفقودة وتائهة عن عيون القراء العرب عشرات السنين.

بذلت هند جهودًا شخصية مضنية ومكلفة، جهدًا ووقتًا ومالًا، للكشف عن الكنوز الروائية والإبداعية الأخرى التي أودعها لنا أديب وروائي أردني رائد في خزائن النسيان في مكتبات أوربا؛ فأعادت إلينا الآن رائدًا على مستوى الرواية العربية بحجم **عقيل أبو الشعر**.

وأما عطاؤها المباشر، كأستاذة لطلبتها ومريديها، فيمكن القول أن محاضرة الدكتورة هند، أو ندوتها في الدراسات العليا، كانتا بمثابة حدث ثقافي عند الكثيرين من طلابها، وأن كثيرًا

من عطاء هذه اللقاءات العلمية، كان يؤسس لعطاء أكبر ظهرت تجلياته، في العشرات من الرسائل والأطاريح الأكاديمية التي حملت بصماتها المتميزة.

وثمة جانب رابع في هذه الشخصية الغنية التي نحتفي بها اليوم؛ أعني جانب الناشطة الثقافية.

فمن الضروري أن نتذكر أن مكانة هند أبو الشعر تشغل مساحة واسعة في المشهد الثقافي المحلي والعربي، سواء في إسهاماتها المتواصلة في الفعاليات الثقافية التي تقام في كل ركن من أركان المملكة، أو في الملتقيات الثقافية خارجها، ولا أحسب هذه الأديبة الكبيرة إلا أن تلبي نخوتها العلمية إلحاح هذه الجهة أو تلك لإلقاء المحاضرات، أو المشاركة في الندوات والمؤتمرات، إضافة إلى الحضور الفاعل في تقديم أوراق العمل لهذه الملتقيات، أو إدارة المناقشات. وفي كل مرة يكون لديها الجديد، وفي جعبتها بل في خزائنها ما يشكل إضافات معرفية أو إبداعات متجددة تغني هذه اللقاءات، وتضفي عليها، مع الفائدة العلمية الخالصة، طابع البهجة والحيوية.

وناهيك بمشاركاتها في اللجان والأعمال الرسمية، سواء في الهيئات الثقافية، أو حتى في المؤسسات الإعلامية، أو اللجان الوطنية، إذ بات اسم هند أبو الشعر في العديد من هذه الفعاليات قاسمًا مشتركًا، بل مطلبًا ملحًّا يؤدي دوره في موقعه بكل كفاءة ونزاهة.

لا يمكن للحديث عن الجوانب الأربعة التي ذكرناها في شخصية هند أبو الشعر أن يتسم بأدنى درجة من الكفاية والتوازن، إلا إذا توقفنا عند كل جانب وقفة أطول، وتتبعنا في كل جانب جوانب أخرى فرعية، وهكذا لا يمكن لورقة كهذه، وفي وقت محدود كهذا، أن تفيها حقها كله، إلا بكلمات عابرة؛ ولذلك سأنتقل إلى المحور الثاني من هذه الورقة؛ أي الإجراء النقدي.

وهنا نعود إلى الوجه الثاني من الوجوه الإبداعية للدكتورة هند، أعني الإبداع القصصي، وقد اخترت أن أتوقف عند نموذج رأيته يمثل عطاءها، كما يشهد على أن مسيرة هند أبو الشعر، على الرغم من المنطلق الريادي لهذه المسيرة، لم تتوقف عند مرحلة بعينها، بل ظلت هذه المسيرة في حالة تجدد يواكب أحدث ما في لغه فن الصوت المنفرد من إنجازات، وأرحب ما ارتاده من فضاءات.

حسنًا؛ إنها قصة «**القضية**» من مجموعة «**عندما تصبح الذاكرة وطنًا**»، الصادرة في عمان عن وزارة الثقافة سنة ١٩٩٦.

وقد اخترت هذه القصة تحديدًا؛ لأنها تكاد تستجمع، بصورة أو بأخرى، المكونات الفكرية والجمالية التي يجود بها عالم هند أبو الشعر القصصي.

تقول الخطوط العامة للقصة، إن إحدى الزوجات لاحظت أن زوجها احتفظ بقصاصة من صفحة جريدة تتضمن صورة وخبرًا عن محاضرة ألقتها إحدى المحاميات، من نجمات مجتمعها المهني. هنا تدب الغيرة في قلب الزوجة، وتنبعث الأسئلة المضنية التي تبعثها الغيرة في أعماق روحها: لماذا هذا الاهتمام بخبر المحاضرة، وهل ثمة علاقة مريبة وراء هذه القصاصة وإيداعها في حرز أمين؟ وتصمم الزوجة على زيارة المحامية الشهيرة بحجة أن لديها قضية تود عرضها عليها، وبعد أن جالست المحامية، واتضح لها قوة شخصيتها ومهنيتها، تراجعت، وانسحبت، وأبلغت المحامية أنها غيرت رأيها، ولن تمضي في «القضية».

ينبثق من هذه القصة عدد من القضايا الفكرية والفنية تمكن مقاربتها على النحو الآتي:

١. **أن القصة تستحضر، إلى حد كبير، المرتكزات الفكرية والرؤى الأنثوية، إضافة إلى الأدوات التعبيرية، بطبيعة الحال، التي يقوم عليها ما بات يعرف اليوم بـ«الأدب النسوي»**. وهو أدب يقوم على الانحياز الإيجابي للمرأة؛ أي الانحياز بمعناه الإنساني

والاجتماعي والثقافي لما للمرأة من دين قديم في رقبة الضمير الإنساني، عبر قرون ومراحل حضارية.

ومن هنا؛ فإننا نجد أن «القضية» هي قضية تعني المرأة كيانًا حضاريًّا وإنسانيًّا وليس ـ وحسب ـ حالة فردية أو حتى اجتماعية. وتتضافر في إنجاز هذا الكيان النموذجي عناصر العمل الفنية والموضوعية معًا، فالحدث والحوار يقتصران ـ شكليًّا ـ على شخصيات نسوية وحسب، أما شخصية الزوج، فإنها مغيبة، ويصاغ الخطاب من دون حضوره ـ من وراء ظهره إن جاز التعبير ـ وأن اللغة تواكب المشاعر الأنثوية: «.....قررت أن أهتم بأظافري وأطليها بلون وردي كما تفعل هي».

٢. **ثم إن الرسالة الفكرية الأساسية للقصة، هي الرسالة الأولى للمرأة في الحياة، وهي الهاجس الأساسي وراء كل خطوة أو حركة أو تفضيل: أن تستمر الحياة؛** لأن هذه هي مسؤولية المرأة، لذا؛ لا ضرورة لرفع القضية، خشية تصدع جدار الحب الذي يحمي كيان الأسرة. فلتنتصر على هواجسها، إذن، ولتستمر الحياة، وليتواصل الحب.

٣. **والنص الجميل هو الذي يثير أسئلة أزيد مما يقدم أجوبة: هل من حق أحد الزوجين محاسبة الآخر على ماضيه (أو علاقته) قبل الزواج؟** ولئن تسامح أحد الطرفين بما يتصل بتجارب ما قبل التزام الطرفين تجاه بعضهما؛ فماذا عن هاجس استمرار «طيف علاقة» بعد الزواج؟ ماذا عن علاقة عن بعد؛ حتى لو بالخيال؟ ليس من مهمة النص أن تجيب عن هذا التساؤل. وحسنًا ما انتهى إليه الموقف في نص «القضية».

٤. **في الجانب التقني؛ أظهرت الكاتبة المخضرمة قدرة استثنائية على التقاط لحظات التوتر الإنساني؛ لتقيم عليها بناءها المحكم، مستعينة بالمواد الخام في تكوين جوهر الشخصية الإنسانية:** الغيرة، لا سيما الغيرة النسوية، والتردد، والسعي لليقين، والتطور الدرامي

في بناء الموقف، ثم بلوغ القرار، ثم هذا التصوير المدهش، في مطلع القصة، للحظة زمنية متأججة بالمشاعر والتجاذبات النفسية؛ على الرغم من أن الزمن في هذا المقطع هو زمن ناجز، لكنه ليس خاملًا؛ بل محتشدًا بالمشاعر المتفجرة، والهواجس المجنونة.

٥. **من حيث الزمن الفني؛ ثمة أزيد من بُعد؛ فهناك أولًا الزمن الناجز الذي يلخص الحكاية كلها بإشارات حول أصل العلاقة**، مرورًا بالزواج، إلى المحاضرة، فالخبر الصحفي حولها، واكتشاف الزوجة القصاصة، ثم الليلة الليلاء التي أمضتها الزوجة في استجواب زوجها، ثم وهي تتقلب فوق جمر الغيرة، إلى اللحظة التي واتت الزوجة فيها فكرة افتعال «القضية» و«الشروع بالمواجهة» مع هذا الخصم، الذي انشقت عنه وتشققت معه الأرضية التي تحمل حياتها الزوجية الوادعة، ليبدأ من ثم السرد بالزمن الفني: «عندما رفعت السكرتيرة رأسها في اليوم التالي وحيّتني، وخلعت نظارتها الطبية، ثم أجلستني .....».

إن الكلام مع السكرتيرة، وما أعقبه من حوار سريع مع المحامية، وإشراقات الموقف، وحقيقة شخصية المحامية، كما تمثلت للزوجة، ثم اتخاذ الزوجة القرار التصالحي: «آسفة ....غيرت رأيي....لا أريد أن أرفع القضية ...؟»، كل هذا قد لا يتعدى، افتراضًا، بضع دقائق أو بعضًا من ساعة على الأكثر، وبهذا التكثيف تحقق للقصة أول الشروط التي تؤكد شخصيتها الفنية قصةً قصيرةً: وحدة الزمن.

٦. **ومن هذه الشروط الشائعة في أدبيات هذا النوع السردي، وحدة الشخصية، فنحن، في حقيقة الأمر، بإزاء شخصية واحدة، هذا ما يخبرنا به الراوي الأنا، وما يؤكده موقع الراوي الذي يلازم مظاهر الشخصية الواحدة؛ أي الزوجة، ملازمة مطلقة**، فلا اشتباك مع الزوج، أو مع السكرتيرة ثم المحامية، ولا اشتباك مع اللحظة الراهنة، أو مقاربة

الزمن الناجز، إلا من خلال شخصية الزوجة، وما غير الزوجة من الشخصيات إلا أدوات أو مفاتيح نلج من خلالها إلى دهاليز عالم الزوجة، سواء عالمها الداخلي من هواجس ومشاعر ومواقف وتذبذبات وتقلبات، أو عالمها الخارجي من زمان ومكان وإنسان وأشياء (أي إكسسوارات).

٧. **أما الحدث، فهو حدث نفسي، في المقام الأول، ظل فضاؤه وتداعياته وصراعاته وتجاذباته رهن النطاق النفسي والعقلي والوجداني للشخصية (الزوجية)، وحين تتخذ هذه العناصر الحبيسة مظاهر التجلي وتجليات الفعل الإنساني؛ فإنها تنعكس في الموقف والحدث.** ولعل الأنسب، عند الخوض في العناصر «التقليدية» عن القصة القصيرة، أن نتحدث عن وحدة الموقف، وليس عن وحدة الحدث وحسب؛ فالشخصية الأساسية تخرج، في الأغلب الأعم، مع نهاية القصة، وإن شئنا أن نكون تقليديين بأزيد مما ينبغي، نقول: تخرج الشخصية مع لحظة التنوير ـ إن وجدت ـ أو مع ذروة الحدث climax بموقف جديد، وربما بتوجه جديد، سواء بالنسبة للحدث نفسه، أو بالنسبة للشخصية نفسها، بمعنى أن الزوجة حين اختارت، في نهاية المطاف، ألا ترفع «القضية»، فإن هذا يمثل رؤية جديدة تتعلق بحياة الشخصية وموقفها العام في الحياة: أي إنها خلصت إلى أن حياتها الزوجية واستقرارها الأسري أهم من تلك الهواجس العابرة، وأفكار الغيرة غير العقلانية. والموقف هنا يؤدي وظيفتين، على الأقل؛ الأولى: الوظيفة البنيوية التي عالجت لحظة التأزم في ذروتها، فكانت حلًّا فنيًّا منطقيًّا، والثانية؛ الوظيفة الفكرية أو القيمية التي تجلت بهذا الإجهاض النفسي المريح، الذي تحقق للشخصية بتخلصها من هواجس هذه التجربة، التي لا بد ـ بما انتهى إليه موقف الزوجة ـ أن تكون «قضية» عارضة.

٨. **ويبقى عطاء الانطباع، وهو عطاء نعيشه تجربة تلق شعورية من الصعب الإحاطة النظرية بها أو حتى تأصيلها على نحو جامع مانع**؛ فهذه التجربة لا تسلم نفسها إلا للجانب الوجداني في عملية التلقي، وهذا ـ على ما أرى ـ قد تحقق في هذا التضامن البديع بين التكثيف الزمني الذي يختصر تجربة عمر بساعة واحدة أو حتى بأقل، وفي هذا الاستحضار الدقيق اللافح لحرارة الاضطرام في أعماق الشخصية، وفي هذا التماسك الصارم بين مكونات النص الفنية والفكرية والقيمية والسيكولوجية الطبيعية، الموصولة بأعماق الحياة الإنسانية (وليس الحياة الشخصية وحسب) ...الحياة بكل كائناتها وأشكالها وتنوعاتها.

ألم الكتابة عن أحزان محكيّ في قصص «مارشات عسكرية»

د. منتهى طه الحراحشة *

الملخص

يسعى هذا البحث إلى دراسة ألم الكتابة عن أحزان محكي الطفولة في قصص «مارشات عسكرية» لهند أبو الشعر، في ضوء المنهجين؛ للنبش عن ألم الكتابة ووجع الذاكرة، لاستخلاص أبعادها الواقعية والنفسية والاجتماعية، والكشف عن رسالة إلى ذاتٍ مفقودة، وبيان سلطة الرمز وانشطار الذات، وتحليل الألم واللذة وبلاغة الخطاب، والوقوف على لحظة التنوير في المجموعة القصصية.

وتوصل البحث في خاتمته إلى أن الكاتبة استطاعت تجسيد أحزانها عن محكي طفولتها، بأسلوب سردي متناغم ومتفاعل مع عناصر

* أستاذة الأدب العربي الحديث والمعاصر ونقده وعلم السرد والنظرية النقدية ـ جامعة آل البيت.

السرد، وبلغة تصويرية واصفة ومعبرة عن لحظات التوتر والألم والحزن والفقد، التي تجسدها الصورة وطبيعة العلاقة بين الكاتبة والنصِ؛ لتفرزَ من تلك الصورة التي صنعتها الكاتبة، برؤية عميقة وشفافة، محكيَّ طفولتها الغني بقصصه وحكاياته وصوره.

المقدمة

ألم الكتابة ووجع الذاكرة

تُعد الكتابة القصصية، في أحد نماذجها، مشروع سيرة ذاتية لكاتبها عصّية على الاكتمال، ويظل القاص فيها متأملًا، و«باحثًا عن التحقّق، وإنهاء القصة الأخيرة التي تعبّر عنه وتنقل رؤيته للكون والوجود، فلا هو كاتب آخر في قصصه، ولا هو ناقلُ العين التي بها يرى الكونَ، فالموت أسبق، وهو مقتطِعٌ قسمًا من حياة القاص لم يُكتَب» [١] . لذا فإنّ السرد هو العنصر المتخيل الذي يجسد، في صورته النهائية، ذات الكاتب التي تظلّ تسعى؛ لكي تبقى ظاهرة وماثلة في فعل يُروى، أو قول يُنقل، أو حال يذكر. إنّها ذات الكاتب المتصلة في عملها القصصي؛ إذ «يتداخل العالمان وتتشابك عناصرهما وملامحهما»[٢]. من هنا لا يمكن عزل ذات الكاتب عن نصه السردي المنجز، وعن تاريخ حياته وآماله وتطلعاته وأحزانه، وذكريات طفولته، بما تحمله من رؤى ودلالات متنوعة سياسية أو اجتماعية أو تاريخية أو نفسية أو جمالية؛ لأنَّ القصة التي تتشكل من فعل الذات الكاتبة هي الوِعاء الذي تصوغ من ذاته كلامًا، وسردًا يعبّر عن تفاعلها مع عالمها. وعلية فإنني سأتناول قصص «مارشات عسكرية»، وما لمؤلفِتها من أثر عميق وواضح في بناء السرد القصصي العربي في الأردن، وبما أحدثته من انحراف في مسار القصة العربية، ومحاولتها المستمرة في بناء عالمها القصصي، بما تملكه من أدوات سردية ولغوية تجسد موقفها من ذاتها والآخر والعالم، وتنقل للقارئ، عبر عدسة السرد، ما تحمله من آلام وهموم وأحاسيس، وذكريات تاريخية واجتماعية ووجودية،

نتجت عن عصارة قلب أضناه حب الآخر، وحب الحرية، وألم الذكريات، لما تعانيه الكاتبة الموجوعة. فشكلت نصوصًا قصصية إبداعية، بعينٍ قادرة على الرصد «والمعاينة، وذاتٍ مرهفةٍ، مدركةٍ، ولسان قاصة، تحوّل موقفها من وجودها ومن يعايشها مع العالم إلى عالمٍ من التخييل»[٣]. فهل استطاعت الكاتبة في قصصها أن تعبر عن ذاتها، وترسم صورة عن أحزان محكي ماضيها، وتستمد قوتها وصلابتها من قوة ماضيها أم لا؟ أم إنَّها استسلمت لهذا الماضي الحزين فجعلت من نفسها مَسودة لسيّد الفقد الموت؟ وكيف ستوفِق بين حاضرها وماضيها وواقعها، بقوةٍ مستمدةٍ من ماضيها، وبكينونة أساسية لوجودها هي كينونةُ حب الآخر واستشراف المستقبل؟

هنا يتجلّى الواقع المتألم في قصص الكاتبة، مشكلة أبعادها الفكرية والنفسية والاجتماعية، ورسالتها إلى ذات مفقودة، وانشطار الذات، وسلطة الرمز، وبلاغة الخطاب، ولحظة التنوير، منسوجة بمشاعر الألم والحزن والفقد والتوق والخلاص، عبر حسٍ إبداعي قصصي، يندمج في الواقع؛ ليشكل بؤرة دلالات متجددة، وليكون متخيلها السردي مشروع كتابة جديدة في منجزها القصصي، ينهل من واقعها وذاكرتها، رؤاه ودلالاته، وتُعيد تشكيله بقدرة إبداعية ترسم بلاغة ذكرياتها الموجعة؛ لتشكل حكاية الذات رهان التحقق المجسد في أدبياتها.

لذا؛ تندرج دراستي كخطوة نقدية، نهدف من خلالها إلى الكشف عن ألم الكتابة وعن حزن الكاتبة في مكامن السرد القصصي، وفق رؤية منهجية ذات طابع فلسفي.

عالم القصص وأبعادها الواقعية والنفسية

جاءت المجموعةُ القصصيةُ «مارشات عسكرية»[٤] لهند أبو الشعر، اعتمادًا على كاتبتها، سيرة تكتبها بألم عن شخصيات حاضرة في ذاكرتها فقدتها بسبب الموت، وقد أسقطت الكاتبة رؤيتها للموت والحرية والسلطة على الذات المعذبة والمنشطرة، بسبب الفقد والسلطة.

وتتمحور الغاية التي كتبت من أجلها هذه القصص حول حزنِ محكيّ الطفولة، ووجع الذاكرة بسبب ألم الفقد لشخصياتٍ مقربةٍ منها، من مثل شخصية الأب، بطل قصتي «أجراس» و«الهاتف»، والجد بطل قصة «مارشات عسكرية»، والأم بطلة قصة «أجراس»، والجدة بطلة قصة «الخابية والحاكورة وشاي على الحطب»، والجارة أم يوسف بطلة قصة «أم يوسف»، والصديقة حنان أغا بطلة قصة «الحدود»، والعملاق بطل قصة «سيرة العمالقة»، وتدور حولها المواقف، وتلتقي عندها الشخصيات الأخرى، فيرتد كلُّ ذلك منعكسًا مع داخل المترجَم لهم إلى خارجها، مصطبغًا بروحها وفكرها وشخصها.

بيَّن السرد القصصي، بحق، أن المُؤلِفة استطاعت أن تجد للشخصيات المتحدَث عنها مرآة عاكسة لواقعها الحالي، وما يتخلله من مستجدات وقضايا كبرى، إلا أن هذا لا يمنع من أنَّ الكاتبة أيضًا، استطاعت التوفيق بين ظرفيات زمنية متفاوتة، كان لها أثَرُ رجع الصدى على ذاكرتها بين ماض وحاضر، ما أسعفها على تشكيل بنية نص سردي، يكمن انسجامه في إعلان لغة الألم الدائم في شق دروب الحياة، التي سربلت شخصيات النص بقوة الحضور في النص، بحكم المواقف التي تجشّمتها عبر هذا السفر القصصي.

فقصص «مارشات عسكرية» وهي القصص الأخيرة للكاتبة، تأخذ منطلقاتها من منبع ديكارتي في ربط الأنا بالوجود. هذا معناه، أن من خصوصية الحياة أن تنعم الأنا بالشجاعة؛ لأن الموت الحقيقي هو الموت من الألم ووجع الذاكرة للذات المعذبة، وليس الخوف من الموت. إنها لحظةُ اعترافٍ للذات القاصة في تحرير الكلمة من غربة الموت والصمت، وفق صراع بين الشخصية والآخر، وبين الشخصية وقراراتها الداخلية التي أرهقها الحزنُ والأسى، جرّاء ما تخفيه الذاكرة من مفاجآت جعلتها تصمد من أجل ماضي ذكرياتها.

إن قراءتنا لقصص «مارشات عسكرية» في صفحاتها (١٠٤)، تُظهر بين ثنايا خطابها

بعدًا واقعيًّا اجتماعيًّا تصطدم فيه الذات بين الظاهر والخفي، وبين الاستنطاق والاعتراف، داخل دوامة من السرد التي أسهمت في تصاعد أحداث القصص، بين الشخصية البطلة وألم الذكريات. هذا ما جعل القصص تأخذ نمطًا حجاجيًّا يقوم على مبدأ القص الذي تشعب ليتغلغل داخل ثنايا الخطاب السردي. فالكاتبة كانت دقيقة في اختيار أبطال قصصها، باعتبارها قطب الرحى في تحريك نسيج الأحداث، وكذا مرجعًا ضَمَّنَت فيه الكاتبة الحضور المزدوج لوعي الشخصية بذاتها وبغيرها، فالقصص تعيد إنتاج الخطاب الموجع بطريقة أدبية ترتبط بعلم اجتماع النص. هذا معناه أن قراءة هذا الخطاب القصصي هو إعادة إنتاج فكر مجتمعي جديد، يخضع للمراقبة والتنظيم لإخفاء ماديته الثقيلة، فسردية النص جعلت البطلة تحيا حيوات متنوعة ومتعددة، في لحظات التخيل والتخييل، ومنحتها قدرًا مضاعفًا من اللذة والعذاب، والرقة والعنف اللذين يتجاذب فيهما التذكر والنسيان في معالجة الواقع المعيش، عبر لعبة تبادل الأدوار الممثلة داخل فضاء النص، بغية تطويع إيديولوجية الكتابة وفق صياغة أدبية تعلن التمرد الفكري في وجه لغة الاستنطاق السلطوي. تقول بطلة قصة «سيرة العمالقة» التي حملت فكرة الرواية ورؤيتها على كتفيها حتى النهاية: «**وقف العملاق، هبّ واقفًا بدوره، فوجد نفسه قزمًا أمامه، وقال العملاق بنفاد صبر: تفضل يا سيدي، هذا الكرسي للدولة، وأنا أجلس عليه حتى تشاء الدولة..! اقترب من الكرسي، ووجده أعلى مما توقع، قال للعملاق بتوسل: أرجوك ارفعني.. أرجوك..! كيف تريدني أن أرفعك..؟ سامحني أنت قصير جدًّا، أرجوك حقق لي هذه الأمنية.. أرجوك.. ما عليك إلا أن تحملني على كتفيك..! صعق العملاق، لكنه فكر بالأمر لحظة وقال للضيف العجيب: اصعد على الكرسي الصغير أولًا وضعه قرب الكرسي المرتفع**» (أبو الشعر: ص ٧٤). وتستمر القصة ويتسلق الضيف المجنون ظهر العملاق، ويقبض على عنقه بقوة، وعلى الرغم من محاولة العملاق التخلص منه، إلا أنه يسيطر عليه ويضرب العملاق في صدره، فعرف العملاق

أن عليه أن يلبي أوامر الرجل المجنون، وأن يحمله حتى يتخلص منه، ليكتشف في النهاية أنه يحمل رجلًا مسخًا تمكَّن منه. تقول الساردة: «**كان رجلًا مسخًا جلس بارتياح عجيب، مدّ قدميه، وقال للعملاق بجرأة: أنا صاحب الكرسي الآن ... أحضر لي القهوة وانتظرني لتحملني عندما أشاء..! وأسدل الستار.. سلالة العملاق.. تتالت الأحداث، فقد وصل للعملاق أمر عاجل بإنهاء خدماته، وعندما توسل عينوه مسئولا عن حمل الرئيس الجديد، ليرفعه إلى الكرسي ويحمله إليه، ويشاهد العمالقة اليوم من سلالة لعملاق وهم يسيرون في كل مكان، يحملون سلالة المدير الذين اعتادوا على ركوب ظهور العمالقة للصعود إلى كراسي أخرى.. عالية وجديدة وبجوار كل كرسي عملاق**» (أبو الشعر: ص٥٧).

رسالةٌ إلى ذاتٍ مفقودة

إنّ ذات الكاتبة داخل الخطاب السردي، تُعدّ مرصدًا يسعى إلى تحرير لغة الكتابة ومساحات تخييلها، ومنحها الدينامية الضرورية، لخلق الأشكال التعبيرية، بجعل الحياة الخاصة موضوعًا، وتفاصيل العيش وثيقة، تتوخى رسم صورة لشخصيات انعكست مراياها في شخصيات أبطال القصص (الجد والجدة والأب والأم والجارة والصديقة) الذين أخذهم الموت، وأرقها، فشكل فقدهم غصة ألم في نفسية البطلة الساردة، إنهم الحلقة المتألمة بين ثنايا الخطاب، فهم الظل الهارب المفقود الذي يصعب على البطلة مسكه، لأنه يمثل أناها وتاريخها الشخصي، وذاكرتها ومدركاتها للعالم. وفقد ذلك الظل، يعني الوقوع في حبال خرائط وجغرافيات ومتاهات وحقب وأزمنة ولحظات تشكل أوضاعًا مجتمعية، من شأنها أن تخلق لذة التذكر والتقصي والاكتشاف، عبر مراودة اللغة وبياضات الكتابة التي خطتها الساردة بألم موجع، لتشكل نزيف السؤال عن الحاضر في الذهن الغائب عن العين.

إن تأمّلنا واقع الكتابة، يأخذنا إلى عوالم الحزن والدهشة بين فضاءات متضاربة، بين زمن السرد وزمن رفض وقوع الحدث، حيث تقول البطلة في قصة «أجراس» التي تسرد فيها موت والدها، وانعكاسه على شخصية أمها: «**في الرابعة صباحًا تسللت إلى غرفتها، تطلعت إلى ساعة الحائط القديمة ورأيتها، أعرف أنها الرابعة صباحًا، لكن أريد أن أراها، لن أنام، سأجلس في العتمة، وأتأكد أنها تغفو، وأن قلبها ينبض، سأستمع فقط إلى صوت تنفسها، وأتأكد من دفء جسدها**» (أبو الشعر: ص ١٩ ، ٢٠). إنه التذكر داخل دوامة الألم عبر خطوط السرد المكبلة بواقع اللحظة، التي شقت من خلالها الساردة عوالم تذكر الماضي بقولها في قصة «شاي على الحطب»، واصفة مشهد موت الجدة: «**ماتت الجدة، كانت ليلة شتائية موجعة، ظلت الريح تعصف والجدة تنادي على أمها، كان الصغار يتوقفون عند سريرها ولا يفهمون النداء الوحيد الذي تطلقه حنجرة الجدة: أريد أمي.. أمي.. أريد أمي..! تهذي الجدة أم ماذا؟ ..**» (أبو الشعر: ص٨١). إن هذا التساؤل يعكس ألم الكتابة عن وجع الذاكرة التي تحاكي ذكريات الطفولة وأحزانها، إنها تحاكي طيف الجدة التي ما زالت ذكراها تؤرق البطلة، وتجعلها تئن من ثقل الفراق، وبالتالي مطاردة الأخيلة والأفكار، هروب من محاصرة ألم الذاكرة، وفق ثنائية الجذب بالانجذاب. تقول البطلة: «**غافلتنا الجدة وهي تحتضر، نزلت في منتصف الليل عن سريرها، زحفت على مؤخرتها، ببطء، واتجهت زاحفة نحو الباب الخارجي. كانت تحاول الخروج نحو أشجار اللزاب .. حملناها وأعدناها إلى السرير.. ظلت تنادي على أمها، كررت المحاولة، كانت تريد أن تموت في الحرش، تحت أشجار اللزاب التي سقتها من ماء البئر وكبرت مع أبنائها.. ظلت الريح تعصف والجدة تحتضر، وتكرر محاولة الزحف بإصرار عجيب، سمعت الطبيب يقول وهو يتفقدها للمرة العشرين: هذا أمر عجيب لم أره في حياتي.. الجدة تحتضر ولكنها قوية..! وأضاف بصوت خافت: امرأة فيها**

روح برية عصية على الموت..! لكن الجدة ماتت، دفناها في اليوم التالي والثلج يتساقط على رؤوسنا، ويكلل اللزاب بلون ناصع، كانت دموعنا تسقط مع المطر، وأشجار اللزاب تطل علينا وتودع الجدة الذاهبة نحو الأبدية، أحسستُ وأنا أتطلع نحو الأشجار الواقفة بشموخ حزين، أن الأشجار تبكي معنا بدموع بيضاء لا تنتهي» (أبو الشعر، ص ٨١، ٨٢).

سلطة الرمز

استندت الكاتبة في هذا العمل إلى توظيف رموز إيحائية عدة، منها: **راديو الفيلبس، ومارشات عسكرية، وشجرة اللزاب، وإبريق الشاي، وشجرة الكينا، والتابوت المصنوع من شجر الجوز، والأجراس الباكية، والجدة، والباب الكبير، والفرس الصقلاوية، والجوقة** باعتبارها رموزًا للحرية والتراث والسلطة والانعتاق والألم، مستمدة خصوصياتها الدلالية من مرجعيات مختلفة، نذكر منها قول الشاعر علي محمود طه وغناء عبد الوهاب: «**أخي جاوز الظالمون المدى**»(أبو الشعر: ص٦٨)، ثم رمز الصوت المسموع الدال على الحرية، مثل صوت العرب وإذاعة لندن، والرمز التاريخي مثل الجياد المطهّمة البيضاء القادمة من البعيد، وطيوب البتراء والزعفران، شيء جعل الساردة تعد الزمن بالدقائق والثواني حتى تنعم بالراحة كما في قولها: «**تعالي إذن أيتها الجياد المطهّمة البيضاء، داهمي العتبة الساكنة منذ شتاء، توقفي أمام بابي، أحضري طيوب البتراء وثياب الرحيل المعطرة بالزعفران، تعالي أيتها الجياد من بعيد، فروحي تشتاقك..! تقدمي جوقة القادمين لمرافقتي إلى هنالك، تعالي!**» (أبو الشعر: ص٢٧). ورمز ساعة الحائط القديمة، للدلالة على الزمن الذي يفصل بين الزمن المتحرك (الفضاء الخارجي) والزمن الثابت (الموت)، ورمز كرسي العملاق، وقطيع الضباع على قمع حريات التعبير.. وغيرها من الرموز التي تزدحم فيها المجموعة القصصية.

انشطار الذات

تجاوزت الكاتبة هند أبو الشعر في قصصها «مارشات عسكرية» قضايا الجسد والجنس، لتحمل في مضمونها القصصي رؤى جديدة تعبّر عن ألم الحزن، ووجع الذاكرة، وانشطار الذات بين الماضي الساكن في ذاكرتها والحاضر الذي رسمت من خلاله صورة حيّة لذكريات الطفولة من نافذة الذاكرة التي تنهمر منها الذكريات، وتفوح منها الرائحة الطيبة لمن رحلوا ببطء، فيفور قلبها حزنًا، ويحترق ألمًا كما تحترق الأغصان الصغيرة ببطء، وكما يفور الماءُ في الإبريق، وكما تحضن الجدةُ الإبريق العتيق في ظل أشجار اللزاب الذي يمتدّ حتى آخر الكون. تقول الساردة: «تنهمر الذكريات، وتفوح الرائحة الطيبة، وأقسم إنني في ليالي الشتاء الموجعة، وصوت الريح العاصف يضرب الكون، أسمع صوت الجدة وهي تنادي أمها، وأكاد أسمع صوت زحفها الأخير نحو أشجار اللزاب.. وأقسم إنني أشم رائحة إبريق الشاي تفوح معطرة باحتراق الأغصان اليابسة» (أبو الشعر: ص ٨٢).

الألم واللذة عبر دوائر السرد القصصي

تشكلت قصص «مارشات عسكرية» من مفاصل محورية عبر دوائر السرد، كالموت والحرية والسلطة، تحتفي بالحياة، وتدين كل أشكال مصادرة الحرية، فولدت الألم واللذة النابضة في أعماق السرد القصصي من البداية حتى النهاية؛ لتضيء رؤيتها للقارئ بحرفية سردية تتحرك في كل نص ضمته مجموعة «مارشات عسكرية»، بغية الوصول إلى الرؤية الفلسفية الجمالية.

استطاعت الكاتبة رصد هذه العناصر برصد الشخصية المفردة، في أضيق المساحات وأكثرها كثافة وامتلاء.. فكشفت عن هاجسها في محاربة الحزن والظلم وعشق الحرية، هذا

الهاجس الذي لا يتغير مكانًا أو زمانًا؛ لأن منطق الغاب يعايشنا كل مكان وزمان، لكن الكاتب الذي يصرخ ضد العنف ومصادرة الحرية سيظل يصرخ بلا انتهاء. (ينظر: أبو الشعر: ص١٢ـ١٣).

وقد تفردت قصص «مارشات عسكرية» في بعض الثيمات التي منحتها خصوصية الكتابة عن ألم محكي الطفولة عند الكاتبة، وتجاوزت في دوائرها السردية المتسلسلة قصصها الأخرى، لتنحو تجاه تسيير الذات في ذاكرتها المزدحمة بالعديد من الصور والأماكن والرؤى والتطلعات، فجاءت قصصها في موضوعات أساسية ومحورية تعبر عن طفولتها وذاتها الحاضرة، ومستمدة من ذاكرتها كما كشفتها حركة السرد، يؤطرها الحزن والألم واللذة والمرض والموت والحرية، كمفاصل تشكل تجربتها التي تتفرع، وتحتفي بالحياة، وتدين كل أشكال مصادرة الذات والحرية معًا، مثل السلطة الحاضرة بكل أشكالها وتجاوزاتها وسطوتها بلا مبرر بحق الفرد، التي تبدأ من البيت والحارة والشارع والمدرسة والجامعة والعمل، وتطال الرموز كلها. وقد وجدت الكاتبة القصة المجال الأرحب؛ في رصد كل صغيرة وكل حدث؛ لتعالج كل فكرة على حدة، مضفية حزنها وألمها وتفردها، فيحتل الشعور بالألم والمعاناة والتعب والفقد محور رؤيتها الذاتية، التي تجسد واقعها الاجتماعي، بما يتضمنه من مؤثرات اجتماعية وتاريخية وثقافية ودينية برزت واضحة في قصصها، كما في قصة «**أجراس**»، و«**دموع أم يوسف**»، و«**الحاكورة**»، و«**مارشات عسكرية**»، و «**الحدود**»، و«**الخابية**»، و«**الضباع**».

بلاغة الخطاب

وظّفت الكاتبة في النص خطابًا فنيًّا يتخلله الوصف، لاستمالة شعور المتلقي ودغدغة إحساسه، من خلال بعض التنظيمات التي يشغلها الوصف في النص، كوصف الموكب الجنائزي لوالدها المتوفى، وحال أمها بعد وفاة والدها، ووصف الباب الكبير لبيت الجدة، وإبريق الشاي الذي أحضره جدها من الشام، وحاكورة الجدة، ومشهد العبور، وكرسي العملاقة، والأجراس، وراديو الفيلبس الذي أحضره جدها من فلسطين، والخابية والمارشات العسكرية والعتبة وشجرة الكينا، ووشاح أم يوسف المزركش، ووصف فضاء بيت الجدة، ووصف ذكريات الزمن الجميل.. كل هذا منح الخطاب السردي قوة التعبير الوصفي، باعتبار الوصف شكلًا ثانيًا للسرد، هذا معناه، حسب تصور بورديو في كتابه «سلطة الخطاب وخطاب السلطة»، قوله: «إن سلطة الخطاب تكمن في بلاغة الوصف التي تزود الكلام بفائض المعنى الذي يمكّنه من قوة التبليغ في النص وفي الواقع»، فخطاب النص جاء حاملًا بلاغة تعبيرية تجاه قضايا الكتابة الروائية وطرائق صياغة أفكارها ومعانيها، من خلال توزيع الجمل الوصفية بحسب الإمكانات التي يتيحها فضاء القصص. تقول البطلة الساردة، واصفة باب بيت الجدة: «**كان أبي يحمل أكياسًا كثيرة، ويحاول أن يجتاز الطريق من السيارة إلى باب الجدة الكبير، كان الدخول إلى باب الجدة يروق لي ويخفيني، باب حديدي عال بارتفاع الأفق، وفيه باب صغير له يد حديدية نتسابق على استخدامها والسيطرة عليه... مفتاح بابها أكبر من كفي.. سألتها عن المفتاح باستغراب: من أين جئت بهذا المفتاح..؟ تتنهد الجدة وتقول بصوت مرتجف: من حيفا، أحضره الجد الكبير. ومن هو الجد الكبير..؟ تتطلع إلي بغضب وتقول باستغراب: جدك، الأفندي..!**» (أبو الشعر، ص ٥٩).

كما جاءت النصوص القصصية متنوعة في لغتها، ومتفاوتة في مستوياتها؛ لتشكل انسجامًا

وتناغماً مع مستويات الشخصيات فيها، ورؤيتها وأحلامها، فجاءت لغة السرد وصفية تصويرية، وانزياحية في بعضها، أما لغة الحوار فزاوجت بين العامية والفصيحة؛ للإيهام بالواقعية، وإثارة الفضول لدى القارئ في متابعة النص وملاحقته حتى النهاية. وقد وظّفت الكاتبة اللغة العامية في بعض الحوارات والأصوات الساردة، كما في قصة «دموع أم يوسف»، وهي تشيّع جثمان جارها «أبو حسن» إلى مثواه الأخير، صارخة بصوت تعتريه الحرقة والألم والفقد: «**صرخت من بين النساء وهي تلوح بمنديل أبيض: مع السلامة يا أبو حسن، مع السلامة يا خوي!!**» (أبو الشعر: ص٤٧). فصوت «أم يوسف» ـ هنا ـ جاء في العامية؛ للإيهام بالواقعية الاجتماعية التي تؤمن بها الكاتبة.

لحظة التنوير

يُمكن القول بأنّ لحظة التنوير أهم عنصر في القصة القصيرة؛ لأنها تكشف عن نهاية القصة ورؤية كاتبها، وتفضي إلى الانطباع العام للقصة القصيرة، وقد جاءت نهاية قصص «مارشات عسكرية»؛ لتضيء رؤية القصص برمتها، وتكشف عن المغزى الحقيقي والمتلون للمجموعة القصصية؛ إذ يستمر السرد عبر تقنيات سردية توظفها الكاتبة بدقة؛ لتجسد رؤيتها عبر ثنايا النص، كالحوار، والتذكر، والمنولوج الداخلي، ودوائر السرد حتى نهاية السرد، وليكشف للقارئ عن فكرة الخلاص التي ترى فيها بطلة القصص حلًّا لكلِّ آلامها وأحزانها ومعاناتها، وهي شبه نهاية مغلقة، سببها الاستسلام للواقع، واليأس من الماضي، وعدم قدرة الشخصية في الاستمرار في دوائر صراع تعيشها، ألم فقد الأب السند، والأم الحضن الدافئ، والجدة الأرض والثبات، وأم يوسف الحب العميق المخفي، والصراع مع الذكريات، وألم الذات وحزنها. تقول البطلة الساردة في نهاية قصة الحدود: «**كانوا يواصلون السير مثل سرب نمل كبير يعرف طريقه! ارتعشت، ارتجفت، وعرفت أنني ذاهبة معهم كلهم إلى هناك**» (أبو

الشعر: ص٤٠). وتنهي قصة دموع أم يوسف: «**أحسست فجأة بأن الحزن الذي كسر قلبي كبير، لمعت دموع المرأة، رأيتها تغلق الباب بفجيعة، انسحبت، وسمعت نشيج أم يوسف يختنق خلف بابها، زاغت نظراتي وارتعشت، افتقدت أبي، افتقدته بجنون، وضعت المفتاح في جيبي بعد أن تأكدت من إغلاق البوابة، وانخرطت بالبكاء**» (أبو الشعر: ص ٤٩).

الخاتمة

تناول البحث موضوع ألم الكتابة عن أحزان محكي الطفولة في قصص «مارشات عسكرية» لهند أبو الشعر بالدرس والتحليل، وتوصل في خاتمته إلى أنَّ مفهوم ألم الكتابة عن الحزن عند الكاتبة، يعدُّ تحولًا وتعديلًا جذريًّا في كتابتها القصصية؛ لتتحول إلى تجربة مجازية متخيلة ممزوجة بالواقع، تجسد رؤيتها للماضي والحاضر والمستقبل، وموقفها من الحرية والسلطة والموت، وتجارب البشر بعيون جديدة. تقول الكاتبة: «**الموت والحياة، مفاصل تشكل تجربتي التي تتفرع، تحتفي بالحياة وتدين كلَّ أشكالِ مصادرة الحرية، وهذا يعني أنني لا أحب السلطة وأحارب تسيدها وسطوتها بلا مبرر.. لا أقصد بالسلطة العسكر ولا الرئيس فقط.. السلطة تبدأ من البيت**» .(أبو الشعر: ص١٣).

كما بدا تفاعلها جليّا مع الثقافات والسلطة، ومفهوم الحرية والرؤية غير المتحيزة، ومراجعة كل المفاهيم الذاتية والوطنية والقومية والإنسانية، ووضعها على بساط البحث من جديد. تقول الكاتبة في مقدمة المجموعة القصصية: «**عندما لاحقني السؤال الذي لا بدَّ وأن نطرحه على أنفسنا بقوة: هل سيكتب الكاتب في القرن الحادي والعشرين بروح جديدة، وفكر جديد مختلف، وتقنيات لا علاقة لها بتقنياتنا التي تعودناها..؟ بالطبع كل هذه الأسئلة مبررة ومطروحة لكن الشيء الوحيد الذي لن يتغير هو سؤال الحياة: من نحن..؟ ومن أين جاء**

الكون؟ إلى أين نذهب..؟ يظل الموت يقهرنا بلا رجعة.. يظل حاضرًا في الجهات والأمكنة والأزمنة.. ويظل الأقوى بيننا.. لذلك فهو حاضر لدي في قصصي» (أبو الشعر: ص ١١).

قدَّمت الكاتبة قصصها بأسلوب سردي متفاعل مع الحدث والشخصية والحوار، بلغة تصويرية موحية ومعبرة ورامزة، تجسد لحظةَ الحدثِ الفني بخيال ابتكاري إبداعي يصور لحظات التوتر التي تفرزها الصورة، وطبيعة العلاقة بين الكاتبة والنص؛ لتفرزَ من خلال قصصها تلك الصورة التي صنعتها الكاتبة.

ولا بدَّ من الإشارة بأنَّ الكاتبة تحكَّمت في تشكيل قصصها، بصورة فنية، متخيلة مجموعة من الدلالات والاقتراناتِ النابضةِ بالحياة والحركة والإيماءات والرموز، القائمة على مفارقات عديدة حزينةٍ يعتريها الغموضُ والرؤيةُ السوداوية لبعض الصورِ الحياتية التي عاشتها الكاتبة أحيانًا، والأملُ والموتُ والتهكمُ والسخريةُ والحب والكرهُ، أحيانًا أخرى.

وأوضحت أنَّ تلك النصوصَ القصصيةَ مفتوحة للمتلقي؛ لتضع من خلالها النهاية التي يريدها القارئ، وتشجعَه على استمرارية القراءة وملاحقةِ الحدث بلا مللٍ أو ضجر، فيتحول من مُتلق عاديٍّ إلى متلق مشارك في صناعة الحدث.

لذا؛ فإنَّ القاصة هند أبو الشعر، تمكنت من تطويع القصص المعاصرة في جوهر السيرة الغيرية لخدمة المنظور الواقعي، برؤية نصية تعكس العديد من التجليات الذوقية لجنس القصة.

من هنا؛ فإنني أرى بأنّ رهانات الحداثة القصصية العربية عامة، والأردنية خاصة، لا تتحقق إلا عبر متهيَّآت نصية تشكل قطائع مع نصوص أخرى غير حداثية، والغرض من هذه الملاحظة ليس التصنيف والنمذجة، وإنما بهدف حسن القراءة، وإدراك المتلقي الإنجازات النصية، من حيث التشكل والبناء واللغة، والتعامل مع الواقع.

المصادر والمراجع

(١) زروق، محمد: **الأنا والآخر والهم التاريخي: دوائر تولّد السرد في رواية «بن سولع»** لعلي المعمري، ضمن كتاب عالم علي المعمري السردي(أعمال ندوة علميّة) ، تحرير: هلال المعمري ومحمد زروق، مسعى للنشر والتوزيع، البحرين، ٢٠١٤، ص ١٣٣.

(٢) **المرجع نفسه**: ص ١٣٣.

(٣) زروق، محمد: **مرجع سابق**، منقول بالتصرف، ص ١٣٣.

(٤) أبو الشعر، هند: **مارشات عسكرية**، ط١، دار ورد للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٤م.

هنـــــد أبـــو الشعـــر والكتابة الإبداعية

د . زياد أبو لبن *

سيرة حافلة بالعطاء والإبداع، لا كلل ولا ملل يتشعلق جدرانها، ولا تنثني محطاتها على تعب أو توقف، فتندفع بكل قوتها نحو المزيد من الإنجاز والإبداع والعمل، وأي إنجاز أو إبداع أو عمل ذاك الذي يتخطى رقاب العمر في سنوات مفعمة بالحياة والأمل، ومشحونة بذرات تتناثر جنبات الحياة، لا تلوي على ماضٍ يفتّ من عزيمتها، ولا حاضر ينهض في غفلة من سنوات العمر، تمضي بها الحياة كساقية تملأ يباب الأرض لتحيا من جديد، بعد مواتٍ قد عصف في حدائق الروح، تخطّ كلماتها في حقول سنابلها التي أثقلها الحَبُّ، فتمايلت تغدو خماصًا وتروح بطانًا كنوارس البحر، وهي تعانق شمس الكتابة من جديد.

* قاص وناقد وشغلَ عددًا من المناصب الإدارية في وزارة الثقافة الأردنية.

كتبت فأينعت، ورسمت فأبدعت، قاصة وشاعرة وفنانة تشكيلية ومؤرخة، تنحت من الكلمات فتثري جماليات اللغة، كما تنحت من الألوان فيغيب قوس قزح خجلًا، وتسبر أغوار البحث، فتستنهض التاريخ من سباته، هذه هي هند أبو الشعر.

بدأت حياتها في كتابة القصة القصيرة، فجاءت «شقوق في كف خضرة» فاتحة الكتابة الإبداعية على مجموعات قصصية ست (شقوق في كف خضرة ١٩٨١، المجابهة ١٩٨٤، الحصان ١٩٩٠، عندما تصبح الذاكرة وطنًا ١٩٩٦، الوشم ٢٠٠٠، مارشات عسكرية ٢٠١٤). ومَن يتتبع قصصها يلحظ هذا الخط التصاعدي في امتلاك جماليات اللغة، وشاعرية السرد، والرمز الشفيف في دلالاته، والبعد الإنساني في خروجه من ضيق المكان الجغرافي، تتحرك قصصها في أمكنة متعددة، وأزمنة مختلفة، فتنطلق من الأنا إلى الآخر في مضامين تنهل من الحياة اليومية، ما يشكّل عالمًا مسكونًا بالحكايات، وتصبح آلام الناس وأوجاعهم هاجسًا يقبض على مفاصل السرد، ويتحول الإنسان في لحظة إلى التشييء، فتعيده إلى إنسانيته التي تصرخ في وجه العالم البشع المليء باختلالات العصر، وانهيار المنظومة الاجتماعية، واغترابه عن المكان الذي انبتّ عنه، لينازع وجوده في الكون، فرائحة الموت والدم والخوف والقهر تنطفئ في لحظات الأمل والخير والحرية، هكذا ينطوي السرد وما يتخلله من حوار ووصف في معظم قصصها، إن لم أقل جميعها.

تحمل قصص هند أبو الشعر رؤيا جديدة لواقع نسيجه البسطاء والمهمشون والمغلوب على أمرهم، وتتعدد أصوات الرواة والرموز في صراعها اليومي، ويعيش الإنسان في أزمة مع ذاته، وتتشظى الذوات في استعادة الماضي، لتنفتح من جديد على حاضر ومستقبل، في همّ جماعي يُعيد للإنسان إنسانيته التي افتقدها. هذه ليست قراءة نقدية لكل منجز هند أبو الشعر القصصي، إنما هي ملامح عامة أو مرايا متجاورة لتجربة إبداعية في قصصها القصيرة.

أقف على كلّ قصة حملت عنوان مجموعاتها، ولعلّ اختيار الكاتب أو الكاتبة عنوانًا لمجموعته، من بين قصص المجموعة، له دلالة أو مرتكز أقرب إليه من القصص الأخرى، مثلما يصطفي الأب أحد أبنائه ليكون سندًا له في الحياة، أو حبيبًا خالصًا تنطوي عليه النفس في كتمانها، ففي المجموعة الأولى «شقوق في كف خضرة» يبدأ الراوي الضمني في سرد الأحداث، فخضرة ابنة الأرض التي تعمل فيها مع أبيها الفقير، تلك الطفلة التي يتشقق كفّها، وهي تغادر البيت في الغور إلى عمان لتعمل خادمة في أحد البيوت، كي تعيل أسرتها، فتصحبها (صبحية) كي تستحمّ بالماء والصابون، فتذكّرت قناة الغور التي كانت تستحم بها وهي ترتدي الثياب، وسائق الشاحنة التي أقلّها وهو لا يخفي نظراته إليها، في ذكورية أفزعتها وملأت قلبها المرتجف بالخوف، وتستعيد خضرة من خلال المونولوج النساء البيضاوات بسياراتهن الكبيرة، وثيابهن الرائعة، كي «تبيعهن الخضار التي تقطفها عند الفجر والندى يغسلها»، على الرغم من أن الفكرة مطروقة في القصّ والرواية العربية، إلا أن الكاتبة قدمت نموذجًا إنسانيًّا يرتقي إلى مفهوم الدفاع عن المرأة في استلاب أنوثتها، والافتراس الذكوري في المجتمع، كما صورت طبقية المجتمع الريفي والمدني، بأسلوب قصصي رشيق، استخدمت فيه تقنيات السرد الحديثة، ويستعيد القارئ في ذهنيته رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي، وتمسّك الفلاح بأرضه، ومقاومة الإقطاع، كما يستعيد رواية «دعاء الكروان» لطه حسين، وعمل البنات في خدمة البيوت، وسقوط ذكورية الرجل الشرقي.

قد يكون عمل هند أبو الشعر معلمة في وزارة التربية والتعليم، قبل انتقالها للعمل الأكاديمي الجامعي، مبعثًا لكتابة قصة «المجابهة»، وهي عنوان مجموعتها القصصية الثانية، وتدور أحداثها حول الصراع الداخلي في المدرسة، بين معلمة تتمرد على بيروقراطية المديرة، التي تستفرد بالقرار، وسلطتها في الإدارة، فالكاتبة قدمت صورة حيّة عن الإدارة الفاشلة،

بأسلوب سردي مباشر، وهذا الأسلوب النمطي لا يقلل من أهمية القصة على مستوى المضمون.

وفي المجموعة الثالثة قصة «الحصان»، لما تحمله من رمز في انزياح دلالي يكشف عن الماضي العربي المسكون بالموت، والكل يحاول استنهاضه من جديد، لينطلق نحو أفق المستقبل، فالبكاء على الماضي لا ينفع، فعلى الجميع أن يحرك الساكن، ويبعث فيه الحياة.

يحمل عنوان القصة (الحصان) دلالة لا تخفى على قارئ التراث العربي، وترد في القصة إشارة إلى «غرناطة» بما تحمله أيضًا من دلالة على السقوط العربي في الأندلس، فالقصة بمكوناتها السردية قصة تتقدم على قصص مجموعتيها الأولى والثانية.

تبقى القدس ذاكرة تستوقد نارها على كل الاحتمالات، فالشخصية الرئيسة في قصة «عندما تصبح الذاكرة وطنًا»، في مجموعتها الخامسة، تتمسك بالمكان، وتحمل هويتها العربية في الدفاع عنها أمام الآخر الغربي، الذي يحاول أن يمحو من ذاكرتها كل تفاصيل الماضي، وتتحوّل إلى صورة أو رسمة باهتة من كل المعاني، ففي القصة صراع نفسي في تقبل الآخر وعدم تقبله، وفي نهاية الأمر تتخذ الشخصية قرار المواجهة في تثبيت الحقّ العربي في القدس، عندما يستفزها سؤاله (أنتِ من إسرائيل؟). تحمل القصة رموزًا متعددة، ويغلب الحوار على السرد، وتستخدم القاصة تقنية الاسترجاع والاستباق لتوازن بين السرد والحوار، ويتداخل المونولوج ليعمّق الإحساس بالفقد والحزن والضياع.

تبقى الذاكرة محطة للوقوف على الماضي في تجلياته، فتلك الجدة في قصة «الوشم»، في المجموعة الخامسة، هي الماضي الجميل الذي لم يبقَ منه إلا ذكريات تحاصر راوية القصة من بدايتها إلى نهايتها، وتحمل رموزًا تنفلت من المكان والزمان، لتستعيد طقوس الزيارة التي علقت بذاكرتها، وصورة الوشم الأخضر على يد الجدة بعروقها النافرة والجلد اليابس.

وفي قصة «مارشات عسكرية»، في مجموعتها السادسة، قصة تبعث في النفس ذكريات الماضي، ذاك الجد الذي يستمع للأخبار من راديو فيليبس، وما يمثله من رمز للماضي الذي لا يلتقي مع حاضر الأحفاد الذين تشغلهم التكنولوجيا الحديثة، فلم يعد للراديو مكان يتسع في زمن ليس هو بزمانه. تقوم القصة على عدد من الرموز، متمثلة بتغيّر الأجيال، وبتغير الخطاب السياسي لقادة الأمة، وبانهيار كل القيم والمثل الحاضرة في المجتمع. تُعد هذه المجموعة نقلة نوعية في كتابة القصة عند هند أبو الشعر، وإتقان لعبة القص الحديث بكل ما يحمله من تقنيات سردية.

إذا حَمَلنا الكلام على الإبداع في المنجز الأدبي، نجد هند أبو الشعر قد بدأت مسيرتها الأدبية شاعرة في نصوص نثرية أو ما يسمّى بـ«قصيدة النثر»، بدءًا من نصها «عندما تركض طيور النورس في دمي»، إلى نصها «كلمة أخيرة لرجل تموت حبيبته»، وأيضًا «قصائد مبكّرة»، حيث يغلب عليها الطابع الرومانسي الحالم، وهي أقرب للخاطرة من الشعر، أو أقرب لشعرنة السرد، والبعض أطلق عليه سردنة الذات، حيث يتقاطع السرد مع الشعر، فتعتمد الفكرة في بناء النص الشعري، في حين نجد أن «نصوص أخيرة» في أناشيدها الثلاثة أكثر انفتاحًا على الشعر، وخروجًا إلى حدّ كبير من شعرنة السرد إلى لغة القصيدة.

كتبت هند أبو الشعر ـ أيضًا ـ «مشاهد مسرحية»، وهي عبارة عن نصوص تمزج ما بين القصّ والشعر المنثور، تعالج قضايا إنسانية، أقرب ما تكون إلى الفلسفة الوجودية، بل أقرب ما تكون إلى فلسفة غابريل مارسيل، الكاتب المسرحي والناقد والفيلسوف الفرنسي، الذي قال: «الوجود يعني أكثر من مجرد الوجود، حيث قد يكون هناك شيء في وجود شيء آخر». وكانت الكاتبة أكثر عمقًا في التصور الوجودي في نص «مرثية إنسان طيب».

يبقى القول، إنّ المتتبع لتجربة هند أبو الشعر في الكتابة الإبداعية، من قصة وشعر ومسرحية

ومقالة ونصوص وغيرها، يجدها كاتبة مثقفة بامتياز، ومبدعة في مسار كتابتها الأدبية، كما أنها مبدعة في فنها التشكيلي، ولم تنشغل في بحوثها التاريخية، ونبشها في الوثائق القديمة، عن الكتابة الإبداعية، ولم يثنها عملها الأكاديمي ونشاطاتها المتفرعة في شؤون الثقافة واللجان وغيرها، فقد أخلصت للفن القصصي فأبدعت، وفي البحث العلمي فأجادت.

الجلسة الثانية

منهجية أبو الشعر: في كتابة التاريخ

منهجية أبو الشعر في كتابة التاريخ

د . عليان الجالودي *

يلحظ المتتبع لإنتاج الدكتورة هند أبو الشعر البحثي ما بين كتب وبحوث ودراسات متخصصة، زخمًا كبيرًا في البحث والتأليف، ما يذكرنا بالرعيل الأول من علماء الأمة الأفذاذ، الذين قضوا سني عمرهم في البحث والتأليف، كما نلمس تعدد جوانب اهتماماتها ما بين الأدب والفن والتاريخ، إلا أن اشتغالها بالتاريخ، درسًا وتدريسًا وبحثًا، أعطاها هويتها المميزة كمؤرخة. ويتسم إنتاجها في حقل التاريخ بسمة التنوع، بين بحوث في التاريخ الإسلامي، وفي التاريخ الحديث والمعاصر، وهذا يعود إلى تنوع مشارب تكوينها؛ إذ تتلمذت أستاذتنا على يد هرمين من أهرام الكتابة التاريخية، المرحوم الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري الذي أشرف على

* أستاذ التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت.

أطروحتها في الماجستير، وعلى يديه تشربت منهجية البحث في التاريخ الإسلامي، وتحولت في الدكتوراه إلى حقل التاريخ الحديث والمعاصر، وتتلمذت على يد الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، شيخ المؤرخين الأردنيين، ورائد المدرسة الأردنية في البحث في التاريخ العثماني عمومًا، وتاريخ العرب وتاريخ الأردن الحديث خصوصًا.

وحددت أطروحة الدكتوراه التي أعدتها في الجامعة الأردنية، تحت إشراف الأستاذ البخيت والموسومة بـ «إربد وجوارها: ناحية بني عبيد»، هويتها البحثية، وكانت اللبنة الأولى من لبنات تكوينها في التاريخ الحديث والمعاصر؛ إذ يلاحظ أن معظم إنتاجها، ما بعد الدكتوراه، انصب حول تاريخ الأردن الحديث والمعاصر، إذ تعد بحق من بين أكثر المؤرخين الأردنيين المعاصرين إنتاجًا، سواء كان ذلك في حقل الكتب أو البحوث وأعمال التحرير، ناهيك بريادتها في ما أنجزته من دراسات حول البلدانيات الأردنية، وتوظيف محتوى السجلات، والصحافة الذي أتقنته، وتميزت فيه بين أقرانها من المؤرخين.

وما يميز أعمال المؤرخة هند أبو الشعر ليس الكم بمقدار الكيف، فهي تعد، في بحوثها ومؤلفاتها، رائدة في توظيف محتوى المادة الوثائقية، سواء كانت سجلات محاكم شرعية أو سجلات طابو أو سجلات تسوية، وسجلات نفوس وأوراق ومذكرات شخصية، ووثائق الشركات، ووثائق وأوراق البلديات، ناهيك عن توظيف الصحافة المعاصرة وتحليل محتواها وتوظيفها في بحوثها ودراساتها عن البلدانيات الأردنية التي تصدت لدراستها (الصريح، حواره، الحصن، مادبا، السلط، الزرقاء، الشوبك، معان)، ودراسات حول تاريخ الأردن عمومًا، ودراساتها حول الصحافة والإعلام والشخصيات الأردنية من الرعيل الأول، وقدمت دراسات تتسم بعمق المنهجية، والقدرة الفذة على التحليل بامتلاكها ناصية المنهج العلمي، والقدرة في تحليل محتوى المادة الوثائقية، ناهيك عن أسلوبها ولغتها الأدبية التي

أضفت على بحوثها سلاسة وجمالية في اللغة والأسلوب، إذ يشعر القارئ، عندما يقرأ في مؤلفاتها وبحوثها، أنه أمام نص أدبي، يشد إليه القارئ، ويبعد به عن السأم الذي ينتاب القارئ عادة في تعامله مع المؤلفات والبحوث الأكاديمية.

لقد زاملت الدكتورة سنوات طويلة خلال عملنا سوية في قسم التاريخ في جامعة آل البيت منذ مرحلة التأسيس، وأدرك عظم المنجز الذي تحقق على يديها، وما قدمته للجامعة، ودورها في تنظيم الندوات والمؤتمرات، وفي النهوض بصحيفة الشورى الطلابية، وبمجلة البيان الثقافية التي اقترنت بها وتوقفت، للأسف، بعد مغادرتها الجامعة.

وأعي تمامًا ما نهضت به من جهود خلال إدارتها قسم التاريخ، وعمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وما تحلت به من قدرات فذة في الإدارة، وهو منجز آخر ينضاف إلى مجمل جوانب شخصيتها، ولا يمكن إغفال هند الأكاديمية المبدعة، وتجربتها الثرة في التدريس، سواء لطلبة البكالوريوس أو الماجستير، وحدبها على طلبتها، وصرامة المنهج الذي غرسته فيهم، وبصماتها العلمية والمنهجية على رسائل الماجستير التي أشرفت عليها أو ناقشتها.

ويصعب في الحقيقة، في هذه العجالة، أن يحيط المرء بمجمل إنتاج أستاذتنا وزميلتنا العزيزة وبجوانب شخصيها، لكنها مجرد إضاءات أحببت أن أشير إليها ولو إشارات عابرة، وأعتقد أن الزملاء سيغنون كثيرًا جوانب من شخصية هند الأديبة والقاصة والرسامة التشكيلية والمؤرخة، وجوانب إنتاجها الثرّ.

سأنتقل إلى الموضوع الرئيس لهذه الورقة، وهو تسليط الضوء على منجز مهم تصدت له هند أبو الشعر، الذي يمثل نضج تجربتها البحثية، كما يترجم حصيلة ما أنتجته من دراسات وأبحاث، كما وضعت فيه خلاصة اشتغالها مع المصادر الوثائقية وأعمال التحرير لما يربو على عشرين مجلدًا من الوثائق الهاشمية التي نهضت بتحريرها وإعدادها للنشر، إلى جانب الأستاذ

الدكتور محمد عدنان البخيت، وتنوع موضوعات هذه المجلدات الوثائقية، وما حوته من وثائق رسمية تناولت جوانب متعددة من تاريخ إمارة شرق الأردن، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلاقتها مع محيطها العربي، ومع دول العالم، التي أتاحت آفاقًا واسعة أمام الباحثين والمهتمين، وطلبة الدراسات العليا؛ لتوظيفها في أبحاثهم ودراساتهم الحالية والمستقبلية.

ومهمة الدكتورة في هذا المجال لا تنحصر بنشر هذه المادة الوثائقية الثرة وحسب، بل في ما قدمته من دراسات في بحوثها ومؤلفاتها المنصبة على هذه الوثائق، أيضًا، إذ تعد تلك الدراسات نبراسًا يضيء الطريق أمام الباحثين عن كيفية التعامل مع هذا المصدر الوثائقي، وكيفية توظيفه في دراساتهم.

موسوعة تاريخ الأردن في عصر الإمارة (١٩٢١-١٩٤٦م)

عكفت الدكتورة هند أبو الشعر، في الأعوام الأخيرة، على التصدي لعمل علمي يتمثل بإعداد عمل موسوعي عن تاريخ الأردن مؤلفًا من مجلدات عدة، منها ما صدر، ومنها ما هو قيد الطبع، ومنها ما هو قيد الإعداد.

* **المجلد الأول**: يتناول الإدارة والتأسيس (١٩٢١-١٩٤٦م).
* **المجلد الثاني**: القناصل والحياة الدبلوماسية في عهد الإمارة.
* **المجلد الثالث**: الحياة الاجتماعية، وهو مؤلف من قسمين:
  - **القسم الأول**: السكان والتعليم.
  - **القسم الثاني**: الطب والأطباء والأحوال الصحية والبلديات والعمران.
* **المجلد الرابع**: الصحافة والثقافة والمرأة.

* **المجلد الخامس**: الحياة الاقتصادية.

وصدر المجلد الأول من هذا العمل الموسوعي في هذا العام (٢٠٢١)، وتصدت لنشره، مشكورة، جامعة فيلادلفيا، وعلمت من الدكتورة هند أن المجلدات؛ الثاني والثالث والرابع؛ قيد النشر، في حين أن المجلد المتعلق بالحياة الاقتصادية يحتاج سنتين ليرى النور، متعها المولى بموفور الصحة والعافية والعمر المديد؛ لإنجاز ما تصبو وما نصبو إليه جميعًا، خدمة للأردن العزيز وتاريخه وتراثه.

ملاحظاتي الأولية على المجلد الأول الذي حمل عنوان: «الإدارة والتأسيس»؛ أي تاريخ الإمارة منذ التأسيس العام ١٩٢١م، وتتبع جوانب تطور الحياة الإدارية، والتشريعية، وتطور المؤسسات الإدارية.

- إن الباحثة، بهذا العمل الموسوعي الأول من نوعه في المكتبة التاريخية الأردنية، سجلت اسمها في سجل الريادة في المدرسة التاريخية الأردنية بأحرف من نور.
- وفي إضاءتها في تقديمها للكتاب، استدركت بأن هذا العمل لا ينطبق عليه مفهوم الموسوعات الذي نألفه، وإنما قصدت بذلك أن يكون موسوعة متكاملة للتأريخ لهذه المرحلة من تاريخنا الحديث.

- اشتمل المجلد الأول على محاور رئيسة على شكل أبواب:

* **الباب الأول**: مرحلة التأسيس ١٩٢١-١٩٢٣م، تناولت تحليل مكونات الإدارة والقيادات السياسية والإدارية، كما تطرقت للمصادر التي يمكن من خلالها للدارس تكوين صورة شاملة عن هذه المرحلة، واستقت مادتها في هذا الباب، معتمدة على تلك المصادر الوثائقية، من سجلات محاكم شرعية، ووثائق المكتبة الوطنية، ومجموعة الوثائق الهاشمية، وأوراق وسجلات البلديات، وأحاطت في هذا الباب بتعامل الإدارة والحكومات والموازنات والجوانب القضائية.

* **الباب الثاني**: وخصصته للحديث عن الإدارة بين العامين ١٩٢٣-١٩٤٦م، وتناولت كثيرًا من التفصيلات حول تطور المؤسسات الإدارية والتنظيمات الإدارية والعمرانية... إلخ.
* **الباب الثالث**: خصص لجوانب التشريع والقانون الأساسي والمجالس التشريعية، وقانون الانتخاب للمجلس التشريعي الصادر العام ١٩٢٨م.
* **الباب الرابع**: الإدارة ما بين العامين ١٩٣٠-١٩٥١م، واستكملت فيه حديثها عن الإدارة، والتركيز بشكل خاص على السلطة التنفيذية، والإدارة الأردنية في فلسطين بين العامين ١٩٤٨-١٩٥١م، وغيرها من الجوانب التفصيلية.

وسأتناول بعجالة بعض الملاحظات العامة:

١. هذا العمل الموسوعي يعكس نضج تجربة الباحثة، وقد وظفت فيه نتائج دراساتها السابقة، ناهيك بالمصادر التي أسهمت في الكشف عنها، ودراستها عبر مسيرتها البحثية من سجلات طابو ومالية، ونفوس، والصحافة المعاصرة، وسجلات المحاكم الشرعية، وسجلات المدارس والشركات، والمذكرات، وكان اعتمادها بشكل رئيس، في معظم صفحات هذا المجلد، على الجريدة الرسمية، ووثائق الديوان الملكي التي ساهمت بإعدادها وتحريرها تحت مسمى الوثائق الهاشمية، كما أفادت من الوثائق الحكومية المحفوظة في المكتبة الوطنية، وما أضافته من دراسات غير مسبوقة عن صحف (القبلة)، و(العاصمة)، و(مجلة الرائد).

٢. حوى هذا المجلد على مادة ثرة قل أن نجدها في أي عمل أكاديمي أو غير أكاديمي عن عصر الإمارة، وهي لم تكتف بإيراد تلك المواد، بل أغنتها بالدراسة والتحليل المنهجي المعمق، وقدمتها على طبق من فضة للقارئ والباحث.

٣. من حيث المحتوى المنهجي، سلطت الدكتورة هند الضوء على جوانب لم يلتفت إليها الباحثون والدارسون من قبل، منها: تحليل مكونات شخصية المغفور له- بإذن الله- الملك (الأمير) المؤسس عبدالله بن الحسين، وحللت بعمق المرتكزات التي استندت إليها شرعيته، وناقشت بعمق الخلفيات الفكرية لنجاح تجربته، من بينها نسبه الشريف، وفكر النهضة (الثورة) العربية، ومشاركته الفعالة في أحداث النهضة، سواء كانت مشاركة سياسية أو عسكرية، وسعة اطلاعه على العلاقات الدولية، ومصالح الدول العظمى آنذاك وأطماعها في البلاد العربية، ناهيك بثقافته القانونية التي تستند إلى مشاركته في مجلس المبعوثان العثماني، وثقافته اللغوية والأدبية والتاريخية، وملكته الشعرية، فضلًا عن ثقافته البدوية التي سهلت عليه إقامة دولة في محيط متلاطم، ودمج مكونات المجتمع الأردني آنذاك من فلاحين وبدو وجماعات مدنية، وصهرهم في دولة واحدة.

٤. كما ناقشت حسن اختيار الأمير عبدالله، خلال مرحلة التأسيس، للكفاءات الإدارية التي تحملت مسؤولية الإدارة؛ إذ ترجمت مؤسسات الإمارة الناشئة آنذاك فلسفة الثورة العربية الكبرى في الإدارة والجيش، وما يتميز به المغفور له الملك عبدالله من حنكة وسعة حلم ودهاء سياسي، حيث نجح في إدارة دفة السفينة في بحر متلاطم، وكيف استطاع أن يكسب ود الدولة المنتدبة بريطانيا، وكانت ذروة سياسته الحكيمة ودبلوماسيته في أن تتوج جهوده في حصول الأردن على استقلاله العام ١٩٤٦م.

٥. ويعكس هذا المؤلف، وبشكل جلي، الجهود المضنية التي بذلت في بناء المؤسسات السياسية والتشريعية والاقتصادية والاجتماعية، والانتقال السلس من المؤسسات الإدارية الموروثة في أخريات العهد العثماني، إضافة إلى تأسيس للبنات الأولى

للمؤسسات الحديثة للدولة الأردنية، وإرساء قواعدها، على الرغم من محدودية الموارد المالية، وضآلة المنحة التي تقدمها الحكومة المنتدبة لدعم مالية الإمارة، وتوجيه معظمها خدمة لسياستها الاستعمارية، وضعف مساهمة القطاعات الإنتاجية الرئيسية، وما تعرضت له الإمارة من كوارث طبيعية متمثلة بالزلازل، وموجات الجفاف والقحط، والجراد، التي تناوبت على الإمارة خلال مرحلة التأسيس.

وفي الختام، إن هذه المحاولة الجريئة وغير المسبوقة، التي تصدت لها المؤرخة هند أبو الشعر، تطرح تساؤلات مهمة حول كتابة تاريخ الأردن، ونحن نحتفي هذا العام بمناسبة عزيزة، وهي المئوية الأولى للدولة الأردنية، فهل أفلحنا في كتابة تاريخ الأردن؟ وهل بذلت جهود كافية لتغطية جوانب هذا التاريخ؟ وهل أرخنا بشكل علمي وموضوعي لتطور النظم والمؤسسات؟ وهل أحسنا توظيف المادة الوثائقية؟ وهل قدمت مؤسسات الدولة ما هو منتظر منها لدعم الجهود العلمية الرصينة في التوثيق لتاريخ الأردن؟

إنني أتفق مع الدكتورة أبو الشعر بما خلصت إليه في إضاءتها إلى نتيجة مؤداها أننا بحاجة لإعادة كتابة تاريخ هذه المرحلة من تاريخنا الحديث، استنادًا إلى المصادر الجديدة التي تم الكشف عنها، وهو ما اجتهدت مشكورة للنهوض به، جزاها الله عن الأردن وقيادته وعن تاريخنا خير الجزاء.

هند أبـــو الشعـــــــر ودورهـا فـــي التوثيق التاريخي للمدن الأردنية كتاب إربد وجوارها أنموذجاً

د . علاء كامل سعادة *

أحسنت مؤسسة عبدالحميد شومان في اختيارها الأستاذة الدكتورة هند غسان أبو الشعر ضيف العام لمنتداها الثقافي، بوصفها أديبة ومؤرخة ومؤلفة، كيف لا، وهي أحد أبرز علماء التاريخ والأدب في بلدنا الأردن، وأحد أعمدة بيت الشَّعر الأصيل، وأحد كراسي البحث الأكاديمي العلمي في الجامعات الأردنية، وتحديدًا في جامعتنا الحبيبة؛ جامعة آل البيت.

أولاً: الأستاذة الدكتورة هند غسان أبو الشعر النمري الحصنية (نسبة لبلدة الحصن)

عندما تمطر السماء على ربوع إربد والحصن، فإن التراب المتعطش لهبة السماء ينتظر البرق والرعد بلهفة ودفء؛ ليـــورق الزهر وروده

* رئيس قسم التاريخ والجغرافية التطبيقية – جامعة آل البيت.

ربيعًا يانعًا متألقًا، مثل قطاف الزيتون الذي لا يخرج زيته إلا بعد ضغوط الحياة، ومكابدة حلوها ومرها؛ فترتفع درجة الحرارة شيئًا فشيئًا، كشمس نيسان وحزيران، فيخرج زيتًا ذهبًا أصفر مخضرًّا حلو المذاق، تطيب به النفس، كرائحة ورد الصحراء في الفدين(المفرق).

ثانيًا: الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر ومنهج البحث التاريخي:

يلمس المتبصر في اهتمامات هند أبو الشعر البحثية، مدى عمق مفهوم البحث العلمي التاريخي، وجدية وأصالة التطبيق، سواء في أعمالها أو في ما تمليه على طلبتها في مرحلة البكالوريوس عامة، وطلبة الماجستير الذين تشرف على رسائلهم بشكل خاص، فقد ناقشت بمعيتها العديد من رسائل الماجستير لطلبتها، كما ناقشت هي العديد من طلبتي، وكنت ألمس، في أثناء مناقشتها، دقة وموضوعية علمية يكمن بين ثناياها حرص وأمانة على منهج البحث العلمي التاريخي، بالإضافة إلى إثراء المعرفة البحثية الخاصة بموضوع الرسالة، فهي تبحث، دومًا، عن كل جديد في أمهات الكتب والمخطوطات والسجلات والوثائق المتعلقة بتخصصها ومجالها التاريخي والأدبي.

فمن حسن الطالع أننا نجتمع معًا في التخصص الدقيق نفسه في التاريخ، وهو التاريخ الحديث العثماني والمعاصر.

تمتلك هند قدرة عميقة ومتخصصة في توظيف المصادر والمراجع العلمية التاريخية لحبك وصياغة الحدث التاريخي. فهي تقوم بتفتيق الروايات التاريخية، والبحث المتعمق في مدلولات الرواية، وفي المخطوط التاريخي؛ لاستخراج البنية التاريخية، لإظهار الدلائل والبراهين والحجج التي تعلل وقوع الحدث.

بمعنى آخر، فإن الدكتورة هند ليست نمطية كغيرها في سرد الرواية والحدث التاريخي،

بل إنها تقف على محطات هامة ومفصلية في مؤلفاتها، كل ذلك من شأنه تحسين ورفع مستوى المعرفة عند القارئ، سواء المختص أو قارئ التاريخ.

وإن القارئ لأبحاثها ومؤلفاتها يلمس، وبلا شك، الأمانة العلمية التاريخية في التوثيق الدقيق؛ لا بل يرى بعدًا آخر يمكن أن أصفه بالبعد الوجداني؛ أي إن هند تمتلك محاكاة النص وإعادة إخراجه ليكون خادمًا للتاريخ، فمثلًا سجلات المحاكم الشرعية ودفاتر الطابو ودفاتر الإحصاءات العامة لم تعد بشكل رواية وحدث تاريخي، لكن قدرة الباحث المختص، من خلال الاطلاع الواسع والخبرات العملية، تمكنه من تطويع النص، أيًّا كان، وجعله مادة تاريخية تعتمد على مصدر تاريخي أصيل.

وكانت، ولا تزال، الصحافة الشغل الشاغل في دراساتها البحثية؛ لأن الصحافة مصدر أصيل مهم من مصادر التاريخ الحديث والمعاصر، يحاكي الواقع المعاصر لصدور الصحيفة؛ فهي نبض الأحداث اليومية ومجمع لتعدد التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية. وقد وضعت هند العديد من المؤلفات التاريخية المتعلقة بالصحافة، وعملت عضوًا في لجنة إصدار سلسلة الوثائق الهاشمية ١٩٩٤-٢٠٠١م بمعية فريق بحثي برئاسة الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت.

أما اهتمامات الدكتورة هند في المصادر والمراجع العلمية التاريخية فهي:

- سجلات المحاكم الشرعية العثمانية.
- السالنامات العثمانية.
- سجلات البلديات العربية في التاريخ العثماني الحديث.
- دفاتر الطابو.
- الصحافة العربية في فترات التاريخ الحديث والمعاصر.

ـ كتب المذكرات الشخصية.

ـ كتب الرحالة الجغرافيين العرب والأجانب.

ثالثاً: شخصية الدكتور هند أبو الشعر ومزاملتي لها:

إن شخصية هند أبو الشعر متزنة، وأسلوبها شيق في الحوار، كما تطرح رأيها ووجهة نظرها بكل احترافية وخبرة تنم على معرفة وخبرة، ويلمس المتتبع لحديثها جدية ورصانة، ورأيًا فيه معرفة وخبرة في كيفية معالجة الأمور. ولحديثها يشتاق الزميل المختص والتلميذ الدارس.

أما بالنسبة لهيئتها وصفاتها، فهي دومًا أنيقة في مظهرها كما في حوارها، وتهتم دومًا بالورد والزرع الأخضر اليانع الذي يلفت نظر كل من يدخل إلى مكتبها الجميل الراقي.

لقد زاملت الأستاذة الدكتورة هند منذ أن تم تعييني في جامعة آل البيت العام ٢٠١٣م، علمًا أن الدكتورة هند تعد من مؤسسي قسم التاريخ في جامعة آل البيت العام ١٩٩٣/ ١٩٩٤م، والحقيقة أن أول معرفتي بها كان عندما زرتها في الجامعة الأردنية، حين كانت تشغل منصب مديرة مكتبة الجامعة الأردنية، إذ كانت تقضي إجازة التفرغ العلمي.

وتعد الدكتورة هند وفية لوطنها وقضاياه، وحجم وفائها يزداد رتمه كلما اتجهنا نحو الشمال، حيث إربد والحصن، تحديدًا، فقد كتبت وألفت وأنجزت العديد من الكتب والأبحاث العلمية عن وطنها الأردن.

رابعًا: هند أبو الشعر ودورها في التوثيق التاريخي للمدن الأردنية- كتاب إربد وجوارها أنموذجًا

جعلت الباحثة هند أبو الشعر من نفسها مختصة، إن جاز التعبير، في (ذاكرة المكان) داخل

مدن وقرى ونواحي الأردن؛ إذ اهتمت بتوثيق تاريخ المدن والقرى، واعتمدت في ذلك على المصادر التاريخية الأصيلة من سجلات ووثائق وصحافة معاصرة لهذا الحدث أو ذاك.

أما بالنسبة لكتابها (إربد وجوارها، ناحية بني عبيد ١٨٥٠ – ١٩٢٨م)، فإن الكتاب يبدأ في التاريخ الحديث(١٨٥٠م)، ويستمر حتى التاريخ المعاصر(١٩٢٨م)، فقد أشارت هند في مقدمة كتابها هذا إلى أن سبب اختيار العام ١٨٥٠م في منتصف القرن ١٩ الميلادي بداية لبحثها، هو اتخاذ إربد رسميًّا قصبة ومركزًا لقضاء عجلون؛ لذا فقد أصبحت إربد مقرًّا للحياة الإدارية.

ثم استمرت الباحثة في تتبع تاريخ إربد وجوارها، ليس مع نهاية العهد العثماني العام ١٩١٨م وحسب، بل استمرت في تتبع الأحداث التاريخية، ولوجًا في بدايات الثلث الأول للتاريخ المعاصر حتى العام ١٩٢٨م، وقد عللت الباحثة ذلك بأنه، وخلال العقد الأول بعد زوال الحكم العثماني؛ أي (١٩١٨ – ١٩٢٨م)، استمر العمل بالأنظمة الاقتصادية والإدارية ذاتها التي كان معمولًا بها في العهد العثماني، مثل استمرار التعامل بالنقد، والطوابع، والأنظمة والتعليمات والقوانين السابقة، ثم بدأ التغيير والتبديل بشكل تدريجي؛ فأصبحت السنوات العشر اللاحقة لانتهاء العهد العثماني أو ما تسمى (الفترة الانتقالية)، ذات تغييرات تدريجية، ثم بدأت تظهر، بشكل واضح، الهوية المحلية للدولة الأردنية مع تأسيس المجلس التشريعي الأردني الأول العام ١٩٢٨م، الذي وثقت ونشرت جلساته في الجريدة الرسمية.

وإربد، شأنها شأن بقية المدن والقرى الشامية، لها ارتباط مع من حولها من المدن السورية والفلسطينية القريبة منها، مثل دمشق التي تشكل بعدًا تجاريًّا، وبخاصة (أهالي الميدان) في ثمانينيات القرن ١٩م، فأصبحت قصبة إربد مركزًا لتسوق السلع الدمشقية وباقي المدن الأخرى كحلب وحمص وحماه، فقد سكن قسم لا بأس به من التجار السوريين في إربد،

ومارسوا العمل التجاري، وتملكوا في قصبة إربد، وكذلك فعل قسم من أهالي قرى فلسطين ولبنان.

وهنا لا بد من الإشارة الى أن وحدة الجغرافية السياسية للمنطقة كانت عاملًا مهمًّا في تشجيع سائر العناصر الشامية واستقطابها؛ لأن حركة الأهالي والتجار كانت ميسرة للغاية، فلا توجد حدود تمنع، ولا قوانين تقف حائلًا بين التجار في أن يجوبوا المناطق شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا؛ فبلاد الشام كانت، لرواجها الاقتصادي، تشمل ولايات عدة تابعة للدولة العثمانية هي: ولاية سوريا(دمشق) وهي الأوسع انتشارًا والأشمل، وولاية حلب، وولاية صيدا/ بيروت، وولاية طرابلس.

أما كتاب إربد وجوارها؛ فيقع في ٧٠٦ صفحات، نصيب المادة العلمية منها ٥٦٣ صفحة، أما بقية الصفحات فهي عرض للمصادر والمراجع، وقائمة للملاحق، وقوائم عديدة للفهارس. أما محتويات الكتاب فهي على النحو التالي:

١. **الغلاف**: وهو مثبت فيه عنوان الكتاب واسم المؤلفة، وتاريخ إصداره وطباعته العام ١٩٩٥م.

٢. **الإهداء**: وفيه تذكر الباحثة والدها الذي تستحضر وجوده، إذ تقول: (حضورك في ذاكرتي وسلوكي دائم، إليك أهدي هذا الجهد الأكاديمي، وهو حلم من أحلامك، وقد كنت دائمًا تتمنى أن ترى دراسة لهذه المنطقة التي انتميت إليها وأحببتها بصدق، وها هي، هديتي إليك).

٣. **كلمة شكر وتقدير**: وتقدم الباحثة في كتابها كلمة شكر وتقدير للأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت؛ لتمكينها وتعليمها استخدام سجلات المحاكم الشرعية في العهد العثماني وتوظيفها باعتبارها مصدرًا أصيلًا مهمًا من مصادر التاريخ العثماني الحديث،

إذ قالت: (وللأستاذ البخيت الفضل في إدخال هذا التوجه بين مجموعة من طلبته، ندين له بالتقدير ونحفظ له هذه الريادة المتميزة)، وكذلك تقدم المؤلفة الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، صاحب الفضل في إيصال وتعلم، والتدريب على فن منهج البحث العلمي التاريخي، إذ قالت: (أعترف له بحضوره الدائم وتأثيره على منهجي وتفكيري)، وأيضًا تقدم الباحثة هند الشكر الموصول الى مكتبة الجامعة الأردنية والقائمين على مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة، وكذلك مكتبة جامعة اليرموك، ودائرة الأراضي في محافظة إربد، كما تقدم الشكر لجامعة آل البيت ممثلة برئيسها آنذاك الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيث، وإلى معالي الدكتور رجائي المعشر رئيس مجلس إدارة بنك الأعمال، وكذلك لسائر الداعمين لإنجاز هذا العمل الأكاديمي البحثي التاريخي المهم؛ أعني كتاب إربد وجوارها.

٤. **المحتويات**: وتناولت فيها جميع ما احتوى عليه الكتاب من المقدمة، مرورًا بدراسة علمية للمصادر التي اعتمدت عليها الباحثة في إنجاز كتابها وإعداده، ثم عرجت على الفصول التي اشتمل عليها الكتاب وهي خمسة فصول: جغرافية المنطقة، والسكان، والإدارة، والحياة الاقتصادية، والحياة الاجتماعية، ثم وضعت مجموعة للفهارس في نهاية الكتاب شملت أسماء الجماعات والعشائر والقبائل، وأسماء الأماكن والآبار والعيون والأودية والأراضي والأحواض، وفهرس المصطلحات والميادين والمحلات في دمشق، وفهرس النواحي والأقضية والألوية، وفهرس الأعلام. واختتمت الباحثة الكتاب بملخص باللغة الإنجليزية يضم الجداول، والخرائط، والمصادر والمراجع.

٥. التقديم: كتبه الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، رئيس جامعة آل البيت آنذاك، وبيّن فيه أن حركة الإصلاح والتنظيمات المفروضة على الدولة العثمانية، منذ مطلع

القرن ١٩م، حظيت بعناية المؤرخين والباحثين من سائر الجامعات والمراكز البحثية، وأشاد بعمل الباحثة في إنجاز الكتاب المعتمد على مصادر أصيلة، حيث قال: (استطاعت الباحثة، عن طريق ملاحظاتها الذكية ومقدرتها الممتازة على التخيل، أن تستشعر روح التاريخ في هذه المنطقة المحلية، فتنبهت للجوانب الاجتماعية وتنوع النسيج الاجتماعي في منطقة الدراسة، واستوعبته تحليلًا، وأجادت التعبير عنه).

٦. مصادر الدراسة: اعتمدت الباحثة على جملة من المصادر الأولية الأصيلة هي: دفاتر الطابو (ملكية الأراضي)، ودفاتر المالية، وسجلات التسوية والخرائط، وسجلات المحاكم الشرعية وعقود الزواج، وسجلات الأديرة، والمذكرات غير المنشورة، ووثائق مديرية المكتبات والوثائق الوطنية، والمقابلات الشخصية، والشعر الشعبي، والسالنامات العثمانية، وكتب الرحلات.

هند أبو الشعر الإنسانة والباحثة المتميزة ـ مسيرة تجربة بحثية مشتركة

د . عبد الله مطلق العساف *

يعود عهدي ومعرفتي بالدكتورة هند إلى سنوات، كنت أحرص قبلها على متابعة أنشطتها البحثية، وإصداراتها من الدراسات المتخصصة بتاريخ الأردن من جميع مناحيه ومجالاته، كما أغبطها على هذا الجهد الدؤوب الذي يعزّ نظيره اليوم. وَخِلْتُ كما لو أنها، بحق، قد نذرت نفسها لتاريخ وطنها، إنسانًا وجغرافيا، على امتداد مساحة تواجدهما معًا، في المدن والبوادي والأرياف، وفي كل مكان سطّر فيه الأردنيون حضورهم وانتماءهم. وكان من نتائج هذا الجهد كثرة كاثرة من الدراسات والأبحاث والكتب والندوات والمؤتمرات، التي قامت بها أستاذتنا الفاضلة، وهي لا تزال في النشاط والجهد والإيمان نفسها، تتطلع إلى المزيد والمزيد، لا تَثْبُط لها همّة أو تفتـــر،

* محاضر غير متفرغ لمساق التربية الوطنية، وتاريخ القدس ـ الجامعة الأردنية.

فهي الإنسانة المؤمنة، على رسوخ من الوعي التاريخي، أن الوطن الأردني يعد كنزًا تاريخيًّا في الماضي والحاضر، وأن هذا التاريخ لا يزال بحاجة إلى أن نبحث عن مصادره ووثائقه، ونفتشّ عن رواته ورواياته، وأن نُشبعه نقدًا وتوثيقًا ونشرًا؛ لأنه يُجسِّد حضور الإنسان الأردني في الماضي والحاضر، في عيشه اليومي، ونشاطه الحضوري على هذه الأرض.

ولأن عهدي ومعرفتي بأستاذتنا الدكتورة هند لم تقتصر على اهتمامي بدراساتها، فقد حرصت، وأنا المهتم منذ حوالي العقدين من الزمن بتاريخ الأردن والدراسات التي تخصّ هذا التاريخ، لاسيما التاريخ المتعلق بالراوية الشفوية؛ أو ما يُعرف بالتاريخ الشفوي، وهو حقل ثري جداً بالمعلومات اللازمة للدراسات التاريخية..

أقول حرصت، انطلاقًا من مدى ثقتي باحترافية وأكاديمية أستاذتنا وخبرتها الطويلة، أن أتشرف بالتعاون معها، والتشارك في أعمال ودراسات تاريخية مشتركة، وقد حدث هذا بالفعل؛ إذ أثمر هذا التعاون عن عدد من الإصدارات والكتب، ولا يزال عهدنا في هذا التعاون قائمًا، ونأمل أن يثمر الكثير من الدراسات.

لقد تشرفت، فوق ما سعدت، بالعمل مع الباحثة الأكاديمية المؤرخة الجادّة، والملتزمة بحدود الصرامة المنهجية، الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر، في بعض الأعمال البحثية، التي كان لها أثر كبير على خبرتي في الكتابة التاريخية، وأشعر أنني مَدِين لها، بحق، قبل، وفي أثناء فترة عملي معها، بجُلِّ ما استفدته واكتسبته من جوانب معرفية ومنهجية أنارت أمامي الكثير من الدروب الصعبة والشائكة، في نطاق البحث التاريخي.

كان يقيني الهادي يذكرني دائمًا بنموذجها المبدع، فأستلهم مثابرتها البحثية وجهودها الأكاديمية المستمرة، إلى أن صنعت عندي دافعًا قويًّا ورغبة أكيدة لأن أحذو حذوها، وأختط طريقها وأنموذجها بخصوص دراساتي في تاريخ الأردن. ولا عجب، فإن الدكتورة هند لم

تقتصر جهودها على هذا الكم الوافر من الدراسات والكتب والأنشطة المتعددة، بل إن ما قامت به طوال مسيرتها، أجزم أنه أرسى لونًا من التقاليد البحثية التاريخية الأصيلة، قد ترقى إلى مستوى المدرسة التاريخية، لاسيما في الدراسات المتعلقة بالأردن، وهذا شيء غير منكور وغير مُستغرب، خصوصًا لشخص مثلي عرف الدكتورة هند من قرب وعن كثب، واطلع على مقدار الشغف عندها في تأصيل الدراسات التاريخية، ونقدها وتمحيصها، وتسجيلها بكل أمانة وموضوعية، وبحسٍّ تاريخي ومنهجي راكز وثابت؛ لأنها تستشعر، دائمًا، أن مسؤولية المؤرخ، مسؤولية لا تدانيها مسؤولية، فهو المؤتمن على وعي الأمة والمجتمع، وذاكرة الشعب ووجدانه، وعن حضور الأوطان في هذا التاريخ، ما يستوجب الأمانة والموضوعية، والحرص على تسجيل الحقيقة التي سوف تنتقل للأجيال القادمة.

كانت الدكتور هند، وفي أثناء عملنا المشترك، تحرص دائمًا على تشجيعي، فضلًا عن تفضلها بقراءة دراساتي البحثية، ولا أنسى فضلها وقيمة ملحوظاتها الذكية الدقيقة التي طالما أفدت منها، وجنبتني الكثير من العيوب المنهجية وغير المنهجية. ولذا فإنني إذ أسجِّل شكري للدكتورة واعتزازي بهذه التجربة البحثية معها، أعترف بأنها تجربة أكثر من غنية، وأزيد من الفائدة والخبرة اللتين حصلت عليهما، وأنا أحرص كثيراً على مواصلة التعاون معها في الأعمال البحثية التاريخية، نحو مزيد من الدراسات التي تؤرخ للأردن مكانًا وإنسانًا، وفي كل جغرافيا حضور الإنسان الأردني، ماضياً وحاضراً، على أرض هذا الوطن.

أستطيع الجزم، أن تجربتنا مع السجلات البلدية كانت أكثر من غنية وممتعة ومثمرة في الوقت ذاته، وكان حرصنا دائمًا يسعى، ونحن نؤرخ للمناطق والمدن التي درسنا وثائقها، أن نستعين بأقدم السجلات الخاصة بالمجالس البلدية، التي تحتوي على معلومات غنية ومتنوعة تفيد الدراسات التاريخية فائدة عظيمة.

فقد اشتملت هذه السجلات على تدوين وافٍ وتفصيلي لنشوء المرافق والمؤسسات، وأنشطة الخدمات المتعددة، ومعلومات تخصّ أهاليها وقاطنيها، فضلًا عن مراحل نشوء الحكم المحلّي فيها وتطوره، ولذا فقد حرصنا على تضمين الدراسات والكتب قراءة تفصيلية وافية تخص البدايات الأولى لنشأة القرى والبلديات، والمراكز الحضرية الأُخرى، كوحدات إدارية للحكم الإداري والأهلي. كما كنّا نُضمِّن هذه الدراسات كثيرًا من الصور التاريخية النادرة والجميلة التي تخص هذه المدن والقرى، وتعكس، بطبيعة الحال، مظاهر الحياة المتعددة فيها، فضلًا عن أنماط العيش والعمران.

لقد أثمرت شراكتي البحثية مع الأستاذة الدكتورة هند، عن حصادٍ جيد كان حصيلة جهود كبيرة لكلينا، وتمثّل في عدد من الإصدارات المنشورة في كتب، وكان الإصدار الأول لنا من سجلات البلديات بعنوان «مادبا: الملامح الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل ومقررات بلدية مادبا»، ويُعد السجل البلدي المعتمد للتحقيق والدراسة في هذا الكتاب أقدم سجل لمقررات بلدية مادبا، الذي يعود تاريخه إلى العام ١٩٢٣م حتى العام ١٩٢٧م، وقامت وزارة الثقافة، مشكورة، بنشره ضمن إصداراتها عن مدينة مادبا، مدينة للثقافة الأردنية للعام ٢٠١٢م. ومن خلال مقررات ومحاضر المجلس البلدي، يمكن للقارئ في هذا الكتاب أن يتعرف إلى ممارسات الحكم المحلي في بدايات عهد إمارة شرقي الأردن، والملامح الاجتماعية والاقتصادية لبلدة مادبا في تلك الفترة.

وأما الإصدار الثاني المشترك بيننا، فجاء في كتاب «الزرقاء: النشأة والتطور ١٩٠٣-١٩٣٥»، وتم رصد نشأة قرية الزرقاء وتطورها، وتحولها إلى بلدية بتأسيس أول مجلس بلدي فيها. وتناولنا فيه الملامح الاقتصادية والاجتماعية، من خلال سجلات مقرّرات أول مجلس بلدي للمدينة، وألحق بالكتاب ملف مُصور. وصدر هذا الكتاب ضمن سلسلة كتاب الشهر، التي تصدر عن وزارة الثقافة، كتاب رقم «١٧٤»، للعام ٢٠١٤.

وجاء الإصدار المشترك الثالث بيننا، بعنوان «معان: المظاهر الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل مقرّرات مجلس البلدية ١٩٢٩-١٩٣١م»، وتضمن دارسة وتحقيقًا عن أقدم سجلات بلدية معان، فضلًا عن تضمينه ملف صور لبلدة معان ورجالاتها. وتكمن أهمية هذا الكتاب، الذي صدر ضمن منشورات البنك الأهلي العام ٢٠١٦م، من جهة رصده مرحلة انتقال معان من حدود مملكة الحجاز إلى أراضي إمارة شرقي الأردن العام ١٩٢٥.

إن ما يجدر ذكره هنا، أن عملنا البحثي المشترك مُستمر إلى اليوم بِخُطَىً حثيثة، ونأمل، بحول الله وتوفيقه، أن يُتوّج هذا الجهد بإصدار قريب عن مدينة عجلون: الملامح الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجلات عقود الزواج، مُؤملًا أن تزدهر المسيرة البحثية المشتركة وتستمر في مقبل الأيام.

قبل أن أختم كلامي هذا، لا بُدّ لي من إزجاء الشكر والعرفان للدكتورة هند، على كل ما أبدته وتبديه من لطف وتعاون وسخاء معرفي ومنهجي، والشكر الموفور لها على تحملها الجهد العظيم في أثناء إعداد الدراسات وتدقيقها للسجلات والوثائق مرات عديدة، بعين فاحصة وحسٍ بحثي عالي المسؤولية، ويجب ألا أنسى أستاذتنا في جانبها الإنساني وشخصها النادر، وما تتمتع به من مناقبية أكاديمية وأخلاقية ووطنية وإنسانية، وخلق علمي قلما نجد نظيره اليوم.

فكل التقدير والاحترام والود للأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر، لقاء ما قدمته وتقدمه في مجال الدراسات التاريخية.

هنـــد أبـــو الشعـــر وكتابهـــا حركـــة المختـــــار بـــن أبـــــي عبيـــد الثقفي فـــــــي الكوفة (٦٤-٦٧هـ/٦٨٤-٦٨٦م)

د . أنور عودة الخالدي *

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة التعرف إلى المؤرخة العربية الأردنية هند غسان توفيق أبو الشعر، وكتابها (حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة)، وذلك من خلال التعرف على معالم حياة أبو الشعر، وبيان أهمية كتابها، خصوصًا أنها من المؤرخين القلائل الذين كتبوا عن حركة المختار بن أبي عبيد في الكوفة، بشكل علمي تميز بكمٍّ وافر من الروايات والمصادر والمراجع، ودراسة الروايات والرواة، ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم تجاه هذه الحركة، وتحاول الدراسة تسليط الضوء على حياتها وثقافتها، ودراسة كتابها وأسلوبها في تصنيف كتابها، والمواد التي اعتمدت عليها، ومنهجها، والنطاق الزمني لكتابها.

* رئيس قسم التاريخ والجغرافية التطبيقية – جامعة آل البيت.

الكلمات الدالة: هند أبو الشعر، حركة المختار، الكوفة، التشيع، حركة التوابين، الاتجاهات القبلية.

المُقدمة:

سعت هذه الدراسة إلى بحث الفعاليات القبلية، في إطار التيارات العامة السياسية والفكرية في مدينة الكوفة، لكون تلك الفترة تميزت بالصراع بين الاتجاهات القبلية والحزبية، وكذلك دراسة الآثار الفكرية (وهنا الحديث عن الغلوّ في الكوفة، والسبئية والخشبية والكيسانية).

وفي المقابل، تناولت الحديث عن خطط الكوفة أيام المختار بن أبي عبيد الثقفي، وسكان الكوفة (القبائل، الحمراء، النبط، الموالي)، ودراسة هذه التركيبة من قبل المؤرخة أبو الشعر؛ للتعرف على المواقع التي جرت فيها الحوادث، والتجمع السكاني الذي توجه إليه المختار بدعوته في الكوفة.

وتوسّع الاهتمام بدراسة حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة، من قبل المؤرخين المحدثين، ومنهم أبي النصر محمد الخالدي بعنوان: «قصة المختار بن أبي عبيد الثقفي: دراسة اجتماعية وسياسية ودينية»، وكذلك الكتاب المعنون بـ: «المختار بن أبي عبيد الثقفي»، الصادر عن سلسلة أعلام العرب، وكتاب حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي لمحمود السيف، وكتاب شخصية المختار الثقفي عند المؤرخين القُدامى للمؤرخ سالم الغِزي، والمختار الثقفي في الميزان، لمحمد العبيدان، والمختار الثقفي لأحمد الدجيلي، وكتاب دولة المختار الثقفي: رؤية جديدة لصفاء الخطيب، وغيرهم.

وبذل هؤلاء المؤرخون، على الرغم من ميول كثير منهم، جهودًا لحفظ تاريخ حركة

المختار الثقفي، وكذلك تدوين كل ما استطاعوا جمعه عنها، وعن مدينة الكوفة، والروايات التي تتعلق بخططها وموظفيها من الإداريين والعسكريين أيام الدولة الأموية، وكذلك أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت هند أبو الشعر أبرز من كتب عن هذه الحركة، وعن صاحبها، وعن مصادرها، وتقسيم هذه المصادر، وعن مدينة الكوفة وخططها وتركيبها السكاني، وعن التشيع في الكوفة، وآثار هذه الحركة الفكرية، وختمت دراستها العلمية المُعمقة بقائمة بالفهارس للقبائل، والأعلام، والأماكن في الكوفة، والمواقع، والفرق، والشعارات والمعتقدات، وأصحاب المختار الذين أوردت المصادر أسماءهم، إضافة إلى خريطة افتراضية للكوفة أيام المختار الثقفي، اعتمادًا على الروايات التاريخية (أبو الشعر، حركة المختار، ١٩٨٣م، ص٣٧٩-٤٣١).

ومن خلال اطلاعي على العديد من الدراسات الحديثة عن حركة المختار الثقفي في الكوفة، فإن هذه الدراسة تطمح إلى أن تكون الدراسة العلمية الأولى المحايدة والواسعة، بمصادرها ورواتها ورواياتها، وما تميزت به من تدقيق وتمحيص وتحليل علمي بحت.

اسمها ونسبها وولادتها:

هي هند غسان توفيق أبو الشعر، المولودة في مدينة عجلون من أرض الأردن، في أسرة أبو الشعر العربية الأردنية، وهي أسرة اعتنت بالعلم والفكر والثقافة، ومن أقاربها عقيل سليمان أبو الشعر النمري، وهو من رواد العرب في مجال الكتابة الروائية والفكرية، وأول كاتب أردني، وعاشت طفولتها وشبابها ومدارسها الأولى في بلدة الحصن في مدينة إربد، ثم انتقلت إلى مدينة الزرقاء، ودرست في مدارسها.

وهند أبو الشعر كريمة الخليقِة، شريفة الملكَةَ، سامية الأخلاق، نبيلة النفس، محمودة

الشمائل، أريحية الطباع، كريمة المَخبَر، كريمة المَحسِر، حرة الطينة، عالية الهمة، متواضعة النفس.

وحصلت هند أبو الشعر على البكالوريوس والماجستير والدكتوراه من الجامعة الأردنية، وعملت في جامعة آل البيت عند تأسيسها أستاذة للتاريخ الحديث في كلية الآداب والعلوم، وهي قاصة وفنانة تشكيلية، وأكاديمية ومؤرخة وكاتبة، وحياتها زاخرة بالبحث والتأليف والتوثيق[١].

ويلحظ المُطلع على سيرة أبو الشعر اهتمامها الواسع بتدوين التاريخ، وهو العلم الذي غلب عليها؛ إذ أضحت واحدة من كبار المؤرخين الأردنيين والعرب.

ووصفها بعضهم بأنها يغلب عليها طابع الكتابة القصصية، واشتهرت أيضًا بمعرفتها الواسعة بتواريخ بلاد الشام، وخصوصاً التاريخ العثماني فيها (انظر مؤلفات وأبحاث د.هند أبو الشعر).

موارد أبو الشعر في كتابها حركة المختار:

تُعد أبو الشعر، من خلال دراستنا وقراءتنا لمواردها في كتابها (حركة المختار) من حملة العلم، وأهل التحصيل، وأرباب الاجتهاد، ومن أهل النظر، ومن ذوي البسطة في العلم، فقد وقفت أبو الشعر على مكتبة ضخمة من المصادر التاريخية، ومن رواته كابي مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت١٥٧هـ/ ٧٧٤م)، وهو من أكثر الإخباريين غزارة في تدوين أخبار العراق[٢]، وكذلك عروة بن الزبير الأسدي القرشي المدني (ت٩٤هـ/ ٧١٤م)، وتعد روايات عروة بن الزبير المختار بن أبي عبيد الثقفي خارجة على سلطة عبدالله بن الزبير[٣].

ومن الإخباريين المعاصرين للحركة ومن موارد د. أبو الشعر، عامر بن شراحيل الشعبي

الحميري الكوفي (ت١٠٣هـ/ ٧٢١م)، الذي تُعد رواياته مهمة جدًّا، على الرغم من قلتها لأنها مباشرة[٤].

وكذلك من مواردها محمد بن سعد الزهري (ت١٢٤هـ/ ٧٤٢م)، وله روايات كثيرة في حركة التشيع، وهناك هشام بن عروة (ت١٤٥هـ/ ٧٦٣م)، وسيف بن عمر التميمي (ت١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، وكذلك روايات الواقدي (ت٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، وروايات الهيثم بن عدي الطائي (ت٢٠٩هـ/ ٨٢٤م)، وروايات أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت٢٣٥هـ/ ٨٥٠م)، وهناك أيضاً عوانة بن الحكم الكلبي الكوفي (ت٢٤٧هـ/ ٨٦١م)، ورواياته مختصرة ومتفرقة عن حركة المختار، وبينت أبو الشعر أن التباين في الأخبار يوجب التدقيق والحذر قبل الأخذ بها ومقارنتها[٥].

واعتمدت أبو الشعر كذلك على المصادر التاريخية التي تتناول أخبار الحركة ومنها:

- كتاب «الفتوح»، وكتاب «أنساب الأشراف» لأبي الحسن البلاذري (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، ويمتاز البلاذري في رواياته بالتدقيق، واستبعد بعض الرواة والروايات.
- تاريخ «الرسل والملوك» لأبي جعفر الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م)، وهو مؤرخ واسع المعرفة، وأفرد جزءًا من تاريخه لحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، معتمدًا روايات أبي مخنف.
- كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)، واهتم الدينوري بالحوادث السياسية التي جرت أيام علي بن أبي طالب، وتناول حركة المختار باختصار.
- كتاب «الفتوح» لأبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت٣١٤هـ/ ٩٢٦م)، وهو يهتم بأخبار الشيعة ويتعاطف معهم، وأفرد لحركة المختار بن أبي عبيد في كتابه إحدى وثلاثين صفحة.

- كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)، ويعرض حركة المختار من وجهة النظر الزبيرية، وأخباره للحركة متفرقة ومختصرة بشكل عام.
- كتاب «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم (ت٢١٢هـ/ ٨٢٧م)، ويعد هذا الكتاب من المؤلفات الشيعية المبكرة، وقدم الصورة القبلية، وذكر أخبارًا مفصلة عن الشيعة في الكوفة.
- كتاب «الطبقات» لخليفة بن خياط العصفري (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) وأخباره عن حركة المختار قليلة ومختصرة، وتعكس وجهة نظر الرواة المعادين للخليفة.

كما اعتمدت أبو الشعر في كتابها على مجموعة أخرى من المصادر التاريخية المتأخرة، وكتب الجغرافيين العرب، ومنها كتب اليعقوبي (ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، وابن الفقيه الهمذاني (ت٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)، وابن خرداذبة (ت٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، وابن رسته (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، والمقدسي (ت٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، والمسعودي (ت٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، وياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).

وكذلك اعتمدت على بعض مصادر الإمامية، وهي متحيزة بصورة عامة؛ أي مصادر الإمامية، ومن أهم هذه الكتب وأقدمها كتاب «الرجال» لأحمد بن يحيى البرقي (ت٢٧٤هـ/ ٨٨٨م)، وكتاب «رجال الكشي» لأبي عمرو محمد بن عمر، المتوفى في القرن الرابع الهجري.

كما اعتمدت أبو الشعر في مؤلفها على كتب الفرق الإسلامية، ومنها كتاب «أصول النحل» لأبي العباس الأنباري، المعروف بالناشئ الأكبر، المتوفى سنة (٣٩٣هـ/ ٩٤٢م)، وكتاب فرق الشيعة للنوبختي (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٢م)، وكتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» لأبي الحسن الأشعري، المتوفى سنة (٣٢٤هـ/ ٩٢٧م)، وكتاب «الفرق بين الفرق» لأبي

جعفر عبد القاهرين طاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، وكتاب «الملل والنحل» لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، وكذلك اعتمدت أبو الشعر على مجموعة أخرى من كتب الفرق، مثل كتب الأسفراييني، والحميري، والرازي، وغيرها.

وأما عدد المصادر المخطوطة التي اقتبست من كتبها فبلغت سبعة مصادر مخطوطة، و١٢٤ مصدرًا مطبوعًا، و(٦٩) مرجعًا عربيًّا، و(٦) مقالات باللغة العربية، و(١١) مقالاً باللغات الأجنبية.

أهمية الكتاب:

يقدم الكتاب تفاصيل مهمة جدًّا للحالة السياسية والاجتماعية والفكرية والسكانية في الكوفة والدولة الأموية، في الفترة ما قبل العام ٦٧هـ/ ٦٨٦م، ويبدأ بدراسة مصادر البحث وتقييمها (الرواة، المصادر، المراجع)، وشملت المصادر، بالإضافة إلى المصادر التاريخية، المصادر الجغرافية، والأدبية، ومعاجم اللغة، وكتب الأنساب والفرق، وتميزت الروايات، كما تذكر أبو الشعر (ص أ)، بأنها مباشرة عن أناس شاركوا في الأحداث، أو عن آخرين شهدوا أو سمعوا، وكذلك تؤرخ لتطور الكوفة القبلي والعمراني، وتعرض اتجاهات متباينة لحركة المختار[٦].

ثم يعرض لنا الكتاب خطط الكوفة وسكانها من قبائل، وخاصة القبائل اليمانية، مثل كندة وهمدان والنخع ومراد، وهي القبائل التي ساهمت في حركة المختار، وكذلك ذكر غير العرب مثل الحمراء وهم من العجم، وميزت الدراسة بين العجم والنبط أو العلوج وهم الفلاحون الذين وجدهم العرب على الأرض عندما فتحوا العراق، فسمحوا لهم بالبقاء على الأرض وبيعها وتوريثها، وعرض الكتاب لموضوع مهم وهو حركة التشيع في الكوفة حتى

أيام المختار بن أبي عبيد؛ للتعرف على الاتجاهات الفكرية التي تركت آثارها في المصر قبل المختار.

وكذلك تناول الكتاب آثار حركة المختار الفكرية، وتتبع ظاهرة الغلو، واتهام أصحاب المختار بأنهم «سبئية»، وكذلك عرض الكتاب لموضوع الخشبية في الكوفة والحجاز ونصيبين، وربط بينهم وبين الكيسانية.

ومن المواضيع المهمة لدى المؤرخة أبو الشعر دراستها الشعر العربي ودواوينه، وخاصة في موضوع المعتقدات الفكرية، مثل فكرة المهدي والغيبة والرجعة، التي جاءت في شعر كُثيّر عزة (ت١٠٥هـ/ ٧٢١م)، والسيد الحميري (ت١٧٣هـ/ ٧٩٣م)، وتذكر المؤرخة أبو الشعر أنه لا يمكن دراسة الكيسائية، على سبيل المثال، بمعزل عن هذه النصوص.

منهج أبو الشعر في كتابها حركة المختار:

يمكن التعرف على منهج هند أبو الشعر في كتابها (حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة) من خلال مقدمة كتابها، ومن خلال الفصل الأول: دراسة مصادر البحث وتقييمها. فعلى الرغم من عدم طول المقدمة إلا أنها تضمنت منهاجها الذي اتبعته في تأليف الكتاب؛ إذ تقول فيها: «هذه محاولة لدراسة الفعاليات القبلية في إطار التيارات العامة، السياسية والفكرية، في الكوفة».

ويتضح من خلال المقدمة، أن أبا الشعر أحاطت إحاطة كبيرة بالروايات التاريخية وتدقيقها لمصادرها وميول أصحابها، وتمتاز هذه الروايات بأنها مباشرة عن رواة شاركوا في الحوادث أو عن قريبين منها، وتعرض أوضاع الكوفة الاقتصادية والاجتماعية، وخططها وأزقتها وأسواقها. ومن هنا تميزت دراستها بدراسة تطور مدينة الكوفة السكاني والعمراني من خلال الروايات التاريخية[٧].

غير أن دراسة أبو الشعر هذه تنفرد بعرض الروايات المتباينة عن ثورة المختار، فبعضها زبيري[٨]، وبعضها أموي[٩]، وآخر من وجهة نظر السلطة العباسية[١٠]، وهناك روايات إمامية ترى المختار خارجًا، وتؤكد غلوه وانحرافه[١١]، وهنا تؤكد هند أبو الشعر ضرورة الحذر والتدقيق في جميع الروايات قبل الأخذ بها[١٢].

كما اتبعت أبو الشعر المنهج المقارن، بعرض الروايات المختلفة، وكيفية عرض الرواة لحركة المختار، ثم عرضت للمصادر التاريخية التي تناولتها[١٣]، ولم تكتف بعرض الروايات من دون الخوض في أدلة المخالفين.

كما تميزت عبارات كتابها بالدقة الشديدة، مع التوسع غير المخل، فجاءت كأنها لوحة فنية في صياغتها ودقتها، والتزمت أبو الشعر بذكر التواريخ الهجرية والميلادية، وجاء هذا الالتزام صارمًا في عموم كتابها، ومرده عمق المنهج التاريخي لديها.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج الأساسية، لعل من أبرزها:

- تعد هند أبو الشعر من المؤرخين الأردنيين والعرب القلائل الذين درسوا، بعُمق، حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة، وهي كذلك من المؤرخين القلائل في العالمين العربي والإسلامي الذين درسوا هذه الحركة بحيادية وعلمية.
- توصلت الدراسة إلى أن موضوع الغلو لم يبدأ إلا بعد وفاة علي بن أبي طالب.
- توصلت الدراسة إلى أن دعوة المختار لم تتجاوز مدينة الكوفة، وأن معظم من ساند المختار هم من القبائل اليمانية، وأن التعميمات الواردة حول مشاركة الزنج والحمراء ضعيفة ويجب تقديمها بحذر.

- ناقشت أبو الشعر قضية الكرسي ودلالته، وترى أنه يمثل شعائر يمنية قديمة عند بعض أصحاب المختار.
- توصلت من خلال قراءة لكتاب (حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة) أنه تضمن تاريخًا شاملًا لمدينة الكوفة، بخططها وولاتها وقضائها، والحوادث الرئيسة التي جرت فيها.
- نبعت أهمية كتاب أبو الشعر من اعتمادها على الرواة المعاصرين للأحداث التي أرخت لها، وكانوا شهود عيان على الكثير من حوادثها.
- اعتمدت أبو الشعر في كتابها على مشاهدات الرواة والمصادر الأدبية، والفِرق، والشعر، والرحلات، والتراجم؛ لتدوين الحوادث المختلفة.
- أضحى كتاب هند أبو الشعر (حركة المختار) مصدرًا أساسيًّا لكل من جاء بعدها في التأريخ لحوادث وأوضاع العراق بشكل عام، والكوفة بشكل خاص، في الفترة التي أرخت لها.

الهوامش

(١) **للأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر العديد من الكتب والمؤلفات منها:**

ـ إربد وجوارها (ناحية بني عبيد ١٨٥٠-١٩٢٨)، ١٩٩٥م.

ـ دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث (محررة)، ١٩٩٨م.

ـ بناء الدولة العربية الحديثة، ١٩٩٩م.

ـ تاريخ شرق الأردن في العهد العثماني (١٥١٦-١٩١٨)، ٢٠٠١م.

ـ الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، (محررة ومشاركة)، (د.ت).

ـ سلسلة الوثائق الهاشمية (صندوق الأمة)، ١٩٩٤م.

ـ كتاب الرواية في الأردن، (محررة ومشاركة).

ـ مجموعات قصصية، شقوق في كف خضرة، ١٩٨٢م.

ـ الحصان، قصص، ١٩٩١م.

ـ عندما تصبح الذاكرة وطنًا، قصص، ١٩٩٦م.

وهناك العديد من المؤلفات والأبحاث العلمية المحكمة للدكتورة أبو الشعر.

(٢) هند أبو الشعر، **حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة**، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٨٣م، ص١.

(٣) هند أبو الشعر، المرجع نفسه، ص٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٦.

(٥) المرجع نفسه، ص أ.

(٦) المرجع نفسه، ص٣٩-٤١.

(٧) المرجع نفسه، ص٣٩-٤١.

(٨) مثل روايات عروة بن الزبير (ت٩٤هـ/ ٧١٤م)، وهشام بن عروة (ت١٤٥هـ/ ٧٦٣م).

(٩) مثل روايات عوانة بن الحكم (ت٢٤٧هـ/ ٨٦١).

(١٠) مثل روايات المدائني (ت٢٣٥هـ/ ٨٥٠م).

(١١) انظر: الكشي، **رجال**، ص١١٥، رقم ٣٧٩، الطوسي، رجال، ص١٢٥-١٢٨.

(١٢) أبو الشعر، **حركة المختار**، ص١، الفقرة الثانية.

(١٣) أبو الشعر، المرجع نفسه، ص٧-١١.

الجلسة الثالثة

هند أبو الشعر:

وإدارة العمل الأكاديمي والثقافي

هنـــــد أبـــــو الشعـــــــر
وإدارة العمـــل الأكاديمـــي والثقافي

د . ياسين أحمد السعود *

الإنسانة والأكاديمية الدكتورة هند أبو الشعر

هي كلمات من الوفاء ننسجها، وفي القلب حب وعرفان في حق زميلتنا الفاضلة القديرة الدكتورة هند أبو الشعر، ولمحة من يومياتها في عمادة كلية الآداب والعلوم، المليئة بالتجارب، وفنون القيادة والإدارة، وتربية الأجيال، إضافة إلى نشر العلوم من أوسع مناراته، ولقد كانت الدكتورة أبو الشعر في كليتنا سحابة عطاء سقت عطشها بعلم وإنسانية.

إن الحديث عن التجارب الشخصية ليست بحاجة إلى شخصيات فلسفية، ولا أساتذة نقد وبلاغة؛ إذ كل ما هو مطلوب، في اعتقادي، هو الأمانة في الحديث عن تلك التجارب، بلا زيادة أو نقصان.

* أستاذ الكيمياء في كلية العلوم ـ جامعة آل البيت.

وفي اعتقادي، أيضًا، أن الحديث عن التجارب الشخصية مع الآخرين، هي إضافة حضارية إنسانية لمجتمعنا، لذلك سأحاول الحديث عن تجربتي مع الدكتورة هند أبو الشعر.

كانت تجربتي مع الدكتورة ابو الشعر بمثابة محطات للتعلم استفدت فيها من خبرتها وعطائها، فهي كانت، بحق، بالنسبة لي، مدرسة في الإدارة والأخلاق.

وعندما عملت رئيسًا لقسم الكيمياء العام ٢٠٠٤، وكان ذلك خلال فترة عمل الأستاذة أبو الشعر عميدًا لكلية الآداب والعلوم (كانت تسمى هكذا آنذاك، قبل أن تنفصل العام ٢٠٠٥ إلى كليتين منفصلتين؛ كلية العلوم، وكلية الآداب)، ترسخت علاقتي بها، والتي كانت، وما زالت منذ اليوم الأول، علاقة احترام متبادل، تجمعنا روح أسرية أرست حجر الأساس فيها عميد الكلية الدكتورة هند أبو الشعر. وعند التعامل مع الأستاذة الإنسانة، وجدتها على مستوى عال في القيادة والإدارة، والتسامح والتواضع والإنسانية، فهي تحمل رسالة تقديس العمل، وتعطيه كل حياتها.

لقد علمتني تجربتي مع عميد كلية الآداب والعلوم الدكتورة هند أبو الشعر، الكثير من الدروس التي لا أزال أعمل بمضمونها، وأنا خارج نطاق الإدارة، فقد عملت عميدًا لكلية العلوم مدة ٤ سنوات، وقبلها عميدًا للبحث العلمي مدة سنتين.

ومن بين أهم الدروس التي تعلمتها منها، أنني لا أدعي لنفسي أن ما حققته من إنجازات كان بجهدي وحدي.

وتعلمت، أيضًا، منها الحوار، فهي تسأل وتنتظر الجواب، ثم تسأل وتنتظر الجواب، وهكذا، فهي ليست مثل المديرين الذين يتحدثون طوال الوقت، وكأنهم يطلبون من الآخرين الإنصات والتنفيذ وحسب!

ونتيجة لاختلاف تخصص الدكتورة أبو الشعر، لكونها مؤرخة وأديبة، في حين أن كلية

الآداب والعلوم التي كانت تديرها تضم تخصصات علمية، مثل الكيمياء، والفيزياء، والعلوم الحياتية، والرياضيات؛ لذلك كانت طريقتها في الحوار مدرسة، وأذكر أنها كانت تطلب مني الإفاضة في الحديث أمامها حتى تتضح لها الرؤية على نحو كامل، ولم يكن حوارها اعتباطيًّا أو لرفع العتب، بل كان واضحًا حرصها على فهم الأمور بعمق، وهذا في اعتقادي كان شيئًا رائعًا.

حتى ثناؤها على الآخرين لم يكن ذلك مبتذلًا ـ كما تعودنا ـ فقد كانت تثني على عملي وإدارتي قسم الكيمياء بقولها: «د. ياسين أنت بتعجبني لأنك هادئ»، وهو ما كان يحفزني على العمل والإنجاز، وبهذه الكلمة وحسب.

لقد تعلمنا من مبدعتنا الدكتورة هند أبو الشعر أهمية تطبيق مبادئ الالتزام، وبناء جسور الثقة، وتقدير الإنجازات، والعمل، جنبًا إلى جنب، مع رؤساء الأقسام والإدارة، بغية تحقيق النتائج والنجاح، وكيفية تهيئة الأجواء، حتى أصبح العمل الجماعي هو القاعدة، بعيدًا عن التراتبية والتفريق بين رئيس قسم وعضو هيئة تدريس وإداري، بل أصبح الجميع يرون أنفسهم فريقًا واحدًا لتحقيق هدف واحد.

ونستذكر هنا الدكتورة أبو الشعر عندما كانت تجتمع مع موظف أو طالب؛ إذ كانت تتصرف كموجه، وتحترم شعور الجالس أمامها، وبلهجة داعمة تسأل عن مشكلاته، وتستمع إلى رده، وترد بملحوظات محددة تكشف عن معالم شخصيتها المتواضعة.

لقد تعلمنا من الدكتورة أبو الشعر كيفية توفير مناخ العمل الناجح في كليتنا، الذي يعزز من مستوى العاملين ودوافعهم، كما تعلمنا منها القدرة على الاستجابة للتغيير، والتنبؤ بالمتغيرات ومحاولة التكيف معها، معتمدة على المرونة والثقة والتفاؤل والإبداع، والقدرة على التواصل مع الطلبة وأعضاء هيئة التدريس، والهيئة الادارية.

أما عن تعاملها مع الطلاب، فكانت إنسانة وأكاديمية تحب طلابها وتعاملهم بود واحترام، حريصة على مصلحتهم العلمية والشخصية، لم تحل الجدران دون مساعدتهم وإرشادهم؛ لأنها إنسانة بحق، تترجم للجميع أن المدرس، سواء أكان عميدًا أم رئيس قسم أم عضو هيئة تدريس، هو أب وأم لطلبته قبل أن يكون مدرسًا، وبذلك فهي تترجم مبدأ القدوة لهم.

فطوبى لمربية سطع نجمها في سمائنا فأضاءت طريق الخير والعلم والمحبة لكل من حولها، فقد كانت الدكتورة هند أبو الشعر، وما زالت، نجمة براقة لا يخفت بريقها لحظة نسعد بلمعانها في سماء العلم والأدب، فهي كنجم يدلنا ويمنحنا إشارات للطريق الصحيح، فاستحقت، وبكل فخر، الاحتفاء بها، تقديرًا وتكريماً لجهدها الذي لا ينضب .

إن العمل الإداري ليس مجرد تشريف، ولا منصب للتفاخر، بل هو تكليف وأمانة، وأنتِ قد أثبتِّ أنّك قادرة على تحمل المسؤولية والأمانة بكل إخلاص، والعمل والتعليم هما ما يرفع بلدنا إلى أرقاه، فقد كنتِ من خيرة من تولى منصب عمادة كلية الآداب والعلوم، فشكراً لك على جهودك العظيمة، ومساهمتك في بناء وتطوير ورفعة الكلية، خلال فترة إدارتك للكلية؛ إذ إن تلك الفترة لها في ذاكرتي أنا شخصيًّا مساحة خاصة.

وعندما نبحث عن كلمات شكر وتقدير، فإن أجمل العبارات لا بد أن تسبق حروفنا وتنهي سطورنا، معبرة عن صدق المعاني النابعة من قلوبنا، وعندما نقول كلمة الحق أو نتوجه بعبارات الشكر والتقدير، فذلك ليس من باب المجاملة، لكن اعترافًا منا بالجميل، فألف تحية شكر وإجلال لشخص الدكتورة أبو الشعر المحترمة، فقد كانت أنموذجًا يحتذى به، ومثلًا أعلى للعاملين كافة.

إنني أسعد ما يكون اليوم بحضور الحفل المقام برعاية مؤسسة عبد الحميد شومان، هذه المؤسسة التي حرصت على الدوام أن تكون في طليعة من يعملون لخدمة الثقافة العربية،

إضافة إلى أن هذة المؤسسة منارة للمعرفة والإبداع في الأردن والوطن العربي، وليس بغريب عليها أن تكرم الدكتورة هند أبو الشعر، تقديرًا لها على جهودها المبذولة ومسيرتها المشرفة. وللدكتورة أبو الشعر منا أجمل التهاني وأطيب الأماني، تقديرًا وامتنانًا لعطائها الدائم، وعرفانًا بفضلها الجليل، بأسمى كلمات الشكر والعرفان، نظير ما قدمته من خدمات غاية في التميز والإتقان، ونظير جهودها الكبيرة والملموسة، إلى جانب بصماتها التي تركتها خلفها؛ لتشهد على نجاح عملها. وكلمة شكرًا هي أقل ما يقال لقاء هذه الجهود والأعمال، فمجددًا، شكرا لكِ.

شكرًا عميدتنا على كل قيمة تعلمناها منك، وعلى كل قيمة منحتها لنا بكرمك...شكرًا من القلب لمن مهد الطريق أمامنا ...شكرًا لأني تعلمت منك أن للنجاح قيمة ومعنى ...ومعك آمنت أنه لا عوائق في طريق الإبداع... فأنت أهلٌ للشكر، فوجب علينا تقديرك ....فلك منا كل الثناء والتقدير.

هنـــــد أبـــــو الشعـــــــر
أكاديميـــــــــة وإداريـــــــــة

د . زيد خليل القرالة *

هند أبو الشعر اسم عرفته الأوساط الأدبية، والأكاديمية، والإدارية، فهي كاتبة قصة، وأستاذة جامعية، ورئيسة قسم، وعميدة كلية، ورئيسة تحرير.

استطاعت هند أبو الشعر أن تسطر اسمها في الوسط الأدبي، وأن تشكل حضورًا في المشهد الإبداعي الأردني، فقد أبدعت مجموعة من الأعمال القصصية التي حظيت بإعجاب القارئ، ولفتت أنظار الباحثين، ولذلك فقد كانت أعمالها القصصية موضوع بحث ودراسة لعدد من الرسائل الجامعية، ومحاورات النقاد.

ورسمت الأعمال القصصية للدكتورة البيئة والواقع، فهي أعمال ترصد المشهد الإنساني في الأردن وتشخص واقعه، ومعاناته.

* أستاذ اللغة العربية وآدابها- جامعة آل البيت.

وقد اتسمت أعمال الدكتورة هند بالالتزام، فلم تتجه، على غرار بعض الكتاب، إلى كسر المحاذير الدينية والأخلاقية، بل جاءت متزنة تلازم شخصية الكاتبة، وتعبر عن مكانتها الأدبية والعلمية، وما عرفت به من رقي الكلمة، وأدب الخطاب.

ومع قدرتها الإبداعية العالية إلا أنها بقيت في إطار القصة ولم تتجه إلى الرواية، وهي مع تلك القدرة إلا أنها لا تهتم بالكم والكثرة، ومع ذلك نجدها ذات إنتاج معتدل في القصة؛ لأنها تنشغل بالنوعية، إضافة إلى أنها حاضرة في مجالات وميادين عدة، فهي الباحثة، والأكاديمية، والإدارية.

ولذلك فإن وقت الإبداع وكتابة القصة هو الوقت الذي تخطفه من انشغالها بالمجالات الأخرى، ولم تكن متفرغة يومًا ما للإبداع وكتابة القصة، ومع أنها كاتبة قصة مجوّدة إلا أنها ليست إعلامية بحق نفسها، ولذلك قلما تجدها تتحدث عن ذاتها في هذا المجال.

وأرى أن كتابات الدكتورة هند القصصية وجدت الاهتمام من النقاد والباحثين أزيد من اهتمام زملائها ووسطها الإبداعي بما كتبت، وهذا يمثل ميزة لها ولكتاباتها، فالكتابات التي تلفت انتباه النقاد والباحثين هي التي تشكل قيمة فنية، وتستحق القراءة والدراسة.

وإذا كانت هند أبو الشعر حاضرة بوصفها كاتبة مبدعة، فإن حضورها باحثة جادة مجوّدة لا يقل مكانة عن حضورها الإبداعي، فهي باحثة جادة، تدرجت في البحث العلمي إلى أن حازت مكانة متقدمة في هذا المجال، فالدكتورة هند تجاوزت مرحلة الباحثة إلى كونها مؤرخة، ومن المؤرخين القلائل الذين يشكلون مرجعية في تاريخ الأردن، ورصد مفاصل تطوره.

لقد أنجزت هند أبو الشعر مجموعة من الأعمال التاريخية التي تغطي تاريخ الأردن، وبعض الدول العربية، إضافة إلى ما أنجزته عن الدولة العثمانية، وما أنجزته، مشاركة أو

مستقلة، عن الهاشميين، والوثائق الهاشمية، ولذلك فهي مرجعية تاريخية بحق بما أنجزت من مؤلفات تتضمن التاريخ الشمولي والمتكامل للأردن ومحيطه، وعلاقته مع جواره.

هند أبو الشعر الأكاديمية والإدارية

بدأت هند أبو الشعر حياتها الأكاديمية العام ١٩٩٤ مع نشأة جامعة آل البيت، فقد كانت من أوائل الأساتذة العاملين في قسم التاريخ بل من المؤسسين لهذا القسم.

والمتتبع لمسيرتها الأكاديمية والإدارية، يجد أنها الأكاديمية التي لا تنفصل عن الإدارية، وكذلك العكس، فقد عملت مدرسة في قسم التاريخ، ورئيسة للقسم تضع الخطط، وتطورها، ويتدرج القسم في برامجه من البكالوريوس إلى الماجستير، وهي عضو فاعل في ذلك التطور، وشاهدة على مراحله كلها، وخططه.

وتسلمت رئاسة القسم من العام ٢٠٠٣ إلى العام ٢٠٠٥، وكان أعضاء القسم في هذه الفترة أسرة واحدة في ألفتهم وتآلفهم، وذلك لحسن إدارتها، وبث روح الأخوة فيه.

ومع انشغالها برئاسة القسم، وعضويتها في كثير من المجالس العلمية، وإشرافها على بعض المجالات التي كان لها الفضل في إنشائها، إلا أنها بقيت حاضرة في حقل التدريس، قريبة من رسالتها التعليمية التي أحبتها ونذرت نفسها لها، وبقيت قريبة من طلابها تصغي لهم، وتشاركهم همومهم، وقد عرفتها تتابع طلابها بإحضار ما يحتاجونه من كتب أو مصورات، فكانت تؤمنها لهم من مكتبتها الخاصة، ولا تكتفي بمتابعة الطالب داخل الجامعة.

وعُهد إلى الدكتورة هند أبو الشعر توليها عمادة كلية الآداب في دورتين متتابعتين من العام ٢٠٠٥ إلى العام ٢٠٠٩.

وفي هذه الفترة الإدارية، سجلت مواقف عدة تميزت فيها إدارية وأكاديمية، وعلى النحو الآتي:

* أوجدت ما يسمى «السيمنار»، الذي يمثل ندوة أسبوعية يحضرها الأساتذة، ويتبادلون فيها الحوار في موضوع علمي، وكانت هذه الجلسة تشكل نمطًا من الحركة العلمية في الكلية تحرك الساكن، وتثير موضوعات تفتح آفاق البحث لطلاب الدراسات العليا.
* استطاعت أن تلغي النظرة الذكورية لإدارة المرأة، وتسلمها المواقع القيادية، فأثناء إدارة هند أبو الشعر لعمادة كلية الآداب، لم أسمع أو ألمح أي نظرة أو حديث يستغرب تسلمها عمادة الكلية، وكان الزملاء في أقسام الكلية يظهرون كلّ حرص على إنجاز العمل، والالتزام بمهامهم من دون أي تقصير. فإضافة إلى حسن إدارتها، استقطبت احترام الأساتذة والموظفين لها، وكان كلّ منهم حريصًا على أن يقوم بعمله وزيادة، وعدم الوقوع في أي تقصير، ولا يستغرب ذلك، فقد كانت تتعامل معهم بأرقى أسلوب، وباختيار عبارات التلطف في خطابها الشفهي، وفي كتبها الرسمية، وأدى هذا الأسلوب إلى حرص الجميع على نجاح الكلية في سيرها الإداري والأكاديمي، فكانت العميدة الأخت بتواضعها، وقربها من الجميع، متلمسة همومهم ومشكلاتهم.
* احتواء المواقف الطارئة: مع تميز العلاقات بين أفراد الكلية، إلا أنه لا بد أن تقع بعض الخلافات بين الزملاء، واتسمت إدارة الدكتورة هند في هذه المواقف باحتوائها في حيز الإدارة، والوصول إلى حلول ترضي الجميع، وأعلم أنها قد نجحت في احتواء كثير من المواقف التي طرأت، ولم تترك تلك المواقف لتشكل عقبة في مسيرة إدارتها.

ومع ما يحمله العمل الإداري من مشقة وتشعب في المهام، إلا أن الدكتورة هند بقيت حاضرة في مجالها الأكاديمي الذي نذرت نفسها له، فقد بقيت على رأس محاضراتها، وقريبة

من طلابها، كما بقيت في رئاسة بعض المجالس العلمية، وعضوًا في أخرى، وظلت مستمرة في متابعتها للمجلات العلمية التي كانت همها وشغلها الشاغل.

واستمر حرصها الأكاديمي في إقامة الندوات، والمؤتمرات، ومشاركتها العلمية داخل الجامعة، وخارجها.

ومع أنها كانت تسكن العاصمة، إلا أنها كانت حاضرة على رأس عملها منذ الصباح الباكر، قاطعة مسافة طويلة، غير متوانية عن القيام بما أوكل إليها من مهام.

* نجاح العميدة في الإدارة: إن أي مسؤول يقاس بما طور في مؤسسته، وبعلاقته بموظفيه، وببقاء ذكره حاضرًا بعد مغادرته بما أنجز، وبحسن تعامله.

وكانت مسيرة الكلية في عهدها متنامية متطورة بازدياد فتح الأقسام، واستحداث برامج جديدة، ورفد بعض الأقسام بالابتعاث أو التعيين.

وما يميز الكلية، وما حققته من نجاح، أن إدارتها الكلية جاءت في فترة صعبة جدًّا، فقد كانت الكلية حينها تجمع ثلاث كليات، وجاءت إدارتها في فترة انفصال الكلية، وهو ما يمثل تأسيسًا جديدًا لكلية وليدة استقلت بعد فصلها وسميت كلية العلوم، وفصل كلية العلوم التربوية عنها، ويمثل هذا التشابك والاستقلالية معضلة في رعاية الكلية، وتشكيل مفاصلها.

لقد كانت مرحلة التداخل من اجتماع الكليات ثم الفصل المفاجئ مرحلة تتطلب جهدًا مضاعفًا قامت به عميدة الكلية، يؤازرها فريق أكاديمي وإداري استطاعت أن تجعلهم يدًا واحدة بأسلوبها، ولطف تعاملها، ويضاعف هذا العناء كون أقسام الكلية مشتتة في مبان عدة لا في مبنى واحد مستقل.

* هند أبو الشعر في مكاتب الجميع: حرصت العميدة على تواصلها مع الجميع في

الجلسات العلمية، وفي استقبالها للجميع في مكتبها، محاورة ومصغية، من دون أن تشعرك بأنها المسؤولة، وأن الكلمة لها، وأنها دائمًا على صواب.

والأهم من ذلك، كان تواصلها حاضرًا مع الجميع في زيارتها الخفيفة للزملاء في مكاتبهم، مسلّمة، ومحاورة، ومتلمسة ما لديهم من هموم، فكانت بذلك على تواصل مع الجميع بود وتواضع، وبخطاب تشعرك فيه بالزمالة.

وكانت حاضرة بين الطلاب في محاضراتهم، تحاورهم في همومهم أينما التقتهم، وتصغي لهم، وتسمع ما يطرح من مشكلات، فكانت الأقرب إلى طلاب الكلية عامة.

وتميزت شخصيتها بالابتعاد عن الأنا والفوقية. ومع ما اتسمت به من حضور شخصيتها في المحافل العلمية والرسمية إلا أنها كانت حريصة أن تكون القريبة من النفس بخطابها، وأسلوبها الحميد، واستحواذها على الآخرين بقبولهم لها من الوهلة الأولى.

هنـــد أبـــو الشعـــر حين تتحدّثُ عنها الإنجـــازات: ذاكـرة تَظَـلُّ وذِكـــرى تُظِلُّ

د . حسن خميس الملخ *

لا أعرفُ متى دخَل اسمُ الأستاذة الدكتورة هند غسّان أبو الشعر عقلي المشغولَ بتعليم الكلمات قوانين الائتلاف والانسجام والجمال، ولا أعرفُ لماذا كنتُ قبل أن ألتقيها مُعجبًا بها مؤرّخةً لا تلوّنُ الحقائق، وأديبة تسقي الكلمات الحبَّ والجمال، في حين كانت زوجتي الأستاذة الدكتورة سهى نعجة تراها إلى كلّ ذلك استثناءً مميّزًا في الإدارة التربويّة، وقد صدقتْ زوجتي وصدقتُ؛ إذ كانت، بعد رِفقة السنين، استثناءً فائق الإبداع في التأريخ، والأدب، وإدارة العمل التربويّ والأكاديمي.

لكنني أعرف أنني حين قابلتُها في جامعة آل البيت سنة ١٩٩٨م، قابلـــتُ في خطابها المليء بكلّ رغبات الإنجازِ والتفـــوّقِ والتميّزِ

* أستاذ النحو والصرف واللسانيّات في الجامعة القاسميّة ـ الشارقة.

التاريخَ والأدبَ والإدارة، وقابلتُ فيها الأنموذج الفريد في التعامل الإنسانيّ الراقي، وقابلتُ فيها سنديانةً وطنيّة منسوجة من تراب الولاء والانتماء والوفاء، تَظَلُّ تُظِلُّ: من ولادة الحكايات إلى طواف الكلمات، ومن ذاكرة الكراسي العابرة إلى باصرة الأيام القادمة، كأنَّها أتتْ من المستقبل الجميل لتدلَّنا عليه، لا من الماضي لنزهو به حينًا، ثم قد نتحسّر علينا وعليه.

الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر حالة فريدة من المزج بين الحُلم بغدٍ أفضل، والحرص على البحث عن إيجابيّات الواقع، والإفادة من تاريخ سابق ولو كان مؤلمًا؛ لأنَّها ترى في وردة عَزلاءَ منسيّةٍ في يوم عملٍ شاقٍّ مشروعَ بستانِ وُرُودٍ، ومصنعَ عطور، فلا تعرف اليأسَ، ولا تُخيفها المساحاتُ المعتمة، ولا تنشغل بالأصوات العالية الجوفاء، بل تبحث عن الأصوات الممتلئة بحبّ الأرض والإنسان، تلك الأصوات التي يصير صوتُ عملها معزوفةَ إنجازٍ، وبراءةَ اختراع لكلِّ القادمين من قريب، ومن بعيد، وهم يفتحون في جامعة آل البيت الشَّمّاء كتابَ ذاكرة الوطن، وسِجِّلَ الإنجازات، وأسماء الذين غَرسوا فأكلنا، أو وهم يمرّون على عبارتها الثابتة إلى ما شاء الله حين يصعدون الدرج إلى مكتبها أو مكتب العمادة وهم يقرؤون: «شكرا لاحترامِكم حقَّنا في المرور»؛ فإذا بالدرَج يصبح مَرقاة إلى عبارات أجمل، مثل: «حقُّكم واجبُنا» لا مِنّةً ولا فَضلًا؛ لأنَّ الدكتورة هند كانت تكتب القرار الإداريّ كأنها ترسم لوحة فنيّة من كلمات أدبيّة، تسمو بالذوق، وتُشعِر الآخر بأنَّه المخاطَب المقصود بالقرار من غير مباشرة جارحة أو فاضحة، فالاحترام أساس في تعامل الدكتورة هند مع الجميع؛ لهذا كان الخجل من الخطأ أو المخطئ يسبق العناد والجدال؛ فإذ به يتحوّل إلى صديق حميم.

كان من حُسن حظّي أنَّني عملتُ مع الدكتورة هند أجملَ سنوات عُمري في الإدارة، ليس لأنَّ العمل كان مُريحًا، أو أنَّ الأعباء كانت قليلة، أو أنَّ بنية الكلية كانت مكتملة مستقرة، أو ...، أو ...، بل لأنَّ العملَ في فريق الدكتورة هند دراساتٌ عُليا في محراب العمل الجامعيّ

حين يغدو يدًا تبني، ولسانًا يشرح ويشكر، وقلبًا يحبّ ويفرح، بل حين يغدو العمل مُتعة، والإنجاز مُلكًا للجميع، وأشهد أن اليوم كان يمضي كأنَّه دقائق معدودة، لا ساعات على مناخات اليوم ممدودة.

إنّني، وبعد قرابة خمسة عشر عامًا من رِفقة الدكتورة هند مُساعدًا لها في عمادتها لكليّة الآداب والعلوم لشؤون الأقسام الأدبيّة، ثم مساعدًا لها حين استقلال كلية الآداب عن كلية العلوم، ثم نائبًا لها في الكلية، وفي الوقت نفسه زميلًا لها في مجلس الجامعة عن مقعد إدارتي لمركز إحياء التراث العربي الإسلاميّ في الجامعة، بالإضافة إلى عملي معها نائبًا؛ إنّني بعد كلّ هذه السنوات ما أزالُ على ما تعلمتُه منها في التعالي عن الصغائر، والحرص على الإنجاز الحقيقيّ، وتزيين العمل بالابتسامة والسعادة، وعدم انتظار كلمة «شكرًا» من أحد مَهما تعبتُ؛ لأنَّها علمتني أنَّ العملَ إنجاز مجرّد من أن يكون من أجل مصلحة، أو لإرضاء أحد؛ إنَّه شجرة نزرعها في الأرض التي نحبّها، وفي المكان الذي نعشقه؛ ليأكل منها من يأتي بعدَنا، وليجلس تحتها من هرب من وعثاء التعب، وألم المسافات، ووجع الفشل؛ فالأعمال البنّاءة المفيدة هي الباقيات الصالحات.

وسأبدأ بالباقيات الصالحات من ذاكرة الأعوام الثلاثة، كلّها صالحات بصحبة العميدة الدكتورة هند في إدارة أكبر كليّات جامعة آل البيت آنذاك، وهي ذاكرة ما تزال آثارها في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة كما هي، من غير أن ينجح أحد في الإضافة الحقيقيّة إلى تلك الأعمال الصالحات في البنية التحتية والهوية الحضارية للكلية، وإن نجح بعض الزملاء في إدارتها والحفاظ عليها على ما رسّخت الدكتورة هند من أعراف أكاديميّة، ولاسيما في الاهتمام بالنشاطات الثقافيّة والندوات العلميّة.

عندما عهد الأستاذ الدكتور سلمان البدور إلى الدكتورة هند بعمادة أكبر كلية آنذاك في

الجامعة، كان يعرف أنَّ هذه الدكتورة المؤرّخة الأديبة هي التي ستغيّر وجه كلية الآداب والعلوم إلى الأبد عندما تتسنّم عمادةً يذهب معظمُ ميزانيتها إلى الأقسام العلميّة، مثل الكيمياء وغيره من أقسام العلوم، وتمتدّ معظم مساحتها في مبانيها الثمانية على مختبرات الأقسام العلميّة، ويستهلك سجلّ موظفي الأقسام العلميّة معظم صفحاتها، ويأكل وقت أيّ عميد ما كان بين قليل منهم آنذاك من ضوضاء سيئة الألوان والأصوات.

كان الأستاذ الدكتور سلمان البدور يعرف كلّ هذا، ويعرف كيف يمدّ الدكتورة هند بالاثنين المناسبين لمساعدتها، فكان صديقي العزيز الدكتور هيثم السعدوني من قسم الكيمياء مساعدًا لها للأقسام العلميّة الغنية بكل شيء، وكنت أنا القادم من قسم اللغة العربيّة وآدابها مساعدًا لها للأقسام الأدبية الفقيرة إلا من شيء واحد، وهو الإبداع في تنظيم المؤتمرات الدولية.

كان يوم العميدة الدكتورة هند يبدأ باجتماع قصير عند الساعة الثامنة مع فريق إدارة العمادة لا يتجاوز النصف ساعة، نشرب فيه القهوة أو الشاي، ونخطّط لتوزيع العمل اليوميّ بيننا، ثم نفترق، كلٌّ منّا له عمل ينجزه حتى إذا قارب اليوم على الانتهاء؛ كان هناك اجتماع قصير ثانٍ لتقييم ما تمّ إنجازه، وحمْل ما تبقى من العمل إلى منازلنا، أو التفكير في حلّ إشكالية ما، أو التخطيط لعمل ما؛ لكي يكون في اليوم التالي أول ما نبدأ بمناقشته في الصباح.

وأمّا الاجتماعات الرسميّة لمجلس الكلية، واللجان العليا فيها؛ فشيء يجب أن يبقى للذكرى؛ إذ كانت للدكتورة هند قدرة استثنائيّة على الصمود في الاجتماعات بتركيز شديد لمدة طويلة تصل إلى ثلاث ساعات في الغالب، وإدارة الاجتماعات بلا تعب، أو كلل، أو ملَل، ومناقشة التفاصيل الصغيرة والكبيرة بدقّة واستفاضة؛ وللحقّ كانت الدكتورة هند مستمعة مثالية، تعطي لكلّ مناقش حقّه من الكلام باحترام وتقدير حتى لو كان رأيه على

غير ما ترى وتريد؛ لأنَّها تؤمن أنَّ الإداريّ الناجح مستمع أكثر منه متكلمًا، وكانت مستعدة دائمًا في حواراتها ومناقشاتها إلى الاقتناع بوجهة نظر الآخر إذا أقنعها، فلم تكن تستبدّ بوجهة نظرها.

وللحقّ أيضًا، كُنّا في كلية الآداب والعلوم نشعر نحن أهلَ الآداب بشيءٍ من عدم الرضا يُظهِرُه أو يُخفيه بعضُ الزملاء والموظفين في الأقسام العلمية عن وجودها ووجودي، كأنّنا احتلال واستعمار قادم من الأشعار وحكايات التاريخ، ولا عهد له بالتكنولوجيا والحاسوب والمختبرات، ولكنّنا بدأنا نتعلّم مصطلحاتهم، ونتعرّف عالمهم، ونتودّد إليهم، ونسهّل لهم كلّ معاملاتهم، و...، و... إلخ من غير أن يتغيّر الشعور؛ حتى استقرَّ في ذهن الدكتورة هند بعد نقاش طويل مع الدكتور هيثم ومعي، ومع بعض الزملاء الرائعين من الأقسام العلمية مثل: الأستاذ الدكتور ياسين السعود الذي كان رئيسًا لقسم الكيمياء آنذاك، ومن الأقسام الأدبية مثل الأستاذ الدكتور زيد القرالة الصديق المقرّب منّا دائمًا مع أنَّه من قسم اللغة العربيّة، وغيرهما من الأصدقاء الرائعين في أقسام الآداب والعلوم؛ استقرَّ في ذهن الدكتورة هند آنذاك أنَّ العلوم والآداب عالمان يتوازيان ولا يتحدان في كليّة واحدة.

وهكذا بدأ التفكير في فَصْل كليّة الآداب عن كليّة العلوم، ثم صار الأستاذ الدكتور عادل الطويسي، حفظه الله، رئيسًا للجامعة، فدعم الفكرة، وشجّع على استكمال إجراءات الفصل التي كانت أشبه ما تكون بطرد كليّة الآداب من كلِّ الأبنية، إلى أيّ مكان آخر بعيد عن كليّة العلوم، فكان اختيار مبنى ناءٍ بعيدٍ في الطرف الجنوبيّ من الجامعة، كانت الجامعة تستعمله منجرة ومحدَدة لقسم الصيانة، وأحيانًا لتدريب بعض طلبة الهندسة؛ ليصير مبنى كليّة الآداب، وبقي اسم الكلية وفيًّا للعلوم، فصارت الكلية تتشرّف باسم «كليّة الآداب والعلوم»، بإضافة صفة «الإنسانيّة»، واحتاج طاقم الدكتورة هند إلى سنة لإقناع الزملاء من قسم اللغة العربية

والتاريخ بالانتقال الكامل إلى المبنى الجديد، وتحمُّل شهور طويلة من رائحة بِرادة الحديد، وغِراء الخشب، أما قسما اللغة الإنجليزية، والفرنسية، فكان لهما مبنى قريب في الجهة المقابلة من الساحة الجديدة وَرِثاه من السَكَنات القديمة لطالبات الجامعة.

وهكذا كانت ولادة الكلية المستقلة للآداب والعلوم الإنسانيّة على يد الدكتورة هند، وانتقل معها ومعنا قِسْما اللغةِ العربية والتاريخ إلى المبنى الجديد، وأوّل سؤال فكّرتْ بالإجابة عنه مفادُه: «ماذا سنسمّي هذا المبنى؟» ولم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ حتى توافقنا على أن يكون اسم المبنى «مبنى الأندلس»، كأنّها تؤسّس الأندلس الجديدة في جامعة آل البيت، ثمّ سألت عن اسم القاعة التي ستكون فيها مناقشات رسائل الماجستير، وكان الجواب «قاعة غرناطة»، ومضت الأيام، وصار يُقال: انظروا كيف صنعت الدكتورة هند من المنجرة والمحددة مبنى جميلًا لكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة.

بعد تأسيس الكلية، صارت الآداب كلية الجامعة المركزيّة وواجهتها الثقافيّة، وصارت ساحتها التي تشاركها فيها شقيقتها كلية العلوم التربويّة ساحة كليّة الآداب، وتبعتْ كليّةُ الآداب الإنجازات العلميّة في المؤتمرات الدولية الكثيرة التي كانت تُقيمها أو تشارك في إقامتها؛ فانزوَتْ أو كادت الكلية الأخرى. وحتى يكتمل للأندلس اسمها سَعت الدكتورة هند إلى بناء نافورة جميلة عند مدخل الكلية وتزيين ساحتها، لكنَّها تركت الجامعة للتفرغ العلمي، كما فعلت أنا في الوقت نفسه، فتوقّف المشروع إلى اليوم على ما أظنّ.

وبما أنَّها مؤرّخة تعي أثر الجغرافية في التاريخ، استثمرت الزيارة الأولى أو الثانية لمعالي المرحوم الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي، الذي كان ثاني رئيس جامعة تتعامل معه عميدة كلية الآداب الدكتورة هند، ووقفت بجواره في قاعة مجلس الكلية في مبنى العلوم المعروف باسم «مبنى البيروني» في رئاسته الأولى القصيرة للجامعة، تسأله عن المسافات

الطويلة من مركز مبنى كلية العلوم إلى مبنى كلية الآداب، بل عن المسافات المتعبة على بناتنا وأبنائنا، فاقترحت بناء ممرّات القرميد بين مباني الجامعة، ولاقت الفكرة استحسان معالي الدكتور عبد السلام العبادي، الذي كان صاحب قرار جريء حين استدعى المسؤولين عن الصيانة والهندسة، ثمّ مضت الأيام فصارت جامعة آل البيت إلى اليوم مشهورة بممرّاتها القرميديّة الحمراء التي آمَلُ أن يتذكّر الجميع أنَّها فكرة الدكتورة هند حين كانت تحلم بممرّ جميل، يجعل المشي بين مباني الجامعة متعة، وأيّ متعة.

والدكتورة هند في كلّ عملٍ تقوم به تحرص على أن تكون فيه مسحة من جمالٍ وَرُقيٍ وحضارة، فاختارت أن تجعل في مكتبها لوحتين كبيرتين تمثلان هُويّة كليّة الآداب، في أبعادها الحضارية والتاريخيّة واللغويّة والثقافية، وما تزال اللوحتان إلى اليوم أجملَ ما في ذلك المكتب الكبير.

وبالعودة إلى الدكتورة هند في عملها الإداريّ اليومي، أجدني مضطرًا إلى الإيجاز والاختصار بانتظار كتابتها لسيرتها الذاتيّة التي أعرف أنَّها كانت تقول لي إنَّها ستسميها «ذاكرة كُرسي»؛ ولكي لا أحرق مُتعتها في الاحتفاظ لكلّ لقاء بذكر شيء جديد من ذاكرة مليئة بالأحداث والأشخاص والحكايات؛ ولهذا سأتوّقف عند ستّ لوحات أشهد أنَّ الدكتورة هند أبو الشعر، في إدارتها كليّة الآداب، جعلت كلّ لوحة منها مبدأً مُهمًّا من مبادئ الإدارة الأكاديميّة الناجحة، وهذه اللوحات هي:

لوحة فريق العمل، فالدكتورة هند تعي تمام الوعي أنَّ الإدارة الناجحة تعني تنفيذ الأعمال المطلوبة والمأمولة بأيدي الآخرين؛ ولهذا فهي تحتاج إلى فريق يعمل معها، ويؤمِن بفكرتها، ويشرف على تنفيذ العمل؛ لهذا كانت تختار في فريقها من يتصف بالمعرفة الممتازة بالعمل وقوانينه، على هدوء في التعامل، وحزم في القرارات، وصدق في الاستشارات، واحترام لآراء

الآخرين، وتمسّك برأي الجميع أو الأغلبيّة، فلا أذكر أنَّها انفردت في رأي أو فكرة، ولا أذكر أنَّها رفضت فكرة منطقيّة من أحد، ولا أذكر أنَّها تنصّلت من نتائج أيّ قرار، ولو كان فكرة الأغلبية التي لم تكن هي منها، كما لا أذكر أنَّها نسبت لنفسها وحدَها إنجازًا أو عملًا؛ فقد كانت دائمًا تقول: فكّرنا، وعملنا، وصار معنا، و... إلخ، وعندما تنال الفكرة استحسان رئيس الجامعة أو مجلس العمداء؛ تقول بفرح واعتزاز: هذه فكرة فلانة، وهذه فكرة فلان؛ لأنَّها في إيمانها بروح الفريق، إنّما تصنع من كلّ من يعمل معها قائدًا أكاديميًّا ناجحًا في المستقبل، بدلالة أنَّ معظم من عمل معها في عمادتها للآداب والعلوم، أو للآداب والعلوم الإنسانيّة، قد صار شخصية إدارية ناجحة في مركز أكاديمي مرموق، ولا أذكر أنَّ أحدًا عمل معها وعرفها حقّ المعرفة، ثم تبرّم منها بالاستقالة أو النقل، وكانت تؤمن أنَّ الإداري الناجح لا يمكن أن يكون مُلمًّا بكلّ المعارف والمهارات في كليّته، لكنه يعرف كيف يستحضر تلك المعارف والمهارات، فقد كانت تؤمن كلّ الإيمان بأنَّ المستقبل في التعليم الجامعيّ للحاسوب؛ ولهذا كانت حريصة أن يكون مختبر الحاسوب في كليتنا الأدبية رُكنًا مُهمًّا منها، كما كانت موهوبة في اكتشاف نقاط القوّة والتميّز والإبداع لدى الآخرين؛ لتعمل على استثمارها لصالح العمل في الكلية، إنَّها إدارية خبيرة بِطاقاتِ كلِّ العاملين معها، وبكيفية الإفادة منها، وبكيفية تنميتها، فهي لا تنفكّ عن تشجيع العاملين معها ليكونوا أفضل لأنفسهم ولبلدهم ولعائلتهم.

لوحة اليد الممدودة إلى المجتمع، فقد كانت تؤمِن أنَّ للمجتمع حقّه من المشاركة في صناعة الإنجازات، ومن واجب الجامعة أن تكون جزءًا من التنمية الشاملة لمنطقتها؛ لهذا كانت تفتح مكتبها للجميع، وتدعم كلّ ما من شأنه العودة بالخير والمنفعة على الجميع، ضمن احترام القانون وروحه؛ إذ ترى القانون شيئًا مقدّسًا لا يجوز المساس به أو بهيبته، أو تجاوزه، بل لا يجوز إلا أن يقف الجميعُ متساوين على مسافة واحدة منه، فكانت تحرص على

أن يكون أسبوعُ مكتبةِ الأسرة عن منطقة المفرق في كلية الآداب، تحديدًا، في احترام جميل للكتاب، ودعوة للمجتمع لزيارة الكلية والجامعة، لكنَّ أجمل ما في علاقتها مع الآخرين في العمل أنَّها لا تنسى أن تقف بجانب كلّ واحد منهم في فرحه وحزنه، فهي لا تنسى تهنئة أصدقائها والعاملين معها وطلبتها بأعياد المسلمين مع أنَّها مسيحيّة، ولا تنسى واجبات المشاركة في الأفراح والأتراح أثناء الإدارة، وبعد أن تخرج من مكتبها الإداريّ مَهْما طالت السنوات، وتغيّر الناس.

لوحة التسامح، فالدكتورة هند بطبيعتها لا تحمل غِلًّا أو حقدًا، بل تحمل الابتسامة والمحبة، وتتعالى على المنتقدين إن لم تستفِد من انتقاداتهم، وتعود عليهم بالتسامح؛ إذ تؤمن أنَّ المدير الناجح هو من يتجاوز المناكئين والمناكفين والمشاغبين والناكرين، ليجعلهم في صفِّه قوةً تُضاف إلى قوته، لا جزءًا مسروقًا ممّن هو مسؤول بحكم القانون عنهم، وكثيرًا ما استمالت بحُسن التعامل مَن أساء، بل كثيرًا ما نجحت في إصلاح بعض الطلبة، وتحويل حياتهم من المشي في طريق الضياع والانحراف إلى الركض في طريق النجاح والتألّق؛ لأنَّها ذات قدرة هائلة على الاحتواء، وذات إيمان راسخ بأنَّ كلّ مخطئ يمكن أن يعود إلى رُشده؛ ولهذا ما كانت تتردّد في استعمال كلّ وسائل الدعم للجميع، لكنَّها في النهاية ما كانت تتراجع عن المصلحة العامة حين تستلزم تطبيق الجانب غير المضيء في القوانين، وهو جانب المحاسبة والعقاب، فهي مزيج فريد من التسامح والحزم.

لوحة الحرص على رفع اسم الكلية والجامعة والوطن في كلّ المحافل، فالعمل معها يعني أن تكون متأكدًا من دعمها لك في السفر إلى أيّ بلد للمشاركة في ندوة متخصصة، أو في مؤتمر علمي دولي، أو المشاركة في ندوة محلية أو مؤتمر وطنيّ، تحمل فيه اسم كلية الآداب وجامعة آل البيت، واسم الأردن الغالي. وفي الوقت نفسه يعني العمل مع الدكتورة أنَّها في

أيّ فرصة ستحرص على دعم أيّ واحد في الكلية؛ ليكون عضوًا في لجنة عليا في الجامعة أو المحافظة أو الوطن؛ فهي تفرح بأيّ حضور لأيّ واحد في الكليّة، ولأيّ ترقية، ولأيّ إنجاز؛ ولا أنسى يوم أن رُقِّيت إلى رتبة أستاذ مشارك سنة ٢٠٠٥م أنَّها جاءت إلى مكتبي تبشّرني بالترقية بفرح لا مثيل له، كأنّها هي التي حصلت على الترقية لا أنا، هكذا كانت وستبقى أكثر فرحًا بغيرها من فرحها بنفسها.

ويعني العمل مع الدكتورة هند إمكانية إقامة مؤتمرين دوليين أو أكثر في سنة واحدة، مع مجموعة كبيرة من الندوات المحليّة والعلمية والثقافية، واستضافة القامات العلميّة والأدبية والفنيّة، وهذا يعني تحمّل العمل في ظرف صعب؛ لتحقيق إنجاز علمي ثقافي في استضافة كثيرين من عُشّاق مؤتمرات كلية الآداب من شتى البلاد والدول، وهم عندما تعود حقائبهم المسافرة إلى بلادهم، يحملون معهم أجمل الذكريات عن الكلية والجامعة والأردن، لكنّهم يُبْقُون عندنا ما تعلمناه منهم، ولو كان قليلًا من حصاد خبرتهم العلمية والإدارية.

لوحة إصلاح الإنسان: الدكتور والموظف الإداري والطالب والطالبة؛ إذ كانت ترى في إصلاح كلّ من حادَت به طريق الصواب إنجازًا، بل تراه واجبًا عليها بصفتها الإنسانيّة، فقد كاد أحد الطلبة أن ينجرف نحو طرق السوء والضياع، وكان يستحقّ الإنذار الأخير ثم الفَصْل، لكنَّها كانت ترى أنَّ إصلاحه أهمّ من فصْله؛ لأنَّ الجامعة لا تقذف إلى المجتمع إلا الناجحين، فجلست تسمع قصة حياته كأنَّها تسمع رواية شرقيّة بائسة الفصول، ثم وضعت خطة لإصلاحه، فإذ به يتحسّن يومًا بعد يوم حتى استقام أمره، ونجح وتخرّج على أحسن ما يكون الخرّيج.

واستدعت يومًا زوجة أحد الزملاء لتخبرها كيف أنَّ زوجها لديه مواهب وطاقات ينبغي

تعزيزها؛ ليكون أفضل، وليس ثمة من هو أفضل منها في مساعدته، فشعرت أنَّها تعلّمها واجب المرأة نحو زوجها؛ ليكون عظيماً أمام الناس، لكنَّها وراء كلّ تلك العظمة.

وكانت مستعدة دائماً لمساعدة من يحتاج إلى مساعدتها، حتى صار مكتبها مقصدًا لغير طلبة الكلية ممّن يأتون إليها لطلب النصح والإرشاد والمساعدة، بل للاتفاق معها على صناعة مستقبل أفضل. وكنتُ أراها تحمل هَمّ الآخرين كأنَّها من أقاربهم، أو كأنَّهم من أقاربها، لا تهمّها زاوية العلاقة، بل يشغلها موضوع واحد، وهو ترك بصمة خير، ولمسة حنان، وكلمة طيبة، وموقف مشرّف عندما تصبح الأيام ذاكرة، والأحداث ذِكرى.

لوحة التطوير؛ إذ كانت تتجاوز مقولة تسيير العمل، ومقولة احتواء كلّ العاملين، إلى الإيمان بضرورة تطوير العمل؛ لأنّها لا تدير عملًا آنيًّا، بل تصنع إنجازًا يتجاوز الحاضر، ويبقى في المستقبل بلمسة إنسانيّة جماليّة، همُّها دائماً المستقبل الذي ستكون عليه الكلية أو الجامعة؛ ولهذا ينبغي أن ترسِل إلى المستقبل بصمتها الخاصّة، فتعود إلى منزلها وهي تفكّر: ما الذي ستضيفه في صباح اليوم التالي لعملها وللعاملين معها، وللكلية وللجامعة.

ومع هذه اللوحات، ما كانت الدكتورة هند، وهي في أوج انشغالاتها الإدارية، تنسى أنَّها أستاذة جامعيّة، وباحثة، وأديبة، فلم تكن تتأخر عن محاضراتها، أو تؤجّلها، أو تلغيها، كما كانت دائماً القدوة والمثال في الإنتاج العلمي، والتميّز البحثيّ، والحضور الأدبيّ، وكنّا نتعجّب من قدرتها الهائلة على الصبر ساعات طويلة تقتطعها من وقت راحتها؛ لتكتب بحثًا، أو مقالة، أو كتابًا، أو قصة قصيرة، ثم تعود راسمة على وجهها الفرح والسرور، مع أنَّ تعب الجسم كان يأخذ منها نصيبه من الألم، لكنَّها من ذوات النفوس الكبار، وذوات العزم الذي لا يلين، إنَّها في تحمّلها العمل وحرصها على تطويره، كما قال المتنبي:

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا تعبتْ في مُرادها الأجسام

ندعو للدكتورة هند بدوام السلامة والابتسامة؛ لتبقى أيقونة أردنيّة تزهو بكلّ ألوان الفرح، وتحضر في كلّ مناسبات التكريم؛ لأنَّها، وإن تأخّر زمان إنصافها، تستحقّ أن تكون من الأوائل دائمًا.

هند أَبــو الشَّــعر ومسيـــــرة «البَيان»

د . محمَّد محمود الدُّروبيّ *

كأَعْمق ما يكونُ التّناصّ، وأَجلى ما يكونُ التَّعالق، تَناغمَ اسمُ هند أَبو الشَّعر مع مجلَّة «البَيان» تَناغُمًا ممزُوجًا بسنواتِ الكدِّ والجدِّ والشَّدّ، والحفر في قِيْعَةٍ ليست بذات ماءٍ وزرع؛ إذ تَواضعتِ الإمكاناتُ التي كان حَريًّا أَن تُستجمعَ لتأسيس مجلَّةٍ ثقافيَّةٍ حضاريَّةٍ تُحرِّضُ العقل والوجدان، وتَسْتدركُ ما رثَّ من حَبلِ الحرفِ العربيّ، لكن العزيمةَ الواثقةَ قَهَرَتْ كُلَّ العَقَبات التي اكْتَنَدتِ الطَّريق، فكانت هند، وكانت «البَيان»، صوتين يَسِيْران على وَقْعٍ واحد، عَبَقًا وأَصالة، تَميُّزًا وفَرادة، تَوازنًا بين آفاقِ الإبداع ومُنْجزِ البحثِ العِلْميّ.

كانت الرِّحلةُ منذُ رُبْع قرن، وكانت هند أَبو الشَّعـر أَبْرزَ امرأة أُرْدُنيَّة تَتَسنمُ منصبَ رئيسِ تحريرِ مجلَّة ثقافيَّة تكتـــرثُ بالفعـــلِ

* أُستاذ اللغة العربيَّة وآدابها ـ جامعة آل البيت.

الثَّقافيِّ والأَدبيِّ والفكريِّ الرَّصين، وكان المنبعُ في جامعة آل البَيْت، والمصبُّ في ضِفافِ الثَّقافةِ والفِكْرِ حَيْثُما كانا، وفي الجامعةِ تَدفَّق حِبْرُ هند أَبو الشَّعر، فأَنْفَقت أَثْمنَ عُقُودِ عُمرها الأَكاديميّ، أُسْتاذةً في قِسْمِ التّاريخ، ثُمَّ عميدةً لكُلِّيَّةِ الآداب، سَنَواتٌ مملوءةٌ بالعملِ والإنجازِ والبَصَماتِ التي تُشْبِهُ الوشمَ الغائرِ في ظاهرِ اليد، لكن ارتباط هند بمَجَلَّة «البَيان» شكَّلَ السِّلسلةَ المتينةَ غيرَ المُنْجَذِمَة بحال؛ إذ أَمْسكتْ هند بحَبْلِ «البَيان» مُنذ وِلادتها، ولم تُفرِّط بعُراه إلى أَن غادرتِ الجامعة، عِشْرُون عامًا لم تغب «البَيان» بحُضُورِ هند، على الرُغْم مما أَصاب الجامعةَ من تغيُّراتِ الإدارة، وذهابِ الرُّؤساء ومجيئهم، ظلَّت «البَيان» هي «البَيان»، رُؤيةً ورِسالةً ومَنْهجًا وهَدَفًا، وبَقِيتْ هند أَبو الشَّعر تَحْمِلُ هُمُومَ تَحْرِيْرِها، ونَشْرِها على الملأ، قابضةً على عَهْدِ الوفاء والصَّفاء لكل المُلتفِّيْنَ حولَ رايةِ الفِكْرِ والثَّقافة والإبداع، على الرُغْم من أَنف العَيا الذي أَصابَ النُّفوس، وأَضْمرَ الأَرْواح، وأَزْهَقَ الأَفكار، وعلى رُغْم الجَلِيْدِ الذي ضَرَبَ عالمَ العلاقاتِ الحَمِيْمَة، كما تقولُ ضَيْفتُنا المُكرَّمة.

وعلى مَدار هذيْنِ العَقْدين، تَرادفتْ أَعدادُ «البَيان»، وفاضَتْ دَواةُ الجامعةُ لتروي حُقُولَ النَّفس، وامتلأت القَناديلُ حُرُوفًا وسُطُورًا وكلمات، وحملت «البَيان» إلى فَضاءِ الثَّقافةِ الأُرْدُنيَّةِ والعربيَّةِ والعالميَّةِ مَلفّاتها النّابضةَ بكُلِّ ما هو جديد، وأَنارت السَّبيلَ، بدِراساتها المُعمَّقةِ وحواراتها الباذِخَة، وإبداعاتها المُحلِّقة، وتَرْجماتها الثَّرة، ولوحاتها الفنيَّة الزاهية، وصُورِها التي تأَسرُ النّاظرين، وكل ما كان في زَواياها وباباتها الفنيَّة والأَدبيَّة والفكريَّة من ذاكرةِ الوطن وشُرفاتِ الرُّوح، وعَيْنِ الصُّورَة، وأَزهارِ «البَيان» ونَفْحِ طِيْبها، وغيرها وغيرها.

كانت مجلَّةُ «البَيان» تشغلُ جَناحًا صَغِيْرًا مُتواضعًا، كل ما فيه كان مُتواضعًا بحَقٍّ، يعمل فيه مُوظفٌ واحد، لكن هند أَبو الشَّعر اسْتطاعَتْ أَن تحولَ هذا التَّواضُعَ المُحْدِقَ إلى إنْجازٍ

مُبْهج، وبمُكْنَةٍ جبّارة، اسْتطاعت ضَيْفتُنا أَن تَسْتثمرَ كُلَّ الطّاقاتِ الخَلّاقة، وشَبَكَةَ العلاقات الثقافيَّة والعلميَّة والشخصيَّة الواسعة لكَسْرِ الطَّوق، وتقديم مجلَّةٍ ذات سَمْتٍ راق، وكان يسندُها بعضُ الرِّفاقِ في قِسْمي اللُّغة العَرَبيَّة والتّاريخ، فَضْلًا عن بعض الفَنانينَ والفَنيينَ في عِمادة شُؤونِ الطَّلبة، ومَتْحَف سَمَرقند، والمطبعةِ الهاشميَّة، فَتَناسلت الأَعدادُ بحُلَّتها الزّاهية، المائِرَة بأَلوانها ولَوْحاتِها وخُطُوطِها وصُورها، فضلًا عَمّا كان يختزنهُ المضمُونُ من موادَّ راقية تُخاطبُ العقلَ والوجدانَ في آن.

لم تكن مجلَّةُ «البَيان» مجلّةً بالمعنى المعروفِ للقُرّاء، لكنها أَمْستْ حاضِنَةَ الفِكْرِ والإِبداع لعددٍ وافرٍ من أَربابِ العِلْم والفِكْرِ والأَدبِ والفنِّ، الذين زَهَت صَفَحاتُها بمِدادِ أَقْلامِهِم، ولم تكن المَجَلَّةُ تنتظرُ حتى تَفِدَ إِليها أَفواجُ المَقالاتِ والإِبداعاتِ والمُشاركات، لكنها كانت ـ بتَدْبيْرِ رئيسةِ تَحْريرِها ـ تسعى، بِفَضْلِ وعي واستنارةٍ، من أَجل إنتاج مَوادِّ المَجلَّة، وتحريك الطّاقات البحثيَّة للمُشاركةِ في صِناعةِ مَلفّاتها الرَّئيسة، وإِثارة كَوامنِ الكِتابةِ والإِبداعِ المُتَلبِّدَيْنِ بين الحَنايا.

ولستُ مُغاليًا ـ البتة ـ إِذا قُلتُ إِن شطرًا من الفِعْلِ الثَّقافيِّ في جامعةِ آل البَيْت ولَّدتُهُ مجلَّةُ «البَيان»، بما كانت تُنظِّمُهُ من سَلاسلِ المُلْتقياتِ والمواسمِ الثَّقافيَّةِ، التي كانت مَجْمعًا أَنِيْسًا للشّادِيْنَ والمُتأَدبِيْنَ والمُتَفكِّرِيْن من داخلِ الوطنِ وخارجِه، ولَنا أَن نذكرَ منها على سَبيلِ المثال: مُلْتقى الاسْتِشْراق، ومُلْتقى الحركة الأَدبيَّة والثقافيَّة والفكريَّة في اليمن، ومُلْتقى الحركة الأَدبيَّة والثقافيَّة والفكريَّة في الجزائر، ومُلْتقى الرِّواية على مَشارفِ القَرْنِ العِشْرين، فَضْلًا عن المُلْتقياتِ التي أَنارتْ سِيَرَ بعضِ الرّاحلينَ الكِبار، كمُلْتقى الشّاعر الأُردنيِّ عَرار، ومُلْتقى العَلّامة السعُودي حَمَد الجاسر، ومُلْتقى الشّاعر الرُّوسيّ بُوشكين، وغيرها.

كانت هند، بِطَبيعَتِها المُتناسِقَة، تَحْرَصُ على مُتابعةِ كُلِّ ما يُهِمُّ مَجلَّتها، تسعى في سَبيْلِ

اسْتِقطابِ الأَقلام الرَّصينة، وتُشَجِّعُ الأَقلامَ الواعِدَة، وتَبْذُلُ جُهدًا كبيرًا في تخيُّرِ الموادِّ وترتيبها، وتُعْنى بِتَدْقيقِها وتخليصِها من الهَنات، وكان اهْتِمامُها يَتَعدّى ذلك إلى أَدَقِّ التَّفصيلاتِ الفنيَّة، كالغِلاف والرُّسُومات والصُّور ولوحاتِ الخطِّ العربيّ، فَضْلًا عن تَدْبيج الافْتتاحيّاتِ العامرةِ بِمَعانِيْها ومَبانِيْها، السّامِقَةِ بأَفْكارها وأَنْظارِها، وكانت العادةُ الجميلةُ القارَّةُ أَن تُجري هند حِواراتِ الأَعدادِ بنفسها، وتسعى بكُلِّ طاقةٍ إلى تأْمِيْنِ الموادِّ الجَدِيْدةِ التي تسمُو بمَعارجِ المجلَّةِ إلى دَوائرِ المُبْهجِ، الذي يَحِقُّ لنا أَن نُفاخرَ به.

وإِخال أَيُّها السّادةُ الفُضلاءُ، أَنَّ الإِطلالةَ على شَخْصيَّةِ هند أَبو الشَّعر لا تتسنى بِمَعْزلٍ عن التَّبَصُّر في تَجْربتِها في إدارةِ مجلَّة «البَيان»، فَهِيَ في نَظَري التَّجربةُ الأَعْمقُ التي خاضتها ضَيْفتُنا في إدارةِ الفِعْل الثَّقافيِّ المُثمر، وهي التَّجربَةُ الأَثْرى التي يَحْضرُ معها اسمُ هند أَبو الشَّعر، ولا أَحْسَبُ سَيْفَ الوَقْتِ المُسلَّطَ على رِقابنا يُؤذنُ بالغَوصِ عَلى مَفاصِلِ أُخْرى من هذه التَّجربة الرّائدة ومَحطّاتها الغَنِيَّة.

وبعدُ، فلشدَّ ما يُؤسفني أَيُّها الأَعزاءُ أَن أَرْوِي إليكم أَنَّ مجلَّة «البَيان» التي ارتبطتْ بهند أَبو الشَّعر، ومَلَكتْ عليها نفسَها ومشاعرَها واهْتِمامَها، قد تَوارتْ عن الأَنظارِ منذُ سَنَواتٍ قليلة، عندما أَصْدَرَ الزَّمانُ الجائرُ حُكْمَهُ بِمُغادَرةِ هند أَبو الشَّعر الجامِعَة، وشعرنا ـ نحنَ الزُّملاءَ القريبينَ من هند ـ بفراغٍ كبيرٍ جرَّه هذا الرَّحيل؛ إِذ فَقَدتْ كُليَّةُ الآداب ـ أُمُّ الكُلِّيّاتِ في الجامعة ـ عَلَمًا مُؤسِّسًا من أَعلامِها الكِبار، وخَسرتِ الجامعةُ وَجْهًا ثَقافيًّا مُميزًا، وأَمّا مَجَلَّتنا التي يَروقُني أن أَصِفَها بِمَحْبَرَةِ الجامعة، فقد نَكَّست راياتِها، وطوَّحَ العِيُّ بِبَيانها، وضَرَبَ الجَفاف رُواقَهُ على الأَقْلام والشِّفاهِ من جَدِيْد، واضْطَربتْ ذاكِرَةُ اللَّون، وتأَوَّهتْ ذاكِرَةُ الوَرَق، وأَصاب حَراكَ الثَّقافةِ في الجامعةِ ثَلْمٌ مُوْجِع؛ إِذ هدأَتِ الرِّياحُ اللَّيْنَة، ونَضبَ الزَّيت، وانْطفأت ذُبالةُ المِصْباح، ولم تعد شَهَرزادُ تَشْتَهي الكَلام.

تَحِيّةً وافيةً لهند أَبو الشَّعر، مِنْ رِفاقِها في جامعةِ آل البَيْت، ومِنْ كُلِّ شُداةِ العِلْم والثَّقافةِ والمَعْرفَة، تَحِيّةً ما الفراتُ بأَعْذبَ منها وهو أَزرقُ سَلْسال، وشُكرًا لها على ما قَدَّمَتْ حتى لا ينتهي الشُّكر.

الجلسة الرابعة

هند أبو الشعر موثِّقة

هنـد أبـــو الشعـــر موثِّقـة

د . حسين محمد القهواتي *

أولًا: ما التوثيق

التوثيق اسم مشتق من وثّقَ؛ أي ضبط وأحكم وثبّت وربط الشيء كي لا ينفلت ويذهب، وقيل إن التوثيق من الوثاق وهو ما يُشد به من حبل أو قيد[1]، قال تعالى: ﴿... **فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ...﴾[2] والوثيق: المُحكم. ووثقت الشيء توثيقًا فهو مُوّثق، والموثوق هو الشخص الثقة في ما يروي أو يحدث، والمُوِّثق هو محرر العقود والمواثيق والمصادر والمراجع بالطريقة العلمية والشرعية والقانونية، مثل المؤرخ أو غيره من الباحثين في ميدان العلم والمعرفة، أو كاتب الضبط أو كاتب العدل. يستقي هؤلاء، كل حسب اختصاصه، معلوماتهم من الوثائق والمخطوطـــات، والمنحوتات،

* باحث في مكتب الوثائق الهاشمية ـ الجامعة الأردنيـة.

والنقوش، والسجلات الشرعية، والقوانين والأنظمة، ودفاتر الطابو، والنقوش، وعقود الزواج، والشهود، وملفات البلديات، ومحاضر جلسات اللجان، والمسكوكات، وشواهد القبور، وأوراق البردي، وما كُتب على الجلود والعظام، وما ورد في الكتب والصور والتسجيلات الصوتية، وبحوث المجلات العلمية، وفي الصحف والنصوص الإلكترونية وغيرها، بهدف حفظها وإثبات مصادرها، وإرجاعها إلى مظانها الأصلية عند استخدامها في مراجع أخرى، توخيًا للأمانة العلمية، واعترافًا بجهود الآخرين وحقوقهم، وذلك لتجنب السرقات الأدبية والعلمية، ولمعرفة أصالة وقِدم وحداثة المصدر والمراجع.

ويسهم التوثيق العلمي المتقن في زيادة الثقة بنتائج أي دراسة أو مشروع، فضلًا عن تنمية المعرفة، من خلال اختيار المعلومات من الأصوال وتبويبها وعرضها في مراجع أخرى، مع الإشارة الواضحة إلى المؤلفين وعنواين كتبهم، وإلى أجزائها ومكان نشرها وناشريها، وسنوات النشر، والجزء والصفحة المقتبس منهما، وقد تجتهد المؤسسات العلمية والجامعات في ترتيب هذه الإشارة لكنها لا تختلف في ضرروة الإتيان الكامل بها.

وأخيرًا، ماذا أفادت الموثقة الدكتور هند أبو الشعر من هذا العلم ومن شروطه، وكيف تعاملت معه في نتاجها التاريخي الثر؟ الجواب: لقد أجادت في البحث وأتقنت في التوثيق، هذا ما سنوضحه في محاور هذه الورقة الآتية.

ثانيًا: تجربة الباحثة الأولى في التوثيق

لقد بدأ المشوار لهند أبو الشعر في التوثيق في رسالتها للماجستير: «حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي»، ومع مشرف قدير وعالم جليل ومؤرخ كبير هو الدكتور عبد العزيز الدوري، رحمه الله، اللذين اتفقا على تقسيم الرسالة إلى خمسة فصول، تناول الفصل الأول مصادر البحث وشمل: الرواة، المصادر، المراجع.

ناقشت الباحثة فيه مصادر الدراسة ذات الأهواء المتعددة، بموضوعية وصبر ودراية، مع مشرف متخصص وصعب، وكانت حكمًا عادلًا أخرجت من بين ثمينها وغثها مادة علمية دقيقة وموضوعية يقبلها العقل والمنطق. وخصصت الفصل الثاني لخطط الكوفة وتركيبها السكاني، والثالث للتشيع في الكوفة حتى حركة المختار، والرابع حركة المختار في الكوفة، والخامس آثار حركة المختار الفكرية، ووُثقت هذه الفصول الخمسة بـ ٢٢١٧ هامشًا، وأخرجت معلوماتها من مصادر أولية أصيلة ومراجع معتمدة عرضت نصوصها بأمانة علمية فائقة، وبعبارات قصيرة وواضحة، وأسلوب شيق ولغة سليمة. وقد كتب مشرفها الدوري في مقدمة كتابها عند طبعه العام ١٩٨٣م: «إن دراسة حركة ثورية كحركة المختار تصطرع في أخبارها الأهواء، تتطلب إحاطة بالروايات، وتدقيقًا لمصادرها، ولميول أصحابها، وتقييمًا ونقدًا لها ليمكن الكتابة عنها بروح علمية وبدقة، وقد بذلت الباحثة جهدًا واضحًا في هذا الاتجاه، في سبيل دراسة جادة وموضوعية».

وتقول هند: «**ولا أنسى أبدًا فضل أستاذي الدكتور عبد العزيز الدوري، فقد علمني المنهج ودربني عليه**».

ثالثًا: صقل تجربتها الأولى وتنويع مصادرها

أما مشوارها الثاني في التوثيق فرافق دراستها للدكتوراه عن «إربد وجوارها»، ناحية بني عبيد ١٨٥٠ – ١٩٢٨م، مع مشرف قدير وعالم جليل آخر له باع طويل في الدراسات التاريخية الحديثة وبخاصة المحلية، ودراية فائقة في التوثيق، هو الأستاذ الدكتور «محمد عدنان» البخيت، مؤسس مركز الوثائق والمخطوطات ودراسات بلاد الشام، ورئيس هيئة تحرير المجلة الأردنية للتاريخ والآثار سنوات طوالًا، التي حصلت في عهد رئاسته ورئاسة

الأستاذة الدكتورة ميسون النهار على تصنيف عالمي متقدم في ميدان البحث والتوثيق العام ٢٠٢٠م، وكانت تجربة الباحثة الموثقة مع هذا المؤرخ المختص الفذ، غنية ومتنوعة ومستمرة، أفادت من توجيهاته السديدة في البحث عن مصادر محلية جديدة، فأفلحت بجهدها وجدها وصبرها وتمرسها في البحث، من الوصول إلى الأصول، فاطلعت على ستة دفاتر طابو، وعلى ثمانية وثلاثين دفترًا من سجلات دائرة الأراضي والتسوية، وعلى ستة عشر سجلًا من سجلات المحاكم الشرعية، وعقود الزواج، وعلى ستة عشر عددًا من السالنامات العثمانية، وعلى مجموعة من الوثائق العثمانية. فضلاً عن المذكرات الشخصية والمقابلات الميدانية، ووثائق وكتب مديرية المكتبات والوثائق الوطنية، وعلى اثنين وعشرين من كتب الرحلات، وعلى بحوث الدوريات الحديثة، وعلى مواد سبع صحف معاصرة لحقبة دراستها هي البشير، والجنان، وسوريا الشام، وفلسطين، والعاصمة، والكرمل، والشرق العربي، فاطلعت وأفادت من مواد مائتين وتسعين عددًا منها.

وقد أجادت الموثقة هند أبو الشعر في مشوارها الثاني هذا، في قراءة هذا العدد الضخم المتنوع الجديد من الوثائق والسجلات والمصادر الأولية، وبحوث المجلات الحديثة، ومقالات الصحف وأخبارها، فأبدعت في غربلة معلوماتها، بدراية وجد وصبر ومنهج قويم، واختارت منها أحسنها وأصلحها، ونسبتها إلى مظانها وأصحابها بدقة وأمانة، وفق قواعد البحث العلمي ومنهج التوثيق، وبذلك استحقت بجدارة لقب المؤرخة الثبت، والموثقة المعتمدة.

رابعًا: استمرار التجربة وتطويرها مع الوثائق الهاشمية

بدأت محاولة نشر الوثائق الهاشمية، أوراق الملك عبد الله بن الحسين «الملك المؤسس» العام ١٩٩٣م، عندما بادر الدكتور «محمد عدنان» البخيت، رئيس جامعة آل البيت يومذاك،

إلى أخذ الإذن من الديوان الملكي العامر للاطلاع عليها وتصنيفها، فحظيت مبادرته بموافقة مشفوعةٍ بالدعم والتشجيع من لدن المغفور له بإذن الله، صاحب الجلالة الهاشمية، الملك الحسين بن طلال المعظم، الذي تكرم فأذن بإخراج النصوص إلى النور، وأصدر أمره الشريف بتقديم التسهيلات اللازمة لإنجاح مهمة الدكتور «محمد عدنان» البخيت، في الإشراف العام على مشروع نشر النصوص.

ومن الجدير ذكره، أن المشرف على مشروع جمع وتبويب ونشر الوثائق الهاشمية، شرع فور تسلمه الموافقة على العمل، وساعدته في مهمة توفير الأوراق، ندى نصري مقحار، فجمع وصنّف وأصدر المجلد الأول من الوثائق بعنوان «الاستقلال» العام ١٩٩٣م، وأردفه بالمجلد الثاني بعنوان «صندوق الأمة» مطلع العام ١٩٩٤م، وبالمجلد الثالث بعنوان «سوريا الكبرى» و«الاتحاد العربي» في العام نفسه (١٩٩٤م)، وأشرك في هذا المجلد المهم محمد يونس مرزوق مع ندى نصري، في تهيئة الوثائق وفرزها، وكتب في مقدمته: «إن المعلومات الوثائقية الواردة في هذا المجلد لها دلالات ومؤشرات على فكر الملك المؤسس عبد الله الأول، وعلى أسلوبه ومنهجه السياسي كرجل دولة، وصاحب مشروع يمثل الطموح بقيام سوريا الكبرى موحدة، على أن يكون هذا المشروع مقدمة لمشروع الأمة العربية الواحدة، كما طرحه الهاشميون عندما قادوا الثورة العربية».

واستمر العمل في مشروع نشر الوثائق الهاشمية على قدم وساق، فصدر المجلد الرابع بعنوان الجامعة العربية العام ١٩٩٤م، وقد شاركت الدكتورة هند أبو الشعر لأول مرة في مهمة الإعداد والنشر لهذا المجلد، إلى جانب رندة نصري مقحار، ومحمد يونس، وكتبت هيئة الإشراف والإعداد في صدر الصفحة الرابعة الشكر والتقدير للفريق الذي ساعد في قراءة هذا الجزء وتصحيحه، الدكتور نوفان رجا الحمود، والسيدة رغدة أبو نوار، لطباعتها المادة.

وكتب المشرف على العمل في مقدمة المجلد: «وقد قسمنا المادة فيه إلى ثلاثة فصول، تناول الأول منها الاجتماعات والقرارات والمراسلات الخاصة بمشروع الجامعة العربية، ودور الأردن الفعّال في هذه المرحلة، أما الفصل الثاني فركز على موضوع موقف الجامعة العربية من وحدة الضفتين، في حين اهتم الفصل الثالث برصد موضوع التمثيل الأردني في جامعة الدول العربية وهو جانب إداري بحت» .

كما وردت ملاحظة مهمة في صدر الصفحة الثامنة لأول مرة، تُـرصد لصالح دقة هند وموضوعيتها وأمانتها هي: «نرجو أن نبين إلى القارئ الكريم، أن وثائق جلالة الملك عبد الله بن الحسين رحمه الله، مجمّعة في عدد كبير من الملفات مع فهرسة أولية لها، لذا يجد القارئ الإشارة إلى رقم الوثيقة ورقم الملف والتاريخ، أما الوثائق التي لا تحمل تاريخًا فقد أشرنا إليها (د. ت) أي دون تاريخ».

واستمر العمل الدؤوب في نشر الوثائق الهاشمية، فصدر المجلد الخامس بعنوان: «فلسطين»، العام ١٩٩٥م، بإعداد من الدكتورة هند أبو الشعر، والدكتور نوفان رجا السوارية، والمجلد السادس بعنوان: «الإدارة الأردنية في فلسطين»، في العام نفسه، ولجنة الإعداد نفسها، والمجلد السابع بعنوان: «الحسين بن علي والبيعة بالخلافة» العام ١٩٩٦م، وبإعداد اللجنة نفسها.

وفي القسم الأول من المجلد الثامن الصادر العام ١٩٩٦م، بعنوان: «الخط الحديدي الحجازي»، أضيف إلى لجنة الإعداد والنشر بكر خازر المجالي، واستمرت لجنة الإعداد هذه المكونة من هند أبو الشعر، ونوفان رجا السوارية، وبكر خازر المجالي، في إعداد وإصدار المجلد التاسع بعنوان: «العلاقات الأردنية العراقية» العام ١٩٩٧م، والعاشر بقسميه الأول والثاني بعنوان: «العلاقات الأردنية السعودية» العام ١٩٩٧م، والحادي عشر بعنوان:

«وحدة الضفتين»، العام ١٩٩٨م، والثاني عشر بقسميه الأول والثاني بعنوان: «العلاقات الأردنية المصرية»، العام ١٩٩٨م، والثالث عشر بقسميه الأول والثاني بعنوان: «خط حيفا ـ بغداد»، العام ١٩٩٩م، والرابع عشر بقسميه: «خط التابلاين» العام ٢٠٠٠م، والخامس عشر بعنوان: «العلاقات الأردنية السورية» العام ٢٠٠١م، والسادس عشر ـ القسم الأول، بعنوان: العشائر الأردنية، العام ٢٠٠١م، والقسم الثاني بعنوان: محاضر وجلسات لجنة الإشراف على البدو، العام ٢٠٠٢م، والقسم الثالث: محاضر وجلسات لجنة الإشراف على البدو، العام ٢٠٠٣م، وصدر المجلد السابع عشر «قضاة العشائر في الأردن»، العام ٢٠١٤م.

وبدءًا من المجلد الثامن عشر المعنون: «القناصل في إمارة شرقي الأردن»، الصادر العام ٢٠١٤م، تولت الدكتورة هند أبو الشعر وحدها مسؤولية الإعداد والتبويب والفهرسة، وبمتابعة وتنسيق من باسل غازي الجغامين، بإشراف الدكتور «محمد عدنان» البخيت، وبمقدمة تعريفية مهمة من فريق العمل، واستمر إسهام الدكتورة هند المميز في إعداد وفهرسة ونشر مجلدات الوثائق الهاشمية اللاحقة.

المجلد التاسع عشر بعنوان: العلاقات الأردنية ـ العربية والإسلامية، العام ٢٠١٦م[٣]، والمجلد العشرون بعنوان: دليل المعاهدات والاتفاقات الدولية التي صادقت عليها إمارة شرقي الأردن، العام ٢٠١٥م.

والمجلد الحادي والعشرون بعنوان: العلاقات الأردنية ـ اللبنانية، العام ٢٠١٧م.

والمجلد الثاني والعشرون بعنوان: العلاقات الأردنية ـ الإيرانية، العام ٢٠١٧م.

والمجلد الثالث والعشرون بعنوان: الطب والأطباء في عهدي الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠١٨م.

والمجلد الرابع والعشرون، العلاقات الأردنية ـ اليمنية، ٢٠١٨م.

والمجلد الخامس والعشرون ـ القسم الأول: الموازنات العمومية في عهد إمارة شرقي الأردن ٢٠١٨م، والقسم الثاني ـ الموازنات العمومية في عهدي إمارة شرقي الأردن والمملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠١٩م.

والمجلد السادس والعشرون، الأمطار والآبار الارتوازية في إمارة شرق الأردن، ٢٠١٩م.

المجلد السابع والعشرون، موظفو دائرة النافعة، ١٤٤٠-١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م.

والمجلد الثامن والعشرون، الحكام الإداريون في عهدي الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠١٩م.

والمجلد التاسع والعشرون، الأوقاف الإسلامية في عهدي الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٢٠م.

والمجلد الثلاثون، المصرف الزراعي في عهدي الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٢٠م.

والمجلد الحادي والثلاثون، الملف الزراعي في عهدي الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٢١م.

والمجلد الثاني والثلاثون ـ القسم الأول، بعنوان: دائرة الأراضي والمساحة، العام ٢٠٢١م.

والجهد مستمر في إصدار مجلدات أخرى وبعناوين جديدة.

وأخيرًا، إن جهد الدكتورة هند في جمع وتصنيف وإعداد الأوراق الهاشمية للنشر متميز ودقيق وأمين وكبير ومستمر، يوفر للباحثين في تاريخ الأردن مصادر وثائقية جديدة ومهمة.

خامسًا: اهتمامها بالصحافة ودعوتها للإفادة من معلوماتها في إعادة كتابة تاريخ الأردن وبلاد الشام، وإسهامها في طبع ونشر أعداد جريدتي العاصمة والقبلة المهمتين.

١. جريدة العاصمة:

أ. **الوثائق الهاشمية:** «العاصمة، جريدة الحكومة الرسمية»، المجلد الأول ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م، طبع في جامعة آل البيت، ١٩٩٨م.

ب. **الوثائق الهاشمية** «العاصمة، جريدة الحكومة الرسمية»، المجلد الثاني ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م. جمع وإعداد هند أبو الشعر، محمد الأرناؤوط، سلطي شخاترة، إشراف عام من الأستاذ الدكتور «محمد عدنان» البخيت.

جاء في مقدمة هذا المجلد الأول الذي احتوى على الأعداد من ١-٨٨، من جريدة العاصمة الناطقة باسم الحكومة الفيصلية في دمشق، والتي كانت تصدر في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع: «... إن الصحافة ناطق أمين يقدم الصورة الواقعية بكامل تفاصيلها عن نشاط وعمل الحكومة ... وإن هذه الأعداد من صحيفة العاصمة تمثل تجربة الأمة في المشرق العربي في مرحلة انتقالية مليئة بالفكر والحماس والرغبة في إثبات الذات». ويمكن من دراسة خطب الأمير فيصل (المنشورة في أعداد متفرقة من الجريدة) التعرف على فكره الإصلاحي، وعلى فهمه للإدارة.

ونُشر في صدر العدد الأول من الجريدة الصادر يوم الاثنين ١٧ جمادى الأولى ١٣٣٧هـ/ ١٧ شباط ١٩١٩م، خطة الجريدة الهادفة إلى نشر قوانين الحكومة وبلاغاتها ومقرراتها، وأنظمتها، فضلًا عن أخبارها المحلية والعربية والدولية، ونذرت الجريدة نفسها أن تكون صوتًا صادقًا للأمة العربية لنيل استقلالها، وتحقيق آمالها، وقد التزمت في مقالاتها التعبوية

القومية بوعدها إلى آخر عدد صدر لها يوم الاثنين ٦ جمادى الثانية ١٣٣٩هـ/ ١٤ شباط ١٩٢١م.

وهكذا نرى أن الموثقة هند قد وضعت بين أيدي الباحثين مصدرًا مهمًّا لدراسة تاريخ الحقبة الفيصلية في سورية.

٢. جريدة القبلة:

جريدة القبلة الناطقة بلسان الثورة العربية الكبرى في الحجاز، الصادرة في مكة المكرمة يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، خلال السنوات ١٩١٦- ١٩٢٤م.

جمعت الدكتورة هند المادة من ٨٣٣ عددًا من جريدة القبلة، وقرأت محتوياتها بعناية ومنهجية علمية وخبرة صحفية، وتدريب في التوثيق، وأفلحت في التمييز بين أخبارها ومقالاتها، ونشرتها في حلقات أسبوعية في جريدة الرأي الأردنية على مدى عام، ومن ثم طبعتها في كتاب بعنوان: «ذاكرة الثورة العربية الكبرى ونهضة العرب» بإشراف منها ومن الدكتور «محمد عدنان» البخيت، عمان، ٢٠١٨م.

وكتبت لجنة الإشراف في مقدمة الكتاب: «تحتفظ دور المحفوظات العربية والغربية بمادة صحفية غنية ومثيرة .. لم يتم استخدامها مصدرًا لدراسة تاريخ بلدان المشرق العربي كما يجب .. لذا وجدنا أن الحاجة لتوفيرها منشورة ومدروسة من ضرورات استكمال عملنا في تصنيف ونشر سلسلة الوثائق الهاشمية». وذكرت اللجنة أن استخدام الصحافة مصدرًا لدراسة التاريخ يحتاج إلى منهجية عالية ومدربة، وإلى مقدرة فائقة في تتبع الخبر والتمييز بينه وبين المقالة، بخاصة أن جريدة القبلة كانت تضم توثيقًا وافيًا للأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، ومنها توثيق مباشر للأحداث الميدانية الدائرة في الحرب العالمية

الأولى، عن طريق وكالة رويتر، ويمكن من خلالها متابعة الأحداث العسكرية لجيوش الثورة العربية الكبرى، والأحداث على أراضي بلاد الشام والعراق.

وكتبت الدكتورة هند في بيان أهمية الصحافة في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين: «إنها كنز حقيقي لمن يطلع عليها، وهي تمثل خلاصة حية لفكر النهضة والتنوير»، وقالت: «لم يسبق دراسة جريدة القبلة كمصدر تاريخي من قبل، على الرغم من أن العديد من الباحثين الأكاديميين اعتمدوا عليها في دراساتهم، لكن لم نجد دراسة وافية ومتسلسلة لأعدادها كمصدر تاريخي متكامل».

هذا ما فعلته الدكتورة هند في دراستها لجريدة القبلة، بطريقة منهجية وبأسلوب شيق وتوثيق دقيق.

الهوامش

(١) أبو الفضل، جمال الدين، محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، ١٥ج، دار صادر، بيروت، باب الواو/ بتصرف.

(٢) القرآن الكريم، سورة محمد، الآية (٤).

(٣) يجدر بنا الذكر أن الدكتورة هند اطلعت في هذا العام على أوراق وملفات لها علاقة بمشروع سوريا الكبرى الذي نشر عام ١٩٩٤م، في المجلد الثالث، فجمعتها ونسقتها وصدر القسم الثاني، عام ٢٠١٦م بعنوان: سوريا الكبرى، وألحق بالمجلد الثالث الصادر عام ١٩٩٤م.

جهـــــود هنـــــد أبـــو الشعـــــر فـــي التوثيق.. منهج لاستشراف المستقبل

حسين دعسة *

نقف أمام نموذج أكاديمي، علمي، ثقافي مختلف، لكنه ليس أهم ما قدمته الدكتورة هند أبو الشعر، من عشرات المؤلفات والكتب والتحقيقات، بقدر أهمية تلك التجربة الثرية، في تغيير نمط العمل في التوثيق وتحقيق المخطوطات، والتوعية التراثية، والمدونات كالسجلات والصور وحتى السرديات الشفاهية.

في وجودنا مع هند، نحن نبتهج لدعوتها التي أعلم أنها أطلقتها منذ سنوات طويلة.

من يشتغل في علم الوثائق والتوثيق، وتحقيق التراث، يتأمل كيف تصل شخصية علمية وثقافية إلى حد الدعوة إلى منهجية جديدة في كتابة التاريخ، وتزيد، بكل ثقة، أننا في الأردن، نحتاج مثـــل هذه

* كاتـب وإعلامي وفنان تشكيلي أردني.

المنهجية، وذلك أحق احتفاءً ونحن نحاول النظر في تاريخ الدولة الأردنية، في مسارات المئوية الثانية.

بين عام ومائة عام، وصولًا إلى ذروة القوة والتنمية، هناك في الوسط، لحظة تأمل وارتكاز، ومفاصل تاريخية حضارية، وأكاد أجزم، أن الدكتورة هند أبو الشعر، في مسيرتها الأدبية والأكاديمية والعالمية، والإعلامية، رصدت حاجة الأردن إلى ما يشبه الحماية للموروث الواسع من الصور والمدونات والرسائل والمخطوطات، التي كانت وثائق «منفلتة»، يحتار بها الناس، فما الحل؟ وما هو شكل الحماية، التي صرخت من أجلها د. هند أبو الشعر؟

وهنا أستعيد ما كتبته د. هند العام ١٩٩٠، ضمن مقالاتها، فثمة مقالة في جريدة الرأي عنوانها (الفضائيات سحبت البساط من تحت أقدام المؤرخين)، التي أثارت استهجان المشتغلين بتدريس ودراسة التاريخ آنذاك، واعتبروا أن ما كتبته يمثل حالة من الكتابة الصحفية لجذب القراء، «وتبين لي ـ تقول د. أبو الشعر ـ أن التجديد أو الدعوة له، في كتابة التاريخ حقل ألغام لا يمكن العبور من خلاله إلا بخسائر حقيقية».

كان ثمة إصرار من الباحثة، وعين الإعلامية، وحساسية كاتبة القصة، ومن يدها التي تحمل الريشة، والأخرى التي تنبش في معنى أن تكون موثقًا، أو محقق تراث أو ثقافة، أو دارس مخطوطات.

لهذا؛ قالت في دعوتها: «والآن، وبعد مرور ثلاثين عامًا على هذا الطرح المتقدم، أجدني أجدّد الدعوة، وبقوة، نحو التجديد بلا تأخير في كتابة التاريخ في الأردن، وأدعو للعبور إلى المستقبل مع دخولنا المئوية الثانية من عمر الدولة الأردنية».

الموثقة تعلم، وقد عملت وأنجزت، وكانت تتابع مونتاج الصفحات واختيار الصور والشروحات؛ لتنير كوة يدخل منها النور الإلهي. لهذا، لم تمل من دعوتنا، إلى وضع محددات

تساهم، عند تجربة توثيق هذه التجربة وتقييمها، بما في ذلك عشرات الجهود والمحاولات، في إنارة درب التوثيق الحقيقي. كل ذلك بالنسبة لجهود د. هند أبو الشعر، وقفة ضرورية، تقصدها بهدف يسمو بكل المنجز، لوضع «الرؤية المستقبلية التي يجب علينا أن نرسخها ونعمل على تطويرها، في كتابة تاريخ الأردن»، عمومًا، وفي الدلالات الخاصة والأهلية، والأدوار الأكاديمية، خصوصًا.

* في قمة التجربة، خاضت الباحثة في عمل مضن، قوامه استمرار واختلاف في المعطيات، التي كثيرًا ما أعادت د. هند إلى المربع الأساس لعمل أي باحث موثِّق، بل وأعادتها إلى دراسة تقييم (كتابة تاريخ المئوية الأولى)، تلك المحاولة التي تعد أول جهد عربي في فهم عمل «التوثيق»، وصولًا إلى حفظ أي جهد بشري في هذا المجال، وحمايته وترميمه، فمرت بتجارب متعددة، وذكية، جعلتها تتوقف، وهي في قمة عملها وقدراتها الأكاديمية في التوثيق؛ لتقول: «علي أن أتوقف عند المفاصل الآتية:

أولًا: علينا أن نكتب للجيل القادم بمنهجية يتقبلها ويفهمها؛ لأننا نكتب للمستقبل، ولا يجوز لنا أن نستمر في الكتابة بلغة القرن التاسع عشر أو العشرين، ذلك أن غالبية الذين يكتبون تاريخ الأردن اليوم تتلمذوا على أيدي أساتذة من أبناء النصف الثاني من القرن العشرين، وتعلموا منهم المنهج الذي دربهم عليه أساتذة ولدوا في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، ولا يعقل أن نكتب للجيل القادم بلغة ما قبل العولمة والثورة الرقمية، وهو جيل يتعامل مع عالم افتراضي، ولا يمكنه أن يتواصل مع فكر وطرح ما قبل الثورة الرقمية، ولا يمكن لنا أن نستمر في الكتابة لأنفسنا، ومن دون رؤية مستقبلية.»

* في هذا العمل، نصل إلى حوار عن جدوى عمل الموثق، كمؤشر على قوة التنمية المستدامة، ثقافيًّا، وأكاديميًّا، وأثر ذلك على الأجيال.

وأما ثانيًا، فتنظر د. هند إلى فلسفة المنطق، سعيًا إلى ارتباط وثيق بين العالم الموثق، واجتراح منهج أو دليل، أو تدريب ما، فهي تصر على: أن هذه الرؤية «تجعلنا نُطوّر المنهج، ونفكر بعقلية القادم، ونستوعب بالتالي التطورات التقنية التي فرضت نفسها على الأجيال كافة، فلا نقبل أن يبقى المؤرخ خارج إطار التقنيات، ليكتب بلغة ما قبل الثورة التقنية، وهذا يتطلب إتقانه كل ما هو جديد وتطويعه لإثراء تجربته، وهذا تحدٍ كبير للجيل الذي كتب في أواخر القرن العشرين قبل تفجر عالم المعرفة، وانتشار الانترنت، ودخولها في كل تفاصيل حياتنا، ولا بد لنا من الاعتراف أن الهواتف الخلوية حلت محل الصحفي، ونقلت بالصوت والصورة الأحداث وبثتها في مشارق الأرض ومغاربها، ولم يعد انتظار أخبار الصحيفة الورقية مسألة مقبولة تؤرقنا، بل أصبح كل من يحمل هاتفًا ذكيًّا مصدر معلومة مباشرة بالصوت والصورة، فكيف نتعامل مع هذا الواقع الذي قلب الدنيا رأسا على عقب..؟ وأين هو عالم الرواة وشهود العيان من سطوة الكاميرات الرقمية الذكية وسرعة البث على الانترنت..؟ وأين هي المعايير التي نعرفها؟ وكيف نتعامل مع هذا الواقع الجديد بكل مقاييسه..؟»

* هذه أسئلة صاحبة التجربة..، وهي التي تتوافق، في مقولاتها/ تجاربها العملية، بلغة تعلي شأن أي صلة، مع أثر (فهم الاقتصاد المعرفي والحوار العلمي، بكونك موثقًا)، وبالتالي:

ثالثًا: «لا يمكن القبول باستمرار كتابة التاريخ الاقتصادي، مثلًا، بعيدًا عن الإحصاءات والأرقام والأشكال البيانية والجداول. إن دراسة اقتصاد الأردن، في أواخر العهد العثماني، وإطلاق الأحكام التقليدية عن حجم الظلم والضرائب الفادحة التي فرضتها الدولة العثمانية على أهالي بلاد الشام، ومنهم أهالي شرق الأردن، غير مقبول أبدًا من دون العودة إلى دفاتر المالية، وحجم الضرائب، ومقدارها بالرقم، وتحليل هذه الأرقام لكتابة الواقع الاقتصادي بدقة مقنعة، وهذا هو الخطاب المباشر والسليم لكتابة تاريخ هذه الحقبة بلغة الجيل القادم،

الذي لا يمكنه أن يقبل إطلاق أحكام عامة تؤكد أن الدولة العثمانية فرضت ضرائب فادحة وأرهقت الفلاحين والتجار، الرقم هو الفيصل. وأذكر أنني عام ١٩٩٨ م نشرت بحثًا في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقضاء عجلون من ١٩٢٨ م ـ ١٩٣٨ م، استنادًا إلى عقود الزواج، ونشرته في مجلة المنارة الصادرة في جامعة آل البيت، واعتمدت فيه على الإحصاء، والجدولة، والأشكال البيانية، بتحليل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية من خلال عقود الزواج، فأثار هذا استياء الزملاء واعتراضهم، لكنني أدخلت هذه المنهجية في رسائل الطلبة الذين أشرفت عليهم، وهو ما أصبح اليوم حالة مطلوبة، كما أنني استخدمت الصحافة منذ عام ١٨٧٦ م مصدرًا للدراسة، مما أثار غضب أحد أساتذة التاريخ التقليديين، الذي قال لي: بعد روايات الطبري في دراستك للماجستير مع الأستاذ الكبير عبد العزيز الدوري، تجعلين الصحافة مصدرًا..؟ وكانت دراستي التي اعترض عليها تدرس تأسيس الدولة الفيصلية في دمشق من خلال الصحيفة الرسمية للدولة وهي «العاصمة»، التي قمنا بنشرها في جامعة آل البيت، وأصبحت الآن مصدرًا رئيسًا لدراسة المملكة السورية في دمشق.»

* تخط الموثقة دراية التجربة، بدلالة الأثر، سواء ما طرح في المكتبات أو حفظ في المراجع، أو ما شكل رسالة؛ لتنطلق الموثقة، بروح تجمع بين التجربة، ومعطيات جديدة فرضتها النتائج، إلى جانب هذا الواقع الرقمي، فتؤكد، بل تستصرخ:

رابعًا: «البحث عن مصادر جديدة لإعادة كتابة تاريخ المئوية الماضية مسألة أساسية؛ لأن ما كُتب في تاريخ الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية، استخدمت فيه مصادر محددة، ونحن مع الدعوة لإعادة كتابة هذه المرحلة التأسيسية في حياة الوطن، ولكن مع التجديد بالبحث عن مصادر جديدة وتحليلها، لتقديم فهم جديد لهذه التجربة الجمعية التي نتشارك جميعًا بها، على أن يتم تطوير الأدوات وتحديث التقنيات، لتتناسب مع خطابنا للجيل القادم.»

*.. أيضًا، تضعنا جهود التجربة، بكل مدوناتها أمَام أمانة تحدي فهم عديد القضايا البحثية ـ بكل مرارة التجارب ـ فتطرق جدار الخزان، لدعوة جادة، إلى نبش مختلف في كل ما نمتلك:

خامسًا: «ما زالت المصادر المحلية غير مدروسة، فإن سجلات ملكية الأرض والطابو والتسوية لم تدرس مرحلة الإمارة، ولا مرحلة المملكة الأردنية الهاشمية، مع أن هذا المصدر هو مفتاح كل الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، فإذا لم تفتح هذه السجلات للبحث الجاد والتحليلي، فإن كل ما يكتب في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية يظل حالة هامشية وبعيدًا عن الدقة، وهذا المصدر يحتاج إلى باحث جاد ورصين، ولديه القدرة على التحمل. ومن تجربتي باستخدام سجلات الطابو العثمانية، أجد أن من الضرورة بمكان استمرارية دراسة ملكية الأرض وعلاقتها بالزراعة، وبالطبقات الاجتماعية في عهد الإمارة، خاصة وأن ملكية الأرض شهدت تجربة (تسوية الأراضي) التي غيرت من حالة المشاع التي كانت تحدّ من استخدام الأرض وتطوير استثمارها، ومع الأسف، فإن سجلات التسوية ما زالت محفوظة في دائرة الأراضي بلا تصنيف، وقد مرّ عليها أكثر من ثمانين عامًا دون أن تتم دراستها بالمنهجية المطلوبة، وأعتبر أن التوجه لدراسة هذا المصدر سيُحدث ثورة حقيقية في كتابة تاريخ الأردن ما بعد عام ١٩٣٥ م وحتى اليوم، شريطة أن يتمّ استخدام الإحصاءات وتطويع الأرقام والأشكال البيانية للمنهجية الجديدة في كتابة هذا المحور المفصلي في حياتنا.»

* وعلى ذلك، نكتشف، أو من الواجب العلمي، أن نقف لتكريم وحماية قامات علمية (وثقت)، ومارست دورها الإنساني في الاندماج، مع واقع حضاري، يفتح الأبواب أمامنا:

سادسًا: «إن الجهود الفردية هي الغالبة على التأريخ للأردن، وغالبية ما يكتب يندرج تحت دراسات لنيل درجات الماجستير والدكتوراه، وهذا حسن، لكنه لا يمثل خطًّا متصلًا، فإن غالبية الباحثين يعملون للحصول على الدرجة العلمية ولا يحفرون في مسارهم بعمق،

وغالبًا يكون هّم الترقية ونشر الأبحاث المُحكّمة في مجلات غير متداولة بصورة شعبية هو الهاجس الذي يحرك فئة الباحثين، الذين تبذل الجامعات جهودًا أكاديمية لتأهيلهم للحصول على المنهجية المطلوبة التي تؤهلهم للكتابة في التاريخ، وهذا التوجه في الكتابة يستحق التقييم لتطويره.»

*.. كموثقة، عانت علميًّا وأكاديميًّا، وصحيًّا، فواجهت «الموثقة» صعوبات العمل مقترنة بمؤسسة ما، ونحن نفتقد، لوجود(كيان مؤسسي جامع).. وعليه:

سابعًا: «لا بد من وجود توجه مؤسسي لوضع خط متصل للتأريخ للأردن، ومع أن لدينا مؤسسات أكاديمية وبحثية، لكنها مثل الجزر المعزولة، ولا توجد استراتيجية مشتركة ووطنية لرسم مثل هذا التوجه وتنفيذه، وهذا يحتاج لقرار على مستوى فعال، علمًا أن بعض المؤسسات تبنت خطة ونشرت مجموعة من الكتب في التأريخ للأردن، مثل مؤسسة آل البيت، ضمن المشروع الكبير للجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن.»

* في مسيرة طويلة واندماج مع الشأن الثقافي، والإعلام، والتوثيق، والعمل الجامعي، عاينت د. هند، طبيعة مختلفة، من العلاقة بين (العالم الموثق والمؤسسة)، وكانت التجارب متباينة، لا ناظم لها:

ثامنًا: «مع أنني مع هذا التوجه لتفعيل دور المؤسسات الأكاديمية والبحثية، لكن المشكلة الدائمة في مثل هذا العمل المؤسسي ارتباط المؤسسات بالأشخاص، وهذا هو عيب العمل الإداري في الوطن في نصف القرن المنصرم، إن المؤسسات لا تعمل بروح المؤسسة، بل بسلطة المدير الذي تنتهي بمدة إدارته خطط المؤسسات، وغالبًا لا يقوم المدير بتدريب مَن يخلفه من الصف الثاني، وهذه المشكلة عيب كبير في كل العمل المؤسسي، ولا نستثني المؤسسات البحثية والأكاديمية.»

* موثقة، مس روحها حبر وكوبيا وتربة الورق، وعالم أسرار السجلات، فوقفت، لتتبرج، وتتجمل، أمام حقيقة تواجهنا، بل تشل رغبة أي موثق:

تاسعًا: «مراكز التوثيق لدينا محدودة جدًّا، واعتمدت على جهود فردية، ولا توجد لها خطط مستقبلية، والأساس أن تكون مراكز متطورة ومنفتحة على المتغيرات الجديدة، ففي الوقت الذي يتم تحديد كيفية الإفادة واستخدام الوثائق والسجلات من قبل الإدارات، يجد الباحث اليوم أنها متاحة على الشبكة العنكبوتية، وبلا مقابل، فعند بحثي عن السالنامات الناقصة لدي، وفرحتي بالحصول عليها من خلال زيارتي للأرشيف العثماني، فوجئت بأنها متاحة، بلا مقابل وبلا سفر، في جامعة ميغيل بكندا على موقعها.. وأما المكتبة الوطنية فتحتاج لرؤية جديدة وتطور تكنولوجي متقدم؛ لتكون في الموقع المتقدم في التوثيق والحفظ لمنجزاتنا وتراثنا.»

* لله درك، فقد توجت تجربة عقود، ونظر، وقلب، لتنيري واقعنا، بكل تجلياته المشتتة، الذي ما زال يحتاج، بتجربة منتجة، إلى كيفية النظر إلى المستقبل:

عاشرًا: «إن واقع أقسام التاريخ في جامعاتنا الحكومية يحتاج إلى تثوير، وذلك للأسباب الآتية:

أ. الطالب المقبول في القسم هو من ذوي المعدلات المنخفضة عادة، وهذه خطيئة ترتكبها الجهات العليا بتصنيف دارس التاريخ ضمن التخصصات الأقل حظًّا، ومن التخصصات الراكدة.

ب. ما زالت الخطط قاصرة عن تقديم تحفيز حقيقي للطالب، وما زالت أساليب التدريس تقليدية وضعيفة، وما زلنا نكرر للطالب أن العرب كانوا في عصر الجاهلية قبل الإسلام، بحيث يتم إلغاء الحضارات التي عرفتها البلاد العربية قبل ظهور

الإسلام، علمًا بأن عرب الجنوب كانوا تجارًا قبل ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويحتكرون تجارة الشرق الأقصى، وعرب الشمال كانوا تجارًا تصل تجارة مكة إلى الحبشة عن طريق مراكب وميناء لقريش، وكان الأنباط يصلون بتجارتهم إلى روما، وكان عرب ما قبل الإسلام يعرفون الحضارة الفارسية والحضارة البيزنطية، أما إذا كان المقصود بالجاهلية جهل الدين فهذا غير صحيح؛ لأن القبائل العربية كانت مسيحية، وكانت اليهودية والمسيحية معروفتين في شبه الجزيرة، وما زلنا نُعلّم طلبة الجامعات أن العرب كانوا يعيشون في حالة جهل قبل الإسلام، ونلغي بذلك عالم الحضارات، ونحول العرب إلى قبائل متنقلة وجاهلة..!

ج. واقع الدراسات العليا غير مقبول، فالموضوعات تتكرر من دون وضع نظرة مستقبلية تخدم الباحث والمؤسسة والوطن معًا، ما زال طلبة الدراسات العليا يختارون مواضيع مكررة، ويضيعون الوقت والجهد والمال، وما زالت الأقسام تقبل الرسائل الضعيفة، وتمنح باسمها الشهادات بالتفوق، بحيث أن ناتج هذه الأقسام رسائل تقليدية ولا جديد فيها، والمؤسف أننا ما زلنا نقبل الرسائل المسروقة أو التي يشتريها الطالب من المكاتب.

د. لا يتم انتقاء الكفاءات المميزة للتدريس، وأصبح الذين يُدرّسون في أقسام التاريخ هم من الدرجة الثانية، بعد أن كانت أقسام التاريخ في الجامعات الأردنية تضم عمالقة الباحثين العرب، ومن الذين يحملون تدريبًا راقيًا في المنهجية من الجامعات الغربية، وهذا الأمر ينعكس الآن على الأقسام، خاصة في جامعات الأطراف، فطلبتها من قرى المحافظة وأساتذتها من المنطقة نفسها، وربما أصبحت العلامات العشائرية هي الرائجة مع الأسف، وهذا هو الواقع بلا تجميل..!!!

هذه المفاصل التي أردت طرحها تقدم الفكرة التي أردت تقديمها قبل تناول تجربتنا في التأريخ للأردن في المئوية الأولى من عمر الدولة.»

التجربة خلال مائة عام:

«١. كان أقدم ما كتب في تاريخ الأردن، ما قدمه الأرشمندريت بولص سلمان في التأريخ للأردن سنة ١٩٢٢م، لكن كتابه غير منشور، وتبعه الزركلي في «عامان في عمان»، إلا أن تجربة الكتابة الجادة في تاريخ الأردن كانت سنة ١٩٣٥ م عندما ألف الكولونيل بيك باشا وهو رجل عسكري، كتاب (تاريخ شرق الأردن وقبائلها)، وقام بتوثيق أصول العشائر على أرض الأردن بحسب الرواية المحلية، ونعتبره أول مَن دوّن الرواية المحلية للسكان على أرض الإمارة.

٢. يمكن اعتبار التأريخ ما قبل نشوء الجامعات والمراكز الأكاديمية، حالة فردية، وكان سليمان الموسى الذي قدم جهودًا كبيرة ومُقدرة دون أن يكون لديه تدريب أكاديمي ومنهجي، حالة خاصة، فقد حفر بالعمق وبشكل متتابع، كما كان لكل من البدوي الملثم، وروكس بن زائد العزيزي، وعيسى الناعوري، دورهم في هذا الخط الذي يمثل الجمع بين الأدب والتأريخ.

٣. نقطة التحول كانت بإنشاء الجامعة الأردنية، وتأسيس قسم التاريخ، وحضور مجموعة مميزة من الأساتذة العرب من المؤرخين المشهود لهم بالتفوق، وتبع ذلك تأسيس الدراسات العليا عام ١٩٧٢ م، ومنح درجة الماجستير لطلبة القسم، وفي الوقت نفسه تمّ تأسيس مركز الوثائق والمخطوطات الذي وفر للدارسين فرصة ذهبية بتصوير السجلات والوثائق التي تخص تاريخ بلاد الشام، بما فيها الرسائل الجامعية

من العالم كله، كما تزامن هذا مع عقد أول مؤتمر لتاريخ بلاد الشام الذي يعدّ علامة فارقة في كتابة تاريخ بلاد الشام بعامة، والأردن على وجه الخصوص.

٤. تبع هذه الخطوات التأسيسية، فتح جامعات أردنية جديدة، اليرموك ومؤتة والهاشمية وآل البيت والحسين، وكلها أسهمت في رفد حركة البحث والتأليف في تاريخ الأردن، ونتوقف هنا عند ما يأتي:

أ. ارتبط الاتجاه بالبحث في تاريخ الأردن بدراسة الدكتور يوسف الغوانمة لتاريخ الأردن في العهد المملوكي، ودراسة الدكتور محمد عدنان البخيت لدرجة الماجستير بدراسة مملكة الكرك في العهد المملوكي أيضًا، وذلك في الستينيات من القرن العشرين. وفي حين استمر الدكتور غوانمة بالبحث في تاريخ إربد والحفر في العهد المملوكي، توجه الدكتور البخيت نحو العهد العثماني، وقدم دراسات من خلال السجلات العثمانية لبعض النواحي في لواء عجلون في القرن السادس عشر الميلادي، وكانت أولى الدراسات في تاريخ الإمارة للدكتور علي محافظة، من خلال الوثائق الغربية والجريدة الرسمية عام ١٩٧٢ م، وتبعه الدكتور محمد محافظة بدراسة تاريخ الإمارة، والدكتور محمد الصلاح بدراسة تاريخ الإدارة في أول توجه لدراسات جزئية، وهي خطوات تأسيسية تستحق التقدير.

ب. كانت الخطوة الراسخة بالتوجه نحو دراسة تاريخ الأردن مع التسعينيات من القرن العشرين، بقيام مجموعة من طلبة الدكتوراه في الجامعة الأردنية، بتوجيه من المشرف الدكتور محمد عدنان البخيت، بدراسة قصبات الأردن في العهد العثماني (عمان، السلط، إربد، الكرك، معان، البلقاء، وعجلون) وتميزت هذه الدراسات بالجمع بين المصادر، وفتح سجلات المحاكم الشرعية وسجلات

الطابو والتسوية، وسجلات الكنائس، والمذكرات وكتب الرحلات والمدارس ودفاتر المالية، وهم نوفان الحمود السوارية، وجورج طريف داود، وهند أبو الشعر، وعليان الجالودي، ومحمد سالم الطراونة، وقد نشرت هذه الرسائل وكانت أساسًا لمجموعة لاحقة من الرسائل الجامعية التي حذت حذوها، وكانت أرضية صلبة لمنهجية جديدة في كتابة تاريخ الأردن، وبدأت دراسة تاريخ الأردن تأخذ المنحى الأكاديمي، وأحب هنا أن أنوه بدور المؤسسات في نشر هذه الرسائل، ومنها وزارة الثقافة، والبنك الأهلي، وجامعة آل البيت، كما أن لوزارة الثقافة في مشروعها الرائد (مكتبة الأسرة) الدور الأكبر في تعميم هذه الكتب التي تصل إلى القارئ بأقل الأسعار وأفضل المواصفات الفنية.

ج. من المفاصل الرئيسة في ربع القرن الماضي، نشر وتصنيف وثائق الديوان الملكي، ضمن سلسلة الوثائق الهاشمية التي وصلت اليوم إلى أربعين مجلدًا وثقت لتاريخ الأردن في عهد الملك المؤسس من ١٩٢١ م ـ ١٩٥١ م، وقد بدأ المشروع عام ١٩٩٣ م، وما زال مستمرًا بإشراف الدكتور محمد عدنان البخيت، وإعداد وتصنيف هند أبو الشعر، ويقوم على جمع وتصنيف الوثائق ونشرها في محاور، من دون التدخل في الوثيقة، وهذه خطوة منهجية تقدم فيها الوثائق مصنفة للباحث، وهي حالة فريدة في الوطن العربي، ومن الجدير بالذكر أن هذه الوثائق في الديوان الملكي تمثل أيضًا وثائق الدولة، وهي وثائق رئاسة الوزراء، ووزارة الخارجية، وغيرها من الوزارات؛ لأن أرشيف الديوان الملكي يضم كل المراسلات بين الديوان ومؤسسات الدولة، ما يوفر للباحث فرصة ذهبية لا مثيل لها.

إن هذه المفاصل التي أوردتها هي محطات تستحق الدراسة التفصيلية، ومع أن هناك

بعض الجهود الفردية في دراسات تاريخ الأردن من غير المختصين في دراسة التاريخ، إلا أن بعضها أخذ طابع تلميع العشائر أو الجهات، وهو وإن كان يحمل صفة التوثيق إلا أن الحاجة لتقديم الدراسات الموضوعية والمنهجية والمستقبلية هي الحالة المطلوبة، التي تقوم على دور المؤسسات الأكاديمية والبحثية وهي كثيرة، خدمة للوطن الذي يستحق منا كلنا توظيف جهودنا الفكرية والعلمية، وكلها جهود تصبّ في كتابة تاريخ الوطن وتوثيق جهود الأجيال بمسيرة المئوية التي نعتز بها ونعززها.

هذه دعوة للعبور إلى المستقبل بأمان، لإعادة كتابة تاريخ الأردن مع المئوية الثانية للدولة الأردنية.»

تقول د. هند، هنا، كأنها تضع خططًا للمستقبل: «وواضح أن هذه الدعوة تعتمد على ما يأتي:

١. تثوير واقع المؤرخ وأدواته وثقافته الرقمية.

٢. تحديث منهجيته في التعامل مع المصادر.

٣. اطلاعه على المنجزات العالمية بلغات أجنبية، والإفادة من منهج المؤرخين من كل الجنسيات، خاصة وأن قواعد البيانات من مجلات متخصصة وسجلات وكتب متوفرة في المكتبات الجامعية التي توفر لأعضاء هيئة التدريس سهولة الوصول إلى هذه القواعد، التي تنفق عليها مكتبات الجامعات الرسمية ملايين الدنانير، والتي تصل إلى عضو هيئة التدريس إلى مكتبه على جهازه بكبسة زر، وأذكر بمرارة أنني كنت مديرة لمكتبة الجامعة الأردنية ودار النشر فيها، وكنا عام ٢٠٠٧ م ندفع نصف مليون دينار لشراء قواعد البيانات وتوفيرها لأعضاء هيئة التدريس والطلبة؛ لنجد بأن أعضاء هيئة التدريس في الكليات الإنسانية لا يستخدمونها، في حين أنها تمثل المصدر

الأساسي لأساتذة كليات الطب وطب الأسنان والهندسة والحقوق، لكن وصول الشبكة العنكبوتية إلى كل البيوت تقريبًا تجعل إمكانية الوصول إلى هذه القواعد ممكنة مع الاشتراك.

٤. استخدام الإحصاء وبرامج الأكسيل لاستخدامها في دراسة التاريخ الاقتصادي، وتوظيف الرقم وتحليله ليصبح لغة الخطاب المقنعة في العقد الحالي وما بعده.

٥. تغيير خطط أقسام التاريخ لتطويرها وتحسين لغة الخطاب مع الطالب، وإعداده للمستقبل لئلا يبقى تخصص التاريخ من التخصصات الراكدة.. وهي معلومة مؤسفة تبعد الطلبة عن اختيار هذه المادة الإنسانية التي لا يمكن الاستغناء عنها في التربية الوطنية المطلوبة والسليمة.

وختامًا، فإن على أصحاب القرار دراسة هذه التوجهات وتحليلها وتوظيفها للتعامل مع أقسام التاريخ في المؤسسات التعليمية، وتطبيق قواعد صارمة في منح طلبة الدراسات العليا في التاريخ درجات علمية تعتمد على قص المعلومات ولصقها، أو على شراء الرسائل عن طريق المكاتب التي يعرفها الجميع.. والتعامل، بلا محاباة، مع أعضاء هيئة التدريس الذين لا ينتجون أبحاثًا ويُدرّسون بطريقة الكُتاب، ويستخدمون الدوسيهات لطلبتهم.. فقد آن أوان المكاشفة، لتغيير الفكرة التقليدية عن مادة التاريخ، وتبديل الفكرة البشعة بعدم الثقة بالتاريخ، باعتباره يمثل التاريخ الرسمي والمحاباة.

آن أوان العبور إلى المستقبل، ورفض الجمود والاختفاء بعباءة الماضي. فلنعبر إلى المستقبل آمنين، وأقول أخيرًا: لا جدوى من الإصلاح في أي مجال في الوطن إن لم نصلح منهجنا في التفكير..و من هنا نبدأ..!»

[٢]

في العام ٢٠١٣، تشرين الثاني، نشرت د. هند أبو الشعر، مقالة، جادة، وضعت إشارات على منهاج القارئ، الموثوق، النابش في كل ما يحيط بتاريخنا:

المرأة العربية المبدعة (عنوان صادم، مثير لشهوة القراءة)، وفيه:

«لا أتحدث عن المرأة العربية المبدعة ... بل سأفتح ملفًّا جديدًا ، يرصد إبداعات المرأة العربية في القرن التاسع عشر للميلاد. وهو موضوع كتابي الجديد الذي آمل أن أنتهي منه قريبًا.

مَنْ منا يعرف أن السيدة مريم قرينة نسيم أفندي نوفل، ألفّت كتابًا عام ١٨٧٩ م، يتحدث عن تراجم مشاهير النساء، وسمّته: (معرض الحسناء في تراجم مشاهير النساء)، وقدمته هدية لحرم سموّ إسماعيل باشا خديوي مصر ، ومريم ابنة جبرائيل نصر الله نحاس، المولودة في بيروت عام ١٨٥٦ م. تلقت علومها في المدارس الإنجليزية السورية لمدة ثماني سنوات قضتها في المدرسة الداخلية ثم الخارجية، وتعلمت العربية والإنجليزية والتاريخ والجغرافيا والحساب، وعام ١٨٧٣ أخذت تؤلف كتابها ورتبته على طريقة القواميس الأجنبية، وقد توفيت عام ١٨٨٨ م.

أما مريانا مراش الحلبية فشاعرة مدهشة، وهي شقيقة الشاعر والرحالة الحلبي المعروف فرنسيس مراش الحلبي، وقدمت ديوانها المطبوع عام ١٨٩٣ م، في بيروت، في المطبعة الأدبية، وطبع (بالرخصة من نظارة المعارف الحلبية ٧١٦)، وقصائدها المنشورة فيه تعود إلى سنوات ١٨٨٨ م و ١٨٧٦ م و ١٨٨١ م و ١٨٧٧ م، وأقدمها يعود إلى عام ١٨٧٤ م، ومع أن ديوانها صغير في حجمه، إلا أنه يضم قصائد جميلة، مرتبطة ببعضها، إلى السلطان عبد الحميد في عيد جلوسه، أو إلى والي حلب العثماني، ويتعلق شعرها بمناسبات محلية.

أما ما أدهشني حقاً، فسيرة السيدة أنيسة صيبعه، التي ترجمت قصة (كورين) من الإنجليزية الى العربية، في صحيفة المقتطف عام ١٨٩٥ م، ودخلت مدرسة لندن التي تعلم العلوم الطبية، بعد أن امتحنت في الدروس لتعلم الطب، ونجحت، لكنها اكتشفت أن مدرسة لندن لا تعطي الدبلوما الطبية، فانتقلت إلى (مدرسة إيدينيرج) الجامعة، وتقدمت لامتحانات السنة الأولى الطبية ومعها مئة وثلاثون طالبًا، ففازت عليهم كلهم، وكانت المرأة الوحيدة التي اجتازت الامتحانات بنجاح، وتقديرًا للسيدة أنيسة، أهدى إليها أستاذها الكيماوي المعروف (الأستاذ رمسي) كتابه الذي يتحدث فيه عن عنصر الأرغون الذي اكتشفه حديثًا! وقد قرأت مقالات لأنيسة تشير إلى الوعي والذكاء.

هذه نماذج فقط، في القرن التاسع عشر، عن حالة المرأة العربية. ويكاد لا يخلو عدد من المجلات الأدبية والفكرية الراقية في بيروت والقاهرة، من مشاركة امرأة متنورة وجريئة، كنّ يتلقين تعليمهن في مدارس أجنبية، ويتقن الأجنبية.»

[٣]

* ذاكرة أمة

وضعت الجهود العملية والنظرية، الدكتورة هند أبو الشعر، في مكانة علمية، إلى جانب كبار المحققين والموثقين. وما كتبته وألفته، أو شاركت فيه، في عشرات المؤتمرات الكبرى، لدليل على تاريخ عالمة موثقة، وأديبة فنانة، نظرت بعين الحب والرضا إلى المكان الذي تعيش، وما زالت، تعيش فيه، وجسدت إنجازها ليرتبط بدءًا من المملكة الأردنية الهاشمية، إلى ما فات من حضارة القرن العشرين، التي ذابت في الحضارة الرقمية أو (وسم المستقبل) للقرن الحادي والعشرين. وعملت هند بجد وكد؛ لأن قيمة مضامين عملها ترتقي إلى كبريات الجهود الدالة على تراث البشرية.

رصدت موثقتنا الجميلة، للحالة الاجتماعية من عادات وتقاليد، فشملت، ضمن مشاريعها، كل بقعة في الأردن، وبعثت فينا ماضيًا لتاريخ موثق ومدعم بالوثائق والسجلات، التي أخضعتها لمنطق العلم والدراسة.

[٤]

*** حالة فريدة..**

الموثقة، الباحثة والأكاديميّة الأردنيّة هند أبو الشعر، في أثناء جهودها لتأريخ الأردن، وتحديدًا للفترة العثمانيّة، وضعت كتابًا، يعد أنموذجًا أكاديميًّا لخلاصة التجارب الموثقة، ويتناول الفترة الأخيرة من تاريخ الأردنّ تحت الحكم العثمانيّ، وحمل عنوان «الأردنّ في الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨): سجلّات المحاكم الشرعيّة والمذكّرات المحليّة مصدرًا»، وتقول فيه:

«أردنا تقديم الأحوال الاجتماعيّة والاقتصادية للأهالي، وهو كتاب يمكن تصنيفه بأنه تاريخ اجتماعي وإداري لشرق الأردن تلك الفترة».

ويأتي الكتاب استكمالًا واستمرارًا لمشروع أبو الشعر الذي يتناول تاريخ الأردن في العهد العثماني منذ القرن السادس عشر.

إن الدكتورة أبو الشعر، تثبت إصرار العالم الموثوق، وهي من الباحثين الأصيلين في هذه المرحلة لناحية كثافة ما أصدرتهُ من «تاريخ شرق الأردن في العهد العثماني (١٥١٦ ـ ١٩١٨)»، و«إربد وجوارها (ناحية بني عبيد ١٨٥٠ ـ ١٩٢٨)»، و«سجلات الأراضي في الأردن (١٨٧٦ ـ ١٩٦٠)»، و«الدولة العثمانية ـ بدايات ونهايات» (محررة ومشاركة)، و«دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للأردن في العهدين العثماني وإمارة شرقي الأردن».

تقول هند، في ذلك، تلخيصًا لتجربة حياة: «أما رؤيتي للأردن في العهد العثماني، فلا تنفصل عن الصورة العامة لبلاد الشام، فقد ظلت المنطقة إداريًّا تتبع لدمشق وهي مركز ولاية الشام، وكانت في مطلع الحكم العثماني، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تتبع لنظام التيمار، وهو نظام إقطاعي تُوزع فيه الدولة الأراضي على العسكريين وكبار الإداريين في الدولة بدلًا من الرواتب، مقابل أن يشرف هؤلاء على جمع الضرائب وإدارة الأراضي ضمن قوانين التيمار بدلًا من الدولة، وفي الوقت نفسه التعهد بتأمين الدولة بالمحاربين في حال الحاجة، وقد توزع العسكريون والإداريون أراضي الأردن، وكان بعضها يتبع للسلطان. هذا النظام جعل الأهالي مجرّد فلاحين يعملون في خدمة الإقطاعيين من غير أهل البلاد، وعزَلهم عن العالم، وأضعف نظام التجارة الذي كان نشطًا في العهد المملوكي، (..) ومع القرن الثامن عشر تلاشى عهد الإقطاع وحلّت بدلًا منه سلطة العائلات المحلية التي تقوم بجمع الضرائب وهم (الملتزمون)، وكان التغيير الكبير في العهد العثماني مع مجيء محمد علي باشا إلى سوريا، وطبعًا الأردن جزء منها، حيث غيّر حكم محمد علي باشا المعطيات على الأرض، واضطرت الدولة العثمانية للبدء بالإصلاحات والتحديث فيما عرف بـ(التنظيمات العثمانية) منذ منتصف القرن التاسع عشر، وحتى نهاية الدولة عسكريًّا عام ١٩١٨».

وتزيد: «إن تاريخنا عبر أربعة قرون ارتبط بنمط إدارة الدولة العثمانية، حيث عزلتنا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ضمن نظام إقطاعي جعلنا مجرّد فلاحين لخدمة التيماريين، ولم يساهم القرن الثامن عشر في تحريك الحياة العامة. خلال هذه الفترة لم تكن الدولة مسؤولة عن التعليم أو الصحة، وكان الناس رعايا لا مواطنين. إلّا أن التغيرات التي أحدثها محمد علي باشا غيّرت الكثير، وخاصة فتح المدارس الجهادية وإدخال الكتب، ونظام الانتخابات، ومحاولة تحديث النظام المالي، وكانت مقدمة للتنظيمات العثمانية ولدستور عام

١٨٧٦، ومجلس المبعوثان، وافتتاح المدارس والمحاكم المدنية. وقد أرسى الدستور قوانين التجارة والتعليم والتجنيد والمحاكم، ومع فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ انقلبت حياة الأهالي وانفتح الناس على العالم في التجارة، ودخلت السلع الأوروبية.

إن كل هذه المتغيرات تؤكد على أننا لا نستطيع معرفة تفاصيل تركيبة مجتمعنا بعيدًا عن كل هذا، إنها تؤسس لدراسة تاريخنا الحديث بعد عام ١٩١٨ مع انهيار الدولة العثمانية، ودخول جيش فيصل بن الحسين إلى دمشق وتكوين أول دولة وطنية في بلاد الشام، وأنا مثلًا لا أستطيع فهم مرحلة قيام الحكومة العربية الفيصلية والمملكة السورية، ومن بعد إمارة شرق الأردن، بعيدًا عن الأوضاع السابقة في العهد العثماني.

اتجهت إلى الاعتماد على مذكرات أردنيين عايشوا فترة الحرب العالمية الأولى، وتناولوا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لأهالي شرق الأردن قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى، وعلاقة الأهالي بالدولة العثمانية، والهجرات الداخلية والخارجية في بعض مناطق الأردنّ، وأحوال الحرب من منظور بعض العسكريين المشاركين فيها».

ومن ينظر للجهود الكبيرة، يرَ أن عمل د. هند، يؤسس لاتجاهات في نبش وتوثيق التراث البشري، ولا يمكن القول أنها لجأت إلى السجلات التي اعتمدت عليها في قضاء عجلون فقط؛ بسبب الكمّ الكبير من هذه السجلات في محاكم إربد، والسلط، والكرك، والطفيلة، ومعان، والعقبة. وحصلت أبو الشعر على أسماء الأردنيين المشاركين في الحرب العالمية الأولى من أرشيف المحاكم الشرعية، وتحديدًا «الحجج المرفوعة [في المحاكم] لإثبات وفيات الأزواج من العسكريين، وإقرار النفقة أو الطلاق أو السماح للزوجة بالزواج من جديد بعد مرور أكثر من خمسة عشر عامًا على غياب الزوج في العسكريّة»، لتقدّم أثر مشاركة هؤلاء الرجال على طبيعة الإنتاج في الشمال، والأثر الاجتماعي لغيابهم.

هي دراسات موسّعة، وأول دراسة متسلسلة لتاريخ الأردن عبر أربعة قرون؛ توثق الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية لكل أنحاء الأردن في إطار بلاد الشام، واعتمدت على كل المصادر الممكنة، من سجلات عثمانية، وصحافة، وسالنامات، ودفاتر طابو، ودفاتر مالية، وكتب رحلات، ووثائق غربية وغيرها من المصادر، أي إنه تاريخ موسع، حيث تقول: «ثم إن دراساتي أخذت طابع البحث المعمق في مناطق محددة في قصبات وريف الأردن، بدءًا بدراستي لإربد وجوارها، ثم لقرى الحصن والصريح وحوارة وسما الروسان وغيرها من القرى».

وهند، هي البطلة الراقية، بدلالتها على ألم «خضرة» في مجموعتها القصصية، بمسيرتها التي عمدتها بالصمت، وهي بيننا، ولم نتوقف معها، لنفهم ما تريد، فصراخ قلبها مكتوم.

دعوني أقترح حلًّا لكل الجهود:

هند تدعونا الي عمل مؤسسي يجمع ويحمي، ويضبط إيقاع حرية الموثّق، وهي معي تدعو إلى النظر خارج الصندوق.

هنـــد أبـــو الشعـــر: عين على القصة، عين علـــى الوثيقة.. المؤرخة الأديبة

مفلح العدوان *

مفتتح:

شخصية موسوعية، مبدعة وأكاديمية، متعددة العطاء في الأشكال الأدبية والفنية: قاصة، وشاعرة، وفنانة تشكيلية، وهي صحفية وباحثة ومؤرخة.. كل هذه الحالات تتجسد في الدكتورة هند أبو الشعر، المتصالحة في التعامل مع كل هذه الأجناس الإبداعية والحقول المعرفية؛ لأنها تعيشها بكل روحها وفكرها وقلبها، تعيشها بكامل كيانها، وبوافر نشاطاتها ويومياتها، ذلك أن الفنون عندها تفضي إلى بعض، والعمل الأكاديمي فيه متعة وتجربة، والبحث التاريخي صار عشقًا ومشروع حياة، إذ إن المعرفة تثري من حالة الإبداع، والغوص في مناهج التاريخ وهي تتابع تفاصيله، وتدقـــق

* قاص وروائي، وكاتب مسرح وسيناريو، وصحفي، وباحث.

فيه، تجتهد في تقديمه، بكل أمانة، على الرغم من دقة المراحل التاريخية التي تشتغل عليها، لكنها تبدع في تقديمه بشكل راق وسلس ولافت.

إنها حالة من التعددية في الكتابة تسكن إبداع وعطاء هند أبو الشعر، يمكن توصيفها بأنها مزيج من العقل والروح والوجدان. وفق هذه الكيمياء الكتابية، وبشكل سهل ممتنع، استطاعت هند أبو الشعر أن تقدم المختلف المميز، باجتراحها معادلة دقيقة استطاعت من خلالها أن تبدع في حالة الفصل بين الأكاديمي الإداري، وبين المؤرخ الدقيق، وبين الأديبة الشفافة.

القصة.. وتعدد أشكال الكتابة:

لعل أهم ملامح تجربة الدكتورة هند أبو الشعر الإبداعية، يتمثل في كتابتها القصة القصيرة، إذ بين الأعوام ١٩٨٢ حتى ٢٠٠٦ كان زخم إنتاج القصة القصيرة ونشرها لديها، وهو الفن الدي عُرفت به هند أبو الشعر، وهي تحبه وتعبر عن ذلك دائمًا؛ لفرادة وخصوصية هذا الإبداع، فالقصة القصيرة فن ذكي ومكثف وصعب، ولذلك، على الرغم من صدور أعمالها الكاملة (الشعر، القصة القصيرة، النصوص، المشاهد المسرحية) بمبادرة من البنك الأهلي العام ٢٠٠٦، إلا أنها لم تتوقف عن كتابة القصة، مع انشغالاتها الكثيرة بمشاريعها الكتابية الأخرى، في مجالات الأبحاث والتأريخ والعمل الإداري والصحافة.

لكن كتابة القصة القصيرة، وعشقها هذا الفن الإبداعي، لم يقفا حاجزًا بينها وبين عطائها في ميادين إبداعية وبحثية أخرى، فهي دائمًا لديها الجديد والمختلف الذي تقدمه بشكل لافت ومبدع، وكأنها سَبرت أغوار نفسها الأمارة بالمعرفة والإبداع، ووعت قدراتها المخبوءة في أعماقها، وعرفت ذاتها وإمكاناتها، فوجهت طاقاتها ليكون هذا المنجز متعدد الأشكال، من

دون استلاب لجنس إبداعي دون غيره، أو حقل معرفي على حساب آخر، في سياق التاريخ والتوثيق والإعلام، إنها ترفض عبودية جنس إبداعي واحد، أو نسق رتيب من العطاء، فهي تكتب القصة، لكنها لا تنغلق داخل إطارها على الرغم من عشقها لها، وهي الفنانة التشكيلية، التي يحتل هذا الإبداع جانبًا منها، غير أنها لا تركن له، وقد كانت قبل ذلك ابتدأت بكتابة الشعر الذي انعكس على شعرية تعاطيها مع الكلمة بلغة راقية.

لكن هند أبو الشعر، التي تمتلك أدوات الكتابة والبحث والإبداع، تتجه في مرحلة من عطائها نحو الإعلام والكتابة الصحفية، حين يثيرها موضوع أو تستفزها قضية أو تثيرها شخصية، فتستقصي عنها وتقدمها للصحافة بروح المؤرخة وأدوات الإعلامية الأديبة، وقد استطاعت في هذه المجال أن تقدم كثيرًا من الشخصيات كسبق كشف تاريخي قبل أن يكون خبرًا صحفيًّا، لكن رغم نجاحها في هذا المضمار، إلا أنها لم تأسرها الصحافة، فهي محطة من محطات عطائها.

ولأنها كتبت الشعر مبكرًا، متلمسة من خلاله تلك الدفقات الإنسانية الكونية، فقد تسللت هذه الشعرية إلى لغتها في كتابة القصة والصحافة والتاريخ، هي لغة خاصة بها، طوعت المعلومة الجافة، والبحث الرصين، ليكون أكثر قربًا للمتلقي، هي لغة إبداع لدى هند أبو الشعر قابلة لأن تستوعب، في بوتقتها، كل الأفكار والإبداعات، تستخدمها في الصحافة، فتمزج فيها روح الإبداع مع الخطاب المباشر، وهي تشحن روح الأدبية وجماليات المبدعة مع لغة الأكاديميا، لغة العلم والأرقام؛ إذ تقدم المعلومة التاريخية بلغة نابضة، وخطاب فيه حيوية وحياة. ولعل هند أبو الشعر استطاعت، بخبرتها، أن تشكل لغة خاصة بها عند كتابتها أي جنس ومجال إبداعي أو صحفي أو أكاديمي؛ ليكون ما تقدمه هو كتابة خاصة تحمل بصمة لغة هند أبو الشعر.

أوراق الأجداد وذاكرة الوطن:

يُسَجل للدكتورة هند أنها قدمت للصحافة دراسات تاريخية بلغة ثرية بالمحتوى العلمي المحمول على خطاب ولغة قريبة من الجمهور المستهدف، لغة بعيدة عن مصطلحات المجلات المحكمة التي عادة ما تنشر فيها هذه الدراسات التاريخية، فهي ليست مقالة صحفية عادية، وبالتالي هناك لغة مختلفة اجترحتها الدكتورة هند لمخاطبة شريحة قراء الصحف اليومية.

هذا الخطاب، والتوجه لتقديم التاريخ والوثيقة، من خلال منابر أخرى غير الكتاب، والأبحاث الأكاديمية، كان لهند أبو الشعر السبق في الالتفات إليه، كأنها كانت تستشرف المقبل من الأيام حيث سطوة الصورة، وتغير مزاج المجتمع، والسبق المختلف في شكل التعامل مع المعلومة، وتسارع عجلة الزمن في العصر الحديث، فكان توجهها للصحافة بلغتها ووثائقها، وأبحاثها، وبقراءتها لمزاج المجتمع، وببحثها اللافت لأحوال الناس وذاكرة المكان.

وفق هذه الرؤية، أخذت الدكتورة هند تنشر معرفتها التاريخية في الصحف اليومية، ويمكن في هذا السياق استحضار ما نشرته في الرأي من حلقات متتابعة تحت عنوان (أوراق الأجداد)، بعد البداية التي كانت مع حلقات (ذاكرة الوطن)، وهنا يمكن التوقف، بتقدير، عند ما كتبته من اكتشاف وبحث حول واقع الهجرة الأردنية إلى العالم الجديد في أواخر القرن التاسع عشر، وما كتبته على حلقات في إطار هذا السياق، تحت عنوان (مذكرات مهاجر أردني)، كمثال، حيث قدمت، على حلقات، مذكرات خليل سماوي، وقد نشرت هذه الحلقات لاحقًا في كتاب عنوانه (أردني في المكسيك).

هنا لا بد من الإشارة والإشادة بالبحث والكشف الذي يسجل لها، وأسفر عن استعادة الروائي الأردني عقيل أبو الشعر؛ إذ إنها بذلت جهودًا مضنية للوصول إلى تراث عقيل

أبو الشعر الروائي، من خلال بطاقات بريدية ورسائل وروايات شفوية وكتابات متفرقة، وعملت على البحث في ما توافر لديها من وثائق، ثم قامت بمتابعتها، والإعلان عنها، وترجمتها، ونشرها حول هذا الكاتب الروائي اللافت، الذي كتب بالإسبانية والفرنسية في وقت مبكر من القرن العشرين، بعد أن سافر إلى إيطاليا، والدومينيكان، وفرنسا.

بوح القرى.. ذاكرة مشتركة:

جانب من الكتابة لهذا المقال في هذا المقام التكريمي للدكتورة هند أبو الشعر، ضيف العام في مؤسسة عبد الحميد شومان، كان فيه حديث حول منجز المكرمة وشخصيتها، بما تستحقه، وهي أهل لذلك، وأعتز بكتابته، لكن في جانب آخر، على المستوى الشخصي، يحتم علي أن يكون جزءًا من كتاباتي، شهادة حول الدكتورة هند المبدعة والمؤرخة، بحكم صداقتنا الإبداعية، وتواصلنا على مدار أعوام في سياق الكتابة والبحث، وشراكتنا في لجان ثقافية وبعض المشاريع الإبداعية والبحثية، عدا زمالتنا في رابطة الكتاب الأردنيين.

لقد كانت هند أبو الشعر من أكثر المتحمسين لمشروعي الذي بدأته العام ٢٠٠٥ في جريدة الرأي؛ لتوثيق تاريخ القرى الأردنية تحت عنوان (بوح القرى)، وكنت أستشيرها كثيرًا في تاريخ بعض القرى، خاصة ما يرتبط بالمرحلة العثمانية، وكانت الدكتورة هند، برقي حضورها، تفيض علي بعلمها ومعلوماتها، وهي بحر في مجال التاريخ، خاصة ما يتعلق بالوثائق العثمانية، والتاريخ الاجتماعي للأردن في تلك المرحلة، كما أن تقديمي لتاريخ الوطن وقراه من خلال الصحافة التقى مع مشروعها في توثيق ذاكرة الوطن ووثائق الأجداد، وتقاطعت كتاباتي ولغتي في رواية التاريخ الاجتماعي مع رؤيتها في ضرورة تقديم التاريخ في الصحافة، وبلغة تبسط المعلومة، وتكون قريبة وسلسلة لدى المتلقي.

ثم إنني بعد سنوات من انشغالي بـ(بوح القرى)، عقدت النية على إصدار المجلد الأول من (موسوعة القرية الأردنية/ بوح القرى)، كان هذا في العام ٢٠٠٨م، وقد رحبت الدكتورة هند بالفكرة، ولم تمانع حين عرضت عليها أن تكتب مقدمة لهذا المجلد، حيث أكرمتني بتلبية طلبي، وأفاضت علي بكتابة مقدمة كثفت فيها رؤيتها في موضوع كتابة التاريخ الاجتماعي، وأشادت بمشروعي، لكن ما لفتني في مقدمتها لغتها المبدعة، وملاحظاتها الذكية، وتصريحها ببعض مشاريعها الكتابية، وجانب من أفكار عديدة حول كتابة ذاكرة الوطن.

كانت عتبة مقدمة الدكتورة هند أبو الشعر لـ(بوح القرى)، هو العنوان، الذي جاء كأنه عنوان قصة فيه تكثيف لذاكرة الأرض والإنسان: (رائحة الطابون والبيادر). هنا كسرت الدكتورة هند نمطية المقدمات الأكاديمية وعناوين الدراسات الجامدة. وهي، في مقدمتها، بعد أن تشير إلى تتبعي لتاريخ القرى وتحولات الأمكنة، وتحولاتنا معها، بلغة شفيفة تتماهى مع شفافية البوح، تعرج في كتابتها على مشروعها (ذاكرة الوطن)، فرحة بأن مشاريعنا تلتقي في توثيق ذاكرة الإنسان والمكان في الأردن، وهنا تقول الدكتورة هند: (تابعتك وأنت تتنقل من قرية إلى أخرى، قرأت كل ما نشرته في (الرأي)، وكنت أنتظر أن أراك لأطلب منك أن تجمعها في كتاب، كنت أريد أن أحذرك من الخطأ الذي ارتكبته ذات يوم قبل خمسة أعوام، عندما كتبت لمدة عام ونصف (ذاكرة الوطن) في الرأي العزيزة، ولم أجمعها في كتاب، سبقتني الصديقة (تريز حداد) ونشرت كتابًا يحمل عنوان (ذاكرة الوطن)، فوجئت بالطبع، لكنني هدأت نفسي وقلت: لا بأس، هذه ذاكرة وطن الجميع.. سأختار عنوانًا آخر.. وأنشرها ذات يوم..!).

وهي في الفقرة التالية تصرح بمشروع كتاب لها حول تاريخ القرى، سيصدر بعد أن يكتمل البحث فيه، وقد أشهرته في المقدمة حين قالت: (فرحت عندما جاءني صوتك عبر

الهاتف، ووضعت المخطوطة بين يدي، وطلبت مني أن أكتب لك (فاتحة) هذا المشروع، إذن، سأصارحك الآن بأمر ما، أنا الآن أكتب مشروعًا مماثلًا، نشرت بعضه في (مجلات محكمة) هو دراسة أكاديمية لقرى الأردن، وبعدما تكتمل سلسلة الدراسة سأنشرها باسم: (ريف الأردن في العهد العثماني). إنه مشروع يتلاقى معك، لكنه أكاديمي يتعامل مع ملكية الأرض والضرائب وعلاقة الدولة العثمانية بالفلاحين، مشروعي إذن يتلاقى مع مشروعك، يجمعنا على حب هذا الريف الطيب، القرى التي تحمل جذورنا، وتحوم فيها أرواح أجدادنا وأحلام الآتين..!).

بعد أشهر من كتابتها للمقدمة سيصدر المجلد الأول من (بوح القرى)، وعندما ترى الدكتورة هند أبو الشعر محتويات الكتاب مرة أخرى، لكن هذه المرة مع عشرات الصور التي ترصد زوايا مختلفة من قرانا، التقطتها في أثناء توثيقي لتلك الذاكرة الحية البهيجة، يستيقظ في ذات الدكتورة هند أبو الشعر نبض الفنانة التشكيلية، وقد كانت آنذاك مديرة لمكتبة الجامعة الأردنية، فتبادر باقتراح أن تنظم معرض صور في بهو المكتبة، يضم مجموعة من صور بوح القرى، وهذا ما كان، وافتتح المعرض آنذاك تحت رعاية الدكتور خالد الكركي حين كان رئيسًا للجامعة الأردنية.

الذات المبدعة:

وبعد.. فإن الدكتورة هند أبو الشعر، تشكل حالة لافتة في حضورها في أثناء الحلقات العلمية، واللجان البحثية، وفي إطار العمل الجماعي، هي دائما مبادرة تسعى، بجدية الباحثة وروح المبدعة، إلى تشكيل إضافة نوعية في المكان الذي تحضر فيه، وقد تزاملنا في لجنة توثيق تاريخ الأردن في وزارة الثقافة/ المكتبة الوطنية، وشهدت هذه الروح المبدعة الباحثة الخلاقة، وتلمست من خلال عملها في هذه اللجنة، وزيارتي برفقتها، ومعنا الدكتور محمد خريسات،

للأرشيف العثماني في إستانبول، تلك الجدية في تعاملها مع الوثيقة، وفي مصداقيتها ودقتها وحرصها، معرفيًّا وعلميًّا، عند انشغالها بالبحث التاريخي، والعمل الوطني، ولعل الكتابة هنا تكون مختصرة وغير وافية لما لدى الدكتورة هند أبو الشعر من روح مبدعة، والتزام علمي أكاديمي، وتجديد في التعاطي مع الوثيقة والمعلومة، هي في حرصها على المواءمة بين الإبداع والعلم، كأنها اليقظة دائمًا، عين على القصة والإبداع، وعين أخرى على الوثيقة، والعلم، والتاريخ، إنها كل هذه المسميات، والمعطيات، والذوات المتجسدة في روح مبدعة واحدة هي الدكتورة هند أبو الشعر، الأديبة المؤرخة، فلها كل التقدير والاعتزاز.

هنــــد أبــو الشعـــــــر: موثِّقـــة،

د . جورج طريف *

تعود معرفتي بالدكتورة هند أبو الشعر عندما كنا طلابًا في قسم التاريخ في الجامعة الأردنية، خلال مرحلتي البكالوريوس والماجستير، وشاءت الأقدار أن نكون زملاء دراسة في مرحلة الدكتوراه في الجامعة الأردنية، وأن نتتلمذ على أيدي أساتذة كبار عز نظيرهم، أذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، والأستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبة، رحمهما الله، والأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، والأستاذ الدكتور علي محافظة، أطال الله في عمريهما، وغيرهم من الأساتذة الكبار، ومن ثم أصبحنا زملاء في العمل الأكاديمي والبحث، وإعداد الدراسات، واللجان المشتركة، والمؤتمرات والندوات وورشات العمل، والمحاضرات في مجالات عدة.

---

* محاضر في العديد من الجامعات الأردنية، وإعلامي، وكاتب صحفي.

الدكتورة هند مؤرخة، وموثقة، وشمولية في آن واحد؛ لسببين؛ الأول كونها جمعت بين تخصصين في التاريخ هما التاريخ الإسلامي؛ إذ حصلت على الماجستير في هذا المجال، وكانت رسالتها تحمل عنوان «المختار الثقفي»[١]، تحت إشراف العلامة الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، رحمه الله، والدكتوراة في التاريخ العثماني والحديث، وتحمل عنوان «إربد وجوارها»[٢] تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، أطال الله في عمره. أما السبب الثاني فلكونها غزيرة الإنتاج في هذين المجالين، وتعتمد، في كل دراساتها وإنتاجها العلمي، على المصادر الأساسية في التاريخ الإسلامي، والوثائق في التاريخ العثماني، كسجلات الطابو، والمحاكم الشرعية، والأوقاف، والمالية، والصحف والمجلات التي كانت تصدر في تلك الفترة، ولها ما يزيد على ٥٠ مؤلفًا أو بحثًا أو ورقة عمل أو مشاركة في مؤتمرات وندوات تبحث في تلك المجالات، وشاركت في إصدار ما يزيد على ثلاثة وثلاثين مجلدًا من الوثائق الهاشمية التي ما زالت تصدر حتى الآن[٣].

كما شملت دراساتها وكتبها وأبحاثها معظم مدن وقرى الأردن[٤]، وفلسطين (إربد والسلط وعمان ومادبا والزرقاء والكرك ومعان والمفرق والقدس ونابلس) عدا الدراسات المتعلقة بدمشق وبغداد والبصرة ومناطق أخرى من بلاد الشام[٥].

كرست الدكتورة هند حياتها وشبابها المتجدد للفعل الثقافي والعمل الأكاديمي، وأجزم أن جل وقتها اليومي مكرس لخدمة العلم. تصل الليل بالنهار باحثة عن معلومة هنا، أو فكرة هناك بين الكتب والوثائق التي تحرص على الحصول عليها والاستفادة منها.

ولأنها مؤرخة، فقد ارتبط الماضي عندها بالحاضر والمستقبل؛ لذا نجدها تقتبس من ماضينا كل ما يخدم أجيالنا القادمة، وتستثمر الحاضر بما يبعث على شحذ الهمم والعزائم، متطلعة، ومستشرفة المستقبل بعين ثاقبة، وهي أيضًا، وبكل تواضع واعتزاز وفي كل مناسبة،

تعيد الفضل لأصحابه، بدليل تأكيدها، دائمًا، أن فتح بوابة التاريخ المحلي، ودراسته بأكاديمية رصينة، يعود الفضل فيه إلى الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام؛ لأنه صاحب مدرسة، ولأنه وجّه مجموعة من تلاميذه ـ ونحن منهم ـ نحو مرحلة محددة في التاريخ العربي الحديث (بلاد الشام في العهد العثماني)، ثم إنه فتح باب المصادر المتعددة بتأسيسه مركز الوثائق والمخطوطات، مثلما تؤكد الدكتورة هند أن الأستاذ الدوري علّامة ساهمت كتاباته في رفد المكتبة العربية بنفائس الكتب التي تتحدث عن نشأة علم التاريخ والمنهج العلمي الرصين في البحث العلمي، ووضع الأسس المتينة لدراسة التاريخ الاقتصادي العربي الإسلامي، ولا أظن مؤرخًا على وجه البسيطة ينكر ذلك. لقد سارت الدكتورة هند على نهج هؤلاء الأساتذة، وما زالت تعمل وتبذل ما في وسعها لإنجاز المزيد، وهي بكل صدر رحب تتقبل النقد البناء وتستفيد منه، وتوظفه في أبحاثها ودراستها، وهي أيضًا أداة طيعة لخدمة التاريخ والأدب، ما تعلق منه بالشأن العربي بشكل عام، والأردني بشكل خاص.

منهج الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر في الكتابة التاريخية:

تحرص الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر، في كتابتها التاريخية، على الاستخدام الأمثل للمصادر وبيان أهميتها للقارئ أو الباحث، ومدى استفادتها من توظيف هذه المصادر في البحث العلمي، ولم تكن في إنتاجها العلمي أسيرة فترة معينة، بل كتبت في معظم فترات التاريخ، لها رؤى ثاقبة تجاه الأحداث، لا تكتفي بسردها بل تقوم بتحليلها ومعرفة الأسباب والنتائج. والمتابع لكتاباتها يلحظ بوضوح شخصيتها وقدرتها على التحليل والوصول إلى الحقيقة.

وتبين، مثلًا، أن لسجلات الطابو وخرائط التسوية، بأنواعها المختلفة، قيمة علمية مميزة، فهي مصدر أساسي من المصادر المباشرة والمحلية الشاملة، وتتمتع بمصداقية إيراد المعلومة الدقيقة، وتساعد الباحث في التعرف على جغرافية منطقة الدراسة بدقة وتفصيل، من حيث مصادر المياه من آبار وبرك وينابيع وأودية دائمة الجريان، وسيول وقنوات، وأنواع التربة، سواء أكانت رملية أم صخرية أم زراعية، مثلما تحدد أحواض وحدود للقرى والمدن والمزارع والتضاريس البارزة في المنطقة، من أودية وأنهار وجبال وغيرها .

كما تحدد سجلات الطابو التطورات الاقتصادية في القرى والمدن، من حيث أنواع الأراضي الملك، والميري، والمتروكة، والوقفية، والسليخ، والموات وغيرها، وكذلك الحارات والطرق والأزقة وحدود البيوت والمزارع والبيوت والدكاكين ومساحاتها، وحجم الملكيات وعدد المالكين، وكيفية عملية انتقال الملكية عن طريق التوريث أو البيع والشراء، وأنواع البيع كالبيع الوفائي والرهونات والتوكيل، وأنواع العملة المتداولة وغير ذلك الكثير .

وتقول الدكتورة هند عن هذه السجلات إنه لا يمكن فهم محتويات سجلات الطابو إلا بدراسة إجراءات الطابو، والتعرف على السندات وأنواعها التي تحدد الملكيات الصغيرة والكبيرة، ابتداء من سنة ١٨٧٢، حيث أقرت الدفتر خانة إجراء «اليوقلمة»، التي تعني الكشف الميداني على الأراضي تمهيدًا لتسجيلها على الواقع، كما أن استخدام دفاتر الطابو يتطلب العودة إلى التعريف نامة، التي نشرت العام ١٨٦٠، وهي الدليل الذي يعود إليه مأمور اليوقلمة للتعامل مع الدفاتر وتسجيل البيانات، وبالتالي فهي مفتاح قراءة الدفاتر والتعامل معها، وبغير ذلك تبقى هذه السجلات عصية على الفهم والتحليل.[٦]

وقد عملنا، أنا والدكتورة هند والدكتور نوفان السوارية، رحمه الله، العامين ١٩٩٢ و١٩٩٣ على دراسة هذه السجلات التي شكلت مصدرًا أساسيًّا لدراساتنا المتعلقة بالتاريخ المحلي،

عندما كانت محفوظة في قبو دائرة الأراضي على جبل اللويبدة في عمان، وأكملت عملها الدكتورة هند في دراسة سجلات دائرة أراضي إربد في ذلك الحين، واعتمدت عليها بعد الدكتوراة في تأليف العديد من الكتب والأبحاث والدراسات المتعلقة بتاريخ الأردن من مختلف النواحي.

لم تكن سجلات الأراضي الوحيدة التي اعتمدت عليها الدكتورة هند، فقد اعتمدت، في دراساتها ومؤلفاتها، على دراسة سجلات المحاكم الشرعية لجميع المدن الأردنية والمحفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

وكما تعلمون، فإن سجلات المحاكم الشرعية تشكل مصدرًا أساسيًّا ومهمًّا لدراسة التاريخ الإداري والاجتماعي والاقتصادي والعمراني والفكري والعلمي والصحي لكل مدينة وقرية في بلاد الشام، الأمر الذي يؤدي الى توفير معلومات محلية دقيقة ومباشرة تغطي النقص الذي يعاني منه الباحثون في المادة التي تقدمها كتب التاريخ، حتى يمكننا القول إن أي دراسة لتاريخ أي بقعة من بلاد الشام تبقى ناقصة إذا لم يستفد الباحث من هذه السجلات[٧].

ومن مؤلفات الدكتورة هند التي اعتمدت فيها على سجلات الطابو وسجلات المحاكم الشرعية، كتاب (إربد وجوارها)، و(تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني (١٥١٦م-١٩١٨م))، وكتاب (دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للأردن في العهدين العثماني وإمارة شرقي الأردن)[٨]، إضافة إلى العديد من الأبحاث والدراسات، نذكر منها (مجتمع قصبة السلط (١٨٥٠-١٩٥٠م))[٩]، و(الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمرأة الأردنية أواخر العهد العثماني وعهد إمارة شرقي الأردن (١٨٥٠-١٩٤٦م) السجلات مصدرًا)[١٠].

وأعطت الدكتورة هند اهتمامًا خاص لسجلات قرارات المجالس البلدية، كونها تشكل

مصدرًا رئيسًا للتاريخ المحلي، وبدأ الاهتمام بها متأخرًا، على الرغم من أهميتها في دراسة تطور المجتمع المحلي في مختلف المدن والقرى، وتعطي هذه السجلات صورة واضحة عن الحياة اليومية للسكان من مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والصحية والتعليمية، وتبين بوضوح الأبنية والدور والمحلات والطرق والأسواق والأزقة والأرصفة والآبار والمسالخ والأوزان والمكاييل والدوائر الحكومية والمراكز الصحية والمدارس والمساجد والكنائس والمقابر، وغيرها من المرافق العامة والخاصة، واستفادت الدكتورة هند من هذه السجلات في دراسة السكان، من حيث دياناتهم وطوائفهم وعشائرهم وأعدادهم، وتوزيعهم على الحارات والمناطق ومهنهم المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة وما إلى ذلك.

ومن كتب ودراسات الدكتورة هند التي اعتمدت فيها على السجلات البلدية نذكر: (مادبا (١٩٢٣ ـ ١٩٢٧م) الملامح الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجل مقررات مجلس البلدية)[١١]، و(معان (المظاهر الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجلّ مقررات مجلس البلدية) ١٩٢٩ -١٩٣١م) [١٢]، و(قصبة السلط في مطلع عهد إمارة شرقي الأردن (سجلات البلدية مصدرًا))[١٣].

كما أعطت الدكتورة هند اهتمامًا خاصًّا لسجلات النفوس، نظرًا لأهميتها في دراسة السكان من سائر النواحي، من حيث قبائلهم وطوائفهم وانتماءاتهم، وتوزيعهم على الحارات والمحلات، ومهنهم، ودورهم في تطور وبناء المجتمع المحلي في العصور المختلفة، ولها دراسة منشورة عن سجلات النفوس العثمانية كمصدر تاريخي (سجل نفوس قرية الشوبك نموذجًا) [١٤].

واهتمت كذلك بالسجلات المالية كمصدر تاريخي يحتوي على معلومات اقتصادية قيمة تفيد في فهم الواقع الاقتصادي لحياة السكان، ودور الدولة في الموازنة بين توفير الخدمات

وجمع الواردات والضرائب والرسوم وما إلى ذلك، مثل دراسة ملكية الأرض والضرائب في قرية حوارة في أواخر العهد العثماني، (السجلات المالية مصدراً)[١٥]، ودراسة ملكية الأرض والضرائب في قصبة إربد في أواخر العهد العثماني (سجلات المالية مصدرًا)[١٦]، وقرية الحصن منذ أواخر العهد العثماني وحتى تسوية الأراضي (١٨٩٠م ـ ١٩٣٦م) قراءة اقتصادية واجتماعية استناداً إلى سجلات المالية العثمانية[١٧].

وكان للدكتورة هند أبو الشعر اهتمام بالصحافة كمصدر تاريخي سلطت الأضواء من خلالها على مجريات الأحداث اليومية في المدن والبلدات والقرى الأردنية، مثل (كتاب تاريخ الأردن ـ الصحافة مصدرًا ١٨٧٦ـ١٩٢٣)[١٨]، منشورات البنك الأهلي ٢٠١٥م، ودراستها للأنظمة والقوانين والإجراءات المالية في عهد الحكومة العربية الفيصلية (١٣٣٧هـ / ١٣٣٨هـ ـ أيلول ١٩١٨ ـ تموز ١٩٢٠م) جريدة العاصمة مصدراً[١٩].

ونشرت الدكتورة هند في صحيفة الرأي سلسلة من أعداد مجلة الرائد التي صدرت في الأردن العام ١٩٤٥، وكان رئيس تحريرها أمين أبو الشعر، وسلسلة من أعداد جريدة القبلة التي صدرت العام ١٩١٦ في مكة المكرمة، ومذكرات بعض رجالات الثورة العربية الكبرى. وقبل عدة أيام صدر لها العدد الأول من موسوعة تاريخ الأردن، بمناسبة الاحتفالات بمئوية الدولة الأردنية، كما صدر كتاب آخر بعنوان (القدس العثمانية كما وثقها جورجي حبيب حنانيا خلال الفترة ما بين عامي ١٩٠٨-١٩١٤)،كما تقوم في الوقت ذاته بإعداد دراسات عديدة عن مدينة القدس.

ولا بد، أخيرًا، من ملاحظة؛ إذ إن الأصل في وسائل الإعلام أن تكون منفتحة على باقي العلوم، من خلال توجيه المجتمع وتعريفه بأهميتها في حياتنا العملية، بالإضافة إلى أهداف أخرى لا مجال لذكرها هنا. وقد دخلت الدكتورة هند الإعلام من أوسع أبوابه، فقد أعدت

وقدمت برامج إذاعية، وقد اكتسب برنامجها (أوراق أردنية) شهرة واسعة، وما زالت حلقاته تبث في إذاعاتنا الأردنية، كما شاركت في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، كما أنها كتبت في العديد من الصحف المحلية والعربية في قضايا ثقافية وتاريخية متنوعة.

الدكتورة هند أبو الشعر قامة علمية شمولية ومميزة، وإنجازاتها العلمية كبيرة ومتنوعة، وهي مرجع مهم للدارسين والباحثين والمهتمين. أتمنى لها دوام الصحة والعافية، وأتمنى لها ولكم النجاح والتوفيق.

الهوامش

(١) هند أبو الشعر، **حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة**، منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، ١٩٨٤.

(٢) هند أبو الشعر، **إربد وجوارها (ناحية بني عبيد)**، منشورات عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م.

(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر: **الوثائق الهاشمية، أوراق عبد الله بن الحسين، العلاقات الأردنية المصرية ١٩٤٦-١٩٥٠ م١٢، ق٢، ٢٠١٧، والطب والأطباء في عهدي الإمارة والمملكة الأردنية الهاشمية ١٩٢٥-١٩٥١**، مجلد٢٣، لسنة ٢٠١٨م.

(٤) انظر على سبيل المثال: **تاريخ شرقي الأردن في العهد العثماني (١٥١٦م-١٩١٨م)**، صدر عن منشورات مؤسسة آل البيت (مآب)، ضمن سلسلة اللجنة الملكية لدراسة تاريخ شرقي الأردن، وكتاب **دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للأردن في العهدين العثماني وإمارة شرقي الأردن**، صادر عن الدائرة الثقافية في أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠٧م.

(٥) انظر على سبيل المثال: **الأوقاف الإسلامية والمسيحية في القدس**، هند أبو الشعر، الأبعاد التاريخية، مصادر التوثيق، والتراث المقدسي المهدد، تحرير ومشاركة ببحث، صادر عن منتدى الفكر العربي، عمان، سلسلة القدس في الضمير، عام ٢٠١٤ م، وبيت المقدس في العهد المملوكي المتأخر (قراءة في كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) لقاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين العليمي الحنبلي (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م ـ ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م)، بحث قدم في منتدى الفكر العربي بعمان، بمناسبة الاحتفالية بالقدس عاصمة للثقافة العربية، منشور في مجلة المنتدى، ٢٠١٠م.

صورة العثمانيين في مجتمع دمشق أواخر أيام المماليك (كتب اليوميات مصدراً) بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي المنعقد في جامعة دمشق بعنوان (دمشق في التاريخ)، تشرين الثاني ٢٠٠٦م، ونشر في كتاب صادر عن جامعة دمشق.

(٦) هند أبو الشعر، **سجلات الطابو العثمانية، دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث**، منشورات جامعة آل البيت، ١٩٩٨، ص٢٢٩-٢٣٠.

وانظر أيضًا: هند أبو الشعر، **قراءة في الأوضاع الاقتصادية والعمرانية في لواء عجلون في القرن العاشر**

الهجري/ السادس عشر الميلادي (دفاتر الطابو مصدراً)، بحث مقدم لندوة: الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، جامعة آل البيت، ١٩٩٩م، منشور ضمن كتاب **الدولة العثمانية بدايات ونهايات**، تحرير: هند أبو الشعر، محمد الأرناؤوط، ومحمد الحافظ النقر.

(٧) جورج طريف، **سجلات المحاكم الشرعية مصدر أساسي في التاريخ الحديث ـ دراسة حالة السلط، دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث**، منشورات جامعة آل البيت، عمان ١٩٩٨م. ص١٣٦.

(٨) انظر هامش رقم ٤ ص٢ من هذه الدراسة .

(٩) دراسة قدمت إلى مؤتمر (التاريخ الاجتماعي بمدينة السلط) كانون الأول ٢٠٠٨م، باحتفالية وزارة الثقافة بالسلط مدينة الثقافة لعام ٢٠٠٨م.

(١٠) بحث مقدم إلى المؤتمر الثقافي الخامس، الجامعة الأردنية، آذار ٢٠٠٩م.

(١١) دراسة وتحقيق هند أبو الشعر وعبد الله العساف، من منشورات مادبا مدينة الثقافة، وزارة الثقافة الأردنية، ٢٠١٢ م عمانّ

(١٢) دراسة وتحقيق هند أبو الشعر وعبد الله العساف، نشر بدعم من البنك الأهلي، عمانّ. ٢٠١٣ م

(١٣) بحث منشور في مجلة مؤتة للبحوث والدراسات.

(١٤) بحث منشور في المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمان، ٢٠١٠م

(١٥) بحث منشور في مجلة دراسات، الجامعة الأردنية.

(١٦) بحث منشور في مجلة المنارة، جامعة آل البيت.

(١٧) منشور في مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م

(١٨) منشورات البنك الأهلي، ٢٠١٥م.

(١٩) بحث مقدم إلى ندوة **بناء الدولة العربية الحديثة، تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق**. منشور في كتاب: **بناء الدولة العربية الحديثة**، إعداد وتحرير هند غسان أبو الشعر، منشورات جامعة آل البيت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

قلبها ينبض عشقًا للأردن من رحاب القدس

محمد هاشم غوشة *

يتطلب الحديث عن الدكتورة هند منا أن نقف أمام قامة علمية باسقة، أعمالها بحجم جبال عجلون التي ولدت فيها، والتي ستبقى خالدةً تحكي قصة مؤرخة عشقت التراث والتاريخ، فأبدعت في مختلف المراحل.

لهند أبو الشعر، علاقة عشق أبدية تربطها بالقدس، فعائلتها التي عشقت القدس من قبلها، عرفت المدينةَ جيلًا بعد جيل، حيث تعود علاقة العائلة بالمدينة المقدسة إلى سنة ١٨٨٥م، حين اعتادت أن ترسل أبناءها للتعلم في مدرسة تيراسانطا في القدس القديمة. ولعل الوثائق التاريخية تُسعفنا بمزيد من الحجج التي توثق حضورَ العائلة بين القدس وعجلون في فترة تسبق ذلك التاريخ.

---

* مدير مركز الحسن بن طلال لدراسات القدس لمرحلة ما بعد الدكتوراه.

قبل سنة ١٩١٠م كان عقيل أبو الشعر أول من وصل إلى القدس لينهل من علوم مدارسها، تبعه شقيقه سليم أبو الشعر، ثم تخرج ابنه نجيب من مدرسة تيراسنطا في حدود سنة ١٩٢٠م، وكذلك فعل غسان أبو الشعر والد الدكتورة هند.

اليوم، تواصل الدكتورة هند مسيرة عائلتها في عشق القدس، بتراثها وحضارتها وقداستها وروحانيتها، من خلال أعمالها التوثيقية للمدينة المقدسة، فقد أعدّت للنشر كتابًا توثيقيًا كبيرًا، وعملًا استثنائيًّا يحكي قصة القدس، من خلال أرشيف غير مسبوق تركه الصحفي المقدسي جرجي حبيب حنانيا في صحيفته (القدس) التي كانت تصدر أواخر العهد العثماني، في الفترة ما بين ١٩٠٨ ـ ١٩١٤. والمؤرخون الذين يجلسون بيننا يقدرون أهمية هذه الفترة التي تأتي بعد الدستور العثماني وقبيل الحرب العظمى الأولى.

وتتشرف مؤسسة التراث العربي التي أديرها، بأنها ستكون الناشر لهذا العمل الكبير الذي يتضمن معلومات غير مسبوقة تُضاف إلى سجل الأعمال الكبيرة التي توثق للقدس، فهذا الكتاب الذي يأتي في أزيد من ٥٠٠ صفحة، والذي وثق ما تحتضنه الصحيفة من يوميات للقدس، يتضمن تفاصيل لا تقل أهمية عن حجج سجلات المحكمة الشرعية، وبذلك تكون هند أبو الشعر قد فتحت الباب للدارسين لكي ينوعوا من مصادرهم، من خلال هذا الإنجاز الأكاديمي الرائع، وكأنها دعوة تُطلقها أن ابحثوا عن مصادر جديدة للكتابة والإبداع.

تعود بي الذاكرة إلى سنوات مضت، عندما دعا منتدى الفكر العربي إلى ندوة علمية عن مؤرخ القدس والخليل مجير الدين الحنبلي العُليمي، فكنتُ محاضرًا في هذه الندوة، إلى جانب الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر، التي تحدثت عن كتابه (الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل). والحق يُقال: لقد قدّمت الدكتورة هند محاضرةً غير مسبوقة عن كتاب مجير الدين، تناولت فيها مضامين تاريخية ومنهجية طُرحت لأول مرة، على الرغم من أنّ الكتاب صدر قبل أكثر من خمسمائة سنة.

الأعمال الكبيرة تأتي من كبار العلماء، وهذا الكتاب الذي سيخرج إلى حيز النور مطلع العام الجديد، هو كبير بمؤلفته، وبما يتضمنه من تفاصيل غاية في الأهمية.

هند أبو الشعر، هي باحثة أكاديمية مميزة، وأديبة من الطراز الرفيع، تعشق الأردن، تاريخًا وحضارةً، أما قلبها الكبير ـ حماها الله ـ فينبض من رحاب القدس بدقّات تتناغم مع أجراس كنيسة القيامة.

نبارك للدكتورة هند جهدها، ونشكرها على كل ما قدمته، ونتمنى لها العمر المديد، والصحة، والطمأنينة، لكي تبقى تتحفنا بأعمالها النوعية.

الجلسة الخامسة

شهادات/ طلاّب وزملاء

شهادة

هند أبو الشعر: الأكاديمية، والمؤرخة

د. أنس العموش *

انتمت الدكتورة هند أبو الشعر إلى البيئة الأردنية، بكل أقاليمها؛ فهي ولدت في الشمال، وتلقت تعليمها للثانوية به، ثم تلقت تعليمها الجامعي في الجامعة الأردنية أم الجامعات، وبعدها أخذت تدرس وتؤرخ الأردن من شماله إلى جنوبه مروراً بالوسط، وأخذت ترصد وتدون، بعد العناء والتقصي والتبحر في الروايات والسجلات؛ لتخرج برواية رصينة وقراءة واعية وموضوعية، ومن ثم العروج إلى مناهج البحث العلمي للتدوين وتأليف نتاج هذا كله.

وعلى كل دارس للتاريخ ومختص به، الإفادة من نتاجها العلمي والمعرفي، ومن رؤيتها ومنهجها الرصين المتين، فهي من المؤرخين الأوائل الذين تصدوا لتاريخ منطقة شرقي الأردن، وكانت لها الريادة في دراسة وتقصي بعض المناطق به، فأول معرفتي بالدكتورة هند في مرحلة البكالوريوس في جامعة آل البيت؛ إذ وجدت نفسي أمام مؤرخة تعيد بلورة

* معلم في مدرسة الأبرار الأساسية النموذجية للبنين/ جامعة آل البيت، ومحاضر غير متفرغ في الجامعة الأردنية.

التاريخ؛ للوصول إلى النتائج الصحيحة والمدعمة بالقرائن والبراهين، وكانت تسلك طريقًا خاصًّا لبلوغ المعارف والحقائق، بعد المطالعة والبحث والتقصي والتحليل، وبعده العرض والتقديم. وفي مرحلة الماجستير أخذت في التنقيح والتحليل للوصول إلى الكيفيات والمسببات، وارتباطها بالواقع المدروس.

ويستقي الباحث في نتاجها الأكاديمي الضوابط الأخلاقية في مجال البحث العلمي من حيث الأمانة العلمية، والغاية المعرفية، والعلمية من البحث ذاته، كما أنها كانت المحاورة المصغية لطلبتها، والمقومة والناصحة المثلى.

وهذا ما جعلها حاضرة في الوسط العلمي والأكاديمي من مؤتمرات وملتقيات وندوات؛ ليتأثر بها الكثير من الدراسين والمختصين، وكان لإرثها العلمي الفضل، كونها مصدرًا مهمًّا للدارس من بعدها؛ حيث إنني أفدت من جهدها في الأبحاث المختصة في شرقي الأردن، كما شكلت لدي باعثًا للبحث في موضوعات أخرى.

والجدير بالذكر أن الدكتورة هند تُعدّ من المنتمين للمدرسة التاريخية التي تصدت لدراسة مصادر تاريخ الأردن في الحكم العثماني، والإفادة من المصادر المتاحة، ودراسة السجلات وترتيبها، وتحليل بياناتها، وجدولتها، وإحصائها، والتطرق إلى التقسيمات الإدارية، وعلى الرغم من ذلك إلا أنها لم تهمل المصادر المحلية لوصف العلاقات الاجتماعية، ورصد الملامح العامة والمتنوعة، بتنوع الحالات الاقتصادية والأحوال الإدارية آنذاك، وكتابها (إربد وجوارها) خير دليل على ذلك.

وهذه المدرسة شكلت انعطافًا في دراسة التاريخ الأردني المنهج؛ إذ عمد كثير من الباحثين، لاحقًا، إلى دراسة المناطق الأردنية والأرياف والأوضاع، وهذا ما نوهت به الدكتورة هند في كثير من المنتديات والمؤتمرات.

واتسم منهج الدكتورة هند أبو الشعر بالشمولي، والموضوعية؛ إذ إنها لم تعتمد على مصدر بعينه، بل تعرجت إلى المصادر الأخرى، وكأنها تقر بأن الحقائق والمعرفة لا تُستقى من طريق معرفي واحد؛ إذا نلحظ أنها عمدت، في دراسة التاريخ الأردني وتأريخه، إلى الأرشيف العثماني، والوثائق البريطانية، وأقوال المستشرقين ورحلاتهم ونتاجهم، والمصادر المحلية والروايات، ومن ثم دراستها وتحليلها، ومقارنتها، بُغية الفهم والمعرفة، والوصول إلى نتائج أكثر واقعية يمكن الوثوق بها وتدوينها.

شهادة
هند أبو الشعر كما عرفتها

د. محمد عدنان البخيت*

عرفت هند غسان أبو الشعر منذ أن كانت طالبة متميزة في قسم التاريخ والآثار في الجامعة الأردنية، وكانت كزملائها ممن تلقوا تدريبًا متقدمًا في دراسة التاريخ العربي الإسلامي، على يد نخبة من الأساتذة في الجامعة، من أمثال المرحومين عبد الكريم غرايبة، وعبد العزيز الدوري، وعلى يد الزملاء الذين كانوا يأتون من جامعة دمشق لمدة يومين في الأسبوع، من أمثال المرحومين نور الدين حاطوم، ونبيه عاقل، ومحمد خير فارس، وأحمد بدر، وعبد الكريم رافق، أطال الله بقاءه. وكتبت رسالتها للماجستير تحت إشراف أستاذنا المرحوم عبد العزيز الدوري، وكان قسم التاريخ قد شرع في فتح المجال للطلبة من داخل الأردن وخارجه للدراسة، والحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ العربي ـ الإسلامي، والعربي الحديث.

انصرفتُ منذ التحاقي بقسم التاريخ في الجامعة الأردنية العام ١٩٧٢م، إلى جمع صور الوثائق والمخطوطات من الوزارات والمكتبات العربية والإسلامية، ومكتبات العالم التي

* رئيس لجنة تاريخ بلاد الشام.

تقتني مثل هذه المصادر. من هنا كان التوجه نحو أرشيف الدولة العثمانية في إستانبول، حيث سُـمح لنا بالتصوير، بفضل تدخل صاحب الجلالة الهاشمية المغفور له الملك الحسين بن طلال، رحمه الله. وكنا الجامعة الوحيدة التي سمح لها بذلك، ومن حسن الحظ نجحنا في تصوير دفاتر الطابو، ودفاتر المهمة والمالية المدورة من المكتبات التركية في إسطنبول وأنقرة.

وركزنا على مقتنيات المحاكم الشرعية والكنسية في بلاد الشام، فصورنا ما لديها من ذخائر، وفتحناها للباحثين، فكان الإقبال عليها كبيرًا، وتلا ذلك سجلات الأراضي في الأردن وفلسطين، بالإضافة إلى دفاتر النفوس، أضف إلى ذلك تصوير الوثائق المحلية والمذكرات الشخصية. وجاء التوفير المتزايد لهذه المصادر الأولية ليرسم خريطة طريق جديدة لمنهج البحث التاريخي في الجامعة الأردنية وبقية جامعات بلاد الشام.

في ضوء هذه الذخائر، فاتحت الآنسة هند أبو الشعر في ما إذا كانت ترغب بمتابعة رسالتها للدكتوراة في تاريخ العرب الحديث، وبعد نقاش طويل معها وهي في بعض الأحيان عنيدة، وافقت على أن تكتب رسالتها للدكتوراة عن: «إربد وجوارها: ناحية بني عبيد ١٨٥٠-١٩٢٨م»، فصرفت كل طاقتها البحثية في قراءة سجلات المحكمة الشرعية، وسجلات الأراضي، والمذكرات الشخصية، وتقارير الرحالة، زيادة على ذلك؛ تابعت الصحف الصادرة آنذاك في بلاد الشام مثل البشير وغيرها، والتفتت إلى دراسة واسعة لملفات مديرية الأراضي في عمان، فكانت سبّـاقة في ذلك المضمار، ساعدها في ذلك معرفتها باللغة الإنجليزية وسلاسة لغتها فهي أديبة وكاتبة، وأجيزت رسالتها وتولى بنك الأعمال / البنك الأهلي العام ١٩٩٥م، بإدارة معالي الدكتور رجائي المعشر، طباعتها ونشرها، فجزاه الله خيرًا.

وتزامنًا مع بحثها، قام عدد من زملائها بكتابة تاريخ بقية نواحي الأردن إلى ما بعد قيام الدولة، فأعلوا مداميك البحث التاريخي بإطلالة جديدة.

عندما باشرت في منتصف العام ١٩٩٣م، تأسيس جامعة آل البيت بجوار مدينة المفرق، كانت الدكتورة هند من المؤسسين الأوائل، إلى جانب نخبة من المؤرخين العرب والمسلمين، فكانت تنظم الحلقات البحثية وتدير المؤتمرات العلمية في القسم، وتقف على تحرير محاضرها ونشرها، وأوكلت إليها إصدار مجلة البيان وهي مجلة فصلية ثقافية حضارية تصدر عن جامعة آل البيت، وعلى ضفاف صفحاتها وتحت ظلال أشجار الأردن المعمرة نستنشق عبير الشيح والقيصوم، ونهجت طريقًا مستقلًّا، حيث مزجت الصورة مع المكان.

وتزاملنا في لجان مؤتمرات بلاد الشام، وهيئة تحرير المجلة الأردنية للتاريخ والآثار الصادرة عن الجامعة الأردنية لمدة تزيد على عقدين من الزمان، وفي لجان كتابة تاريخ الأردن، وأخيرًا وليس آخرًا، نشر الوثائق الهاشمية الذي نهضنا به، بتكليف من صاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال، رحمه الله، منذ منتصف التسعينات. وتوقف العمل عددًا من السنوات وعاد وانطلق الجهد المبذول من جديد سنة ٢٠١٤م، برغبة من صاحب الجلالة الهاشمية الملك عبد الله الثاني، حفظه الله، وما زال قائمًا، حيث ننشر وثائق الدولة الأردنية منذ قيامها الأول؛ فوفرنا بذلك المادة الأولية للباحثين، بكل موضوعية ودراية ودقة.

درست هند معي، وأعطيتها كل ما لدي من علم ومعرفة، وما زلت تلميذًا للتاريخ أتعلم على يديها أدام الله قلمها وذوقها، وحفظ الله جميع زملائها.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

شهادة

هند أبو الشعر المؤرخة الأديبة

د. علي مفلح محافظة*

تعدّ الأستاذة الدكتورة هند غسان أبو الشعر من أغزر المؤرخين والمؤرخات الأردنيات إنتاجًا علميًا وأدبيًا. فقد ألفت من الكتب والأبحاث والدراسات العلمية التاريخية ما لم يجارِها به أحد من المؤرخين الأردنيين. واتسمت كتبها وأبحاثها العلمية بالعمق والتوسع والجدة والموضوعية. وساعدها في ذلك ثقافتها العامة الغنية والواسعة، وقدرتها على تحليل نصوص الوثائق التاريخية وتفكيكها وقراءتها بروح علمية نقدية، واستخلاص الجديد منها. وبحسها الأدبي المرهف عالجت العديد من الموضوعات الحساسة، وقدمتها للقارئ والباحث بأسلوب أدبي راق.

وليس هذا بالأمر الغريب عليها، فقد تدربت على يدي مؤرخ الأجيال العربية الدكتور عبد العزيز الدوري، الذي التحق بقسم التاريخ في الجامعة الأردنية سنة ١٩٦٩ وبقي فيه بقية حياته. وتعلمت الدكتورة هند منه كتابة التاريخ العربي الإسلامي، باعتماد الروايات الشفوية

* أستاذ شرف في الجامعة الأردنية منذ ٢٠٠٩ مدى الحياة.

والمقارنة بينها، والرجوع إلى ما جاء في الدواوين الشعرية من قصائد، وكتب الرحلات، والأدب العربي، الثرية بالمعلومات. كما درست مساقات الدكتور عبد الكريم غرايبة، مؤسس قسم التاريخ في الجامعة الأردنية وأستاذ التاريخ العربي الحديث والمعاصر. وأثار اهتمامها أسلوبه الطريف في التدريس، وطريقته في جمع المعلومات من قصاصات الصحف والمجلات وكتب التاريخ، وتحليله للأحداث التاريخية، وتفسيره لمواقف الأباطرة والملوك والخلفاء والسلاطين والأمراء، ودوافع مواقفهم وقراراتهم، بصورة لا يتوقعها تلامذته ومستمعوه. ولا شك في أن الدكتورة هند قد أفادت من الدكتور محمد عدنان البخيت، في استعمال الأرشيف العثماني في دراساتها وأبحاثها، ولا سيما سجلات دفاتر الطابو، وسجلات التسوية وخرائطها، والسالنامات؛ أي الكتب السنوية الخاصة بولاية دمشق الشام (سورية)، ودفاتر المهمة التي تحتوي على الفرمانات السلطانية، والأحكام الصادرة عن الديوان الهمايوني، والبالغة (٢٦٦) دفترًا تغطي المدة الزمنية من سنة ١٥٥٣ إلى سنة ١٩٠٥، بالإضافة إلى سجلات المحاكم الشرعية في مدن بلاد الشام بعامة، ومدن الأردن وفلسطين بخاصة، وسجلات الأديرة والكنائس فيها. وقد أجادت الدكتورة هند في هذا الميدان، وكانت المؤرخة المبرزة والقدوة التي اقتدى بها العديد من الباحثين والباحثات في تاريخ العرب في العهد العثماني. وتتلمذ على يديها العديد منهم.

كانت الدكتورة هند، وما زالت، طوال حياتها الأكاديمية حاضرة في المؤتمرات والندوات العلمية التي تعقد في الأردن، وفي أقطار الوطن العربي الكبير، وكانت مشاركة فعالة في هذه المحافل العلمية الوطنية والإقليمية والدولية. ولم تتوان عن تقديم الأبحاث العلمية فيها ومناقشة ما يقدم فيها من أبحاث وآراء.

ولعل من أهم إنجازات الدكتورة هند سلسلة الوثائق الهاشمية التي صدر منها ما يربو

على اثنين وثلاثين مجلدًا. فقد شاركت في إعداد جميع هذه المجلدات، وانفردت منذ مدة في جمع هذه الوثائق وإعدادها تحت إشراف الدكتور محمد عدنان البخيت.

ما زالت الدكتورة هند في أوج عطائها العلمي والأدبي، فهي بالإضافة إلى تميزها كمؤرخة، أديبة صادقة المشاعر، ذات قلم مرهف، وروائية وقاصة مبدعة، تستحق الثناء والتقدير. وأتمنى لها مزيدًا من العطاء والإنجاز والإبداع.

شهادة

الدكتورة هند أبو الشعر في عيون طلابها

د. إيهاب زاهر*

في البداية، تعد شهادتي عن أستاذتنا ذات أهمية كبيرة؛ لكوني كنت أكثر الطلبة المقربين من الدكتورة هند أبو الشعر طوال معرفتي بها منذ العام ٢٠٠٩م وحتى يومنا هذا، حيث كنت على تواصل دائم ومستمر معها طوال هذه المدة.

كان أول لقاء لي مع أستاذتنا الدكتورة هند أبو الشعر التي أعتز بها وأفتخر، في جامعة آل البيت، عندما سجلت عندها مساق تاريخ العرب الحديث، وهي من المواد التي تعد صعبة لدى الطلبة، وكانت أول محاضرة لنا عند أستاذتنا بعنوان: العرب والأتراك ونشأة الدولة العثمانية، بتاريخ ٦/ ٩/ ٢٠٠٩، وقد سعدت جدًّا بالمحاضرة وأسلوب أستاذتنا الشيق في التدريس، وإثارة دافعيتي لأن أحضّر معها الدرس مسبقًا، وبالفعل بدأت أطالع العديد من المقالات والكتابات حول تاريخ العرب الحديث؛ لأن أستاذتنا كانت تثير التساؤلات، الأمر الذي فرض علي أن أكون السباق في الإجابة عنها. وبالفعل؛ تفوقت على رفاقي في المشاركة،

* مشرف تربوي في وزارة التربية والتعليم ومحاضر غير متفرغ في الجامعة الأردنية.

ولم أغب عن محاضراتها سوى يوم واحد فقط هو يوم بادرت فيه بعمل ندوة لطلبة قسم التاريخ كان موعدها متزامنًا مع موعد المحاضرة، وعنوانها «الخرافة والأسطورة في التاريخ»، ووجهت دعوة لأستاذتنا لحضورها، وشكرتني، وأبدت إعجابها باجتهادي، لكوني طالب بكالوريوس في مقتبل العمر يقوم بتقديم ندوات، وكنت سعيدًا بذلك.

وكانت أستاذتنا الدكتورة هند أبو الشعر ملهمة لي؛ فقمت بتأليف كتاب وأنا في السنة الثالثة من البكالوريوس، وبالفعل بدأت أجلس ساعات طويلة في قاعة المصادر التاريخية، وأجمع المعلومات من عشرين مصدرًا، ثم قمت بصياغتها بشكل خطي، وقد مكثت في تأليف الكتاب مدة أربعة أشهر، ثم وضعت المقدمة والعنوان والخاتمة، وكان موضوع كتابي يتحدث عن الثورات في صدر الإسلام، وأتممت الكتاب مطلع العام ٢٠١١م، وهو العام الذي بدأ يشهد ثورات الربيع العربي التي كانت بدايتها في تونس، وأول شيء قمت بعمله، بعد الانتهاء من تأليف الكتاب، عرضه على أستاذتي الدكتورة هند أبو الشعر؛ لأنها تقدر هذه الأعمال وهذه الجهود؛ ولأنها كانت مصدر ثقة لنا، ومصداقية، وتثير الدافعية لدى الطلبة، وهذا ما لمسته، وأخبرتني بأنه لا بد من إكمال دراسة الماجستير من أجل تعزيز الكتاب بالمنهجية السليمة في الكتابة التاريخية، وبالفعل هذا ما اكتشفته عندما أتممت الماجستير، حيث اختلفت لدي النظرة.

الدكتورة هند: الإنسانة والأكاديمية البارعة والقدوة

كانت أستاذتنا، دومًا، تتعامل بخلق وتهذيب وإنسانية مع طلبتها، وقد لاحظت ذلك من تعاملها الراقي والطيب مع الطلبة، ومن كلامها الجميل، ومن مراعاتها لحاجات الطلبة، وتجاوزها عن عثراتهم. كانت متواضعة مع الطلبة، وتستمع إليهم، ولا تبخل بنصائحها

وإرشاداتها دائماً خلال محاضراتها، وتمتاز بغزارة علمها، ونالت الدكتورة هند محبة الجميع، حتى إن بعض الطلبة قام برسمها في لوحة فنية رائعة نالت إعجابها.

ولطالما كانت محاضراتها شيقة، تخلو من الجمود والملل والرتابة، التي نجدها عند بعض مدرسي التاريخ، بل تثير الدافعية وتحفز الطلبة على التفكير، والمناقشة والحوار، وتبتعد عن التلقين، ولامست، في أسلوبها التدريسي مناطق التشويق والنشاط، حتى إن وقت المحاضرة كان يمضي بسرعة.

وعندما أكملت دراسة الماجستير في جامعة آل البيت، سجلت العديد من المواد لدى أستاذتي الدكتورة هند، ليس من أجل الحصول على العلامات، وإنما للحصول على العلم والمعرفة، والمنهجية السليمة، والقدوة، وكانت محاضراتنا عند أستاذتي تعقد في مكتبها في مجلة البيان، وكانت من أجمل المحاضرات، حيث كنا عندما نصل تستقبلنا بالضيافة الحاضرة دومًا في مكتبها، والمتمثلة بالكعك المحلى والقهوة، بالإضافة إلى الهدايا من أعداد مجلة البيان، وكانت تشجعنا على الكتابة ونشر أعمالنا فيها.

كانت محاضراتنا في الماجستير مختلفة عن البكالوريوس، كنا ثلاثة طلاب، وسنحت لي الفرصة آنذاك للتعرف أكثر على أستاذتنا، لا سيما عندما أصبحت أنجذب للكتابة في تاريخ العرب الحديث، وهذا يعني لي أنني كنت أسير على الخط نفسه مع تخصص أستاذتي، ما جعلني سعيداً بإشرافها على رسالة الماجستير.

ولاحظت، أثناء حضور المحاضرات عندها، علاقاتها الطيبة والودية مع جميع المحيطين بها، ومنها علاقتها الودية مع موظفة مجلة البيان أم طارق، وكذلك مع الموظف في مكتبة الجامعة الأردنية عبد الناصر الحوامدة، وهذا الأسلوب كان يسري على الجميع، سواء كان زميلًا أو طالبًا أو موظفًا في الجامعة.

واستفدت من أسلوب أستاذتي وطريقتها في إيصال المعلومة، وتدريبها لنا على كيفية التعامل مع الروايات التاريخية، وتحليلها، وتطبيق ذلك أمامها، ولا تكتفي بذلك؛ فكانت تناقشنا بما توصلنا إليه من استنتاجات، وتثير التساؤلات والشكوك لدينا في تدريسها، وتدربنا على التعامل مع رواة المصادر التاريخية.

وفي مرحلة الماجستير، عندما باشرت في إعداد رسالة الماجستير مع الدكتورة هند أبو الشعر، طلبت منا عرض أفكارنا حول توجهاتنا في الكتابة، وأخبرتها عن نيتي الكتابة في تاريخ العرب الحديث، وتحديدًا عن موضوع يتناول بلاد الشام خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي؛ أي أواخر العهد المملوكي، ومطلع العهد العثماني، وأن يكون مصدري تراجم نجم الدين الغزي، فأعجبت أستاذتي بالفكرة، وشجعتني على التقصي أولًا، وطلبت مني إعداد مسح لمصدر الدراسة، والمعلومات التي سأقدمها، ثم عمل خطة الدراسة، وأخبرتني أن الاعتماد على كتاب من كتب التراجم ذو أهمية كبيرة في الدراسات التاريخية التي تعتمد كتب التراجم كمصدر أساسي، وأن دراستي ستكون من الدراسات الرائدة، وتشربت منها المنهجية في كتابة التاريخ الحديث ومصادره، وطريقة جمع المعلومات، وترتيبها في عناوين فرعية، وصياغتها، والكتابة في موضوعات متنوعة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والفكري، وتوظيف الجداول والأشكال والمخططات البيانية في إعداد أبحاثنا، وتحليلها.

وبالفعل؛ شاركنا أستاذتنا الدكتورة هند في تأسيس مدرسة تاريخية في قسم التاريخ – جامعة آل البيت وهي مدرسة التراجم، وأشرفت الدكتورة على دراسات عدة اعتمدت كتب التراجم كمصدر أساسي في رسالة الماجستير، وكانت هي السباقة في هذا الإنجاز المهم في حقل الدراسات الأكاديمية التاريخية، في جامعة آل البيت. وكان من أبرز هذه الدراسات،

دراستي للحياة الاجتماعية والفكرية في بلاد الشام خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بعنوان «تراجم نجم الدين الغزي مصدرًا»، ودراسة أحد الطلاب عن تراجم البوريني، ودراسة محمد الخزاعلة عن تراجم ابن كنان، ودراسة الطالب علي السردي عن تراجم المحبي.

والدكتورة هند أبو الشعر ما زالت كما كانت على تواصل دائم معنا، وبابها مفتوح للطلبة، فعلاقتها بهم ليست علاقة محصورة بين الجدران في المحاضرة، بل تتعداها، فكنا على الدوام نستشيرها، ونستفيد من خبرتها، ونزورها في بيتها، وفي مركز الوثائق والمخطوطات، ونتبادل المعلومات عبر البريد الإلكتروني، وأيضًا كانت تشركنا في الندوات والمؤتمرات، وتشجعنا على المشاركة فيها، مثل توجيه دعوة لي لحضور ندوة مئوية الحكومة العربية الفيصلية العام ٢٠١٨م، والتي أقيمت في مجلس الأمانة. ومن المواقف الإنسانية للدكتورة قراءة أعمال الطلبة البحثية وخططهم، وتقديم النصح والإرشاد في المنهجية، والمراجع والمصادر الداعمة لأعمال الطلبة البحثية، وتوفير الكتب لهم. ومن المواقف التي شهدتها استقبالها للطالب محمد هاني عنبر، والطالب عبد الرحمن المشاقبة اللذين كانا يأتيان لاستشارتها في اختيار موضوعات ومصادر أبحاثهما، كما تعدى دعمها ذلك إلى توفير فرص عمل تدعم الطلبة لتغطية نفقاتهم، فقد سعت لتوفير فرصة عمل لأحد الطلبة في إحدى دور النشر.

كلمة ختامية

ذاكرتي مثل حقل بنفسج..!!

د. هند أبو الشعر*

الآن، وأنا أقف على هذا المنبر الذي يختزن الذاكرة الثقافية، المتوج بالقامات المثقلة بثمار الإبداع وألماس التنوير، الآن، وأنا أقفُ على منبر مؤسسة عبد الحميد شومان التي أراها (أيقونة الثقافة في الأردن)، أستعيدُ ذاكرتي الثقافية بامتياز، هنا قدمتُ بواكير أمسياتي القصصية العام ١٩٨٨م، وأدارها الدكتور أسعد عبد الرحمن، وهنا قدمتُ محاضرة إشكالية قرأتُ فيها علاقة (العرب بالأتراك)، وحضرها السفير التركي وأعضاء السفارة، وكان على رأس الحاضرين أستاذي الراحل عبد العزيز الدوري، وقد استأذنتْ السفارة التركية مؤسسة شومان لترجمة المحاضرة للتركية، فترجموها وكتب السفير التركي مقدمتها، و هنا احتفيتُ مع مؤسسة عبدالحميد شومان بأساتذتي من ضيوف العام، وقدمتُ مداخلاتي، وهنا أدرتُ العديد من الجلسات الفكرية القيمة، هذا المنبر هو أيقونة الثقافة في الأردن، ويسعدني أن أكون ضيفة العام، وأن أجد حولي القامات العالية التي تحتفي بي، فشكرًا

* ضيفة العام المحتفى بها. كاتبة ومؤرخة أردنية، تكتب القصة القصيرة والمقالة الصحفية والدراسات التاريخية.

للقائمين على أيقونة الثقافة في الأردن، وشكرًا، بحجم الكرة الأرضية، لكل من حضر وقدم نفحة حب من أجلي.

وبعد،

أحس بأن روح الرواية والسرد تتسيّد في خلاياي، وتدق في ردهات قلبي، أحاول أن أصحو من سطوة الحرف الباذخ؛ لأكتب كلمة عادية فلا أستطيع، وأعرف أنني ما زلت أغرق بعبير حديقة أمي التي لا مثيل لها، بأشجار الورد الجوري الطرابلسي، وحوض البنفسج المتراص في أول الربيع، وأشتال الأضاليا المدهشة، والقرنفل البلدي، ما زلت أنا كما كنت في الثالثة من عمري، أركض في حديقة أمي وراء الفراشات، وكأن الزمن توقف عند هذا الحدّ، فتوقفتُ عن العدّ!!

أبدأ بطفولة باذخة بالفرح، يتفتحُ وعيي على أم في مطلع العشرين وأب في الثانية والعشرين، وأنا الابنة البكر، لأبٍ وحيدٍ بلا إخوة أو أخوات، ومكانٍ جميلٍ تابعٍ لشركة نفط العراق، حيثُ لأطفال الموظفين الذين لا يتجاوز عددهم العشرين طفلًا مدرسة خاصة، ومعلمات من دمشق والقدس، ولهم دار سينما، وملاعب خضراء، وناد، وحرس يمنعونهم من تجاوز الأسلاك الشائكة، وبيوت مزودة بالمياه الساخنة والوقود مجانًا، عالم من الرفاهية، أظنني ما زلتُ أتمسك بهذه الذاكرة التي جعلتني أعتقد أن العالم جميل، حتى انتقلنا إلى إربد، لنسكن في بيتنا في كرم علي النيازي، ونحمل معنا أشجار الورد والقرنفل، وليحول أبي حديقتنا في إربد إلى عالمنا الجديد في عروس الشمال الهادئة، والتي تصلها رياح البحر المتوسط وجبل الشيخ وأنسام طبريا وذاكرة دمشق، كل هذا أيقظ الشعر في كياني وروحي، وبدأت أكتب الشعر مع طفولتي المبكرة، وكان لأحاديث الجدّ المثقف بقراءة صحف فلسطين ومصر والشام أثره على وعيي المبكر بتاريخ بلاد الشام، كان يتحدث عن الحرب العالمية الأولى

والثانية، ووصول الأرمن، والتجارة مع عكا ودمشق، وعن وداعه لعمه عقيل أبو الشعر في رحلته إلى باريس، هربًا من الأتراك، بعد أن كتب روايته الأولى (الفتاة الأرمنية في قصر يلدز)، أما الجدّة التي انتقلت لتعيش معنا في بيتنا، وتركت بيتها الكبير في الحصن بعد موت زوجها المُبكر، وأغلقتْ المضافة التي شهدتْ أحداثًا وطنية، فقد كانت مصدري غير المباشر لمعرفة الحصن والأهالي الذين كنت أسمعُ بهم دون أن أعرفهم، هذه المصادر شكلت في ما بعد حوافزي للبحث عن المكان والأهالي في مرحلة كتابتي للتاريخ المحلي، وهي الجدة التي سأهدي إليها العام ٢٠١٥م مجموعتي القصصية (مارشات عسكرية) لأنها بطلة العديد من قصص هذه المجموعة.

أتوقف عند المفاصل الآتية في حياتي، وأظنها شكلت مساري الإبداعي والأكاديمي:

أولًا: دراستي في الفرع الأدبي في مدرسة إربد الثانوية للبنات، حيث حصلتُ في امتحان التوجيهي على منحة من وزارة التربية والتعليم لدراسة الجغرافيا في الجامعة الأردنية، وكان هذا خيبة أمل لأبي الذي كان يريدني أن أدرسَ الحقوق مثل أعمامه لأصبح محامية، خاصة وأنه كان يلاحظ مقدرتي على إلقاء الشعر وحفظه، والخطابة والكتابة الأدبية، وكنت أطلعه على بعض أشعاري التي تجاوزت مئة قصيدة وأنا في التوجيهي، فذهبتُ إلى الجامعة الأردنية وأنا لا أريد دراسة الجغرافيا.

ثانيًا: تعرفي في الجامعة الأردنية إلى أساتذة الأدب العربي، واهتمامهم بموهبتي في الشعر، وهم أساتذتي محمود السمرة، وهاشم ياغي، وعبد الرحمن ياغي، ومن بعد فواز طوقان، حيث بدأتُ أتحول إلى طالبةٍ معروفة، وأشركني الدكتور هاشم ياغي في أول أمسية شعرية لي في مدرج سمير الرفاعي وأنا في السنة الأولى، وتجرأتُ على نشر مقطوعات شعرية في الصحافة آنذاك.

ثالثًا: ساعدني أبي في تحويل مسار دراستي من الجغرافيا إلى التاريخ، مع قناعته بأن علي أن أتحول لدراسة الأدب العربي أو الإنجليزي، وفوجئتُ بأنني أمام عالمٍ مدهشٍ في تخصص التاريخ فتح لي أبواب الروايات وأخبار الشعوب، والأبطال، والعيارين، والخلفاء، والسلاطين، والجواري، والشعراء، والقادة، والفقراء، والتجار، والآلهة اليونانية، وعالم المصريين القدماء المدهش، والأنباط، والسومريين، وأصابني الذهول وأنا أقرأ ملحمة جلجاميش، وقصيدة العادل المعذب، وبدأتُ طريقي الأدبي مع دراسة التاريخ، فتحولتُ لكتابة القصة القصيرة، وانتسبتُ لرابطة الكتاب الأردنيين، وشاركتُ في عشرات الأمسيات القصصية، في كل من الجامعة الأردنية، وأندية مدينة الزرقاء والمفرق وجامعة اليرموك، وتجرأتُ ونشرت قصصي في الصحافة الأردنية الأسبوعية، ومجلة أفكار، والجيل الجديد، ثم انتقلتُ للنشر في صحافة العراق والخليج والمغرب والجزائر، وشكلتُ لنفسي حضورًا واضحًا في الساحة الأدبية، خاصة وأنني بدأت أجمع قصصي في مجموعات، بدءًا بـ «شقوق في كف خضرة»، و«المجابهة»، وكان صدور مجموعة «الحصان» ومن بعدها «عندما تصبح الذاكرة وطنًا» و«الوشم»، وأخيرًا الأعمال الكاملة، ومارشات عسكرية، تمثل حضوري كقاصة أردنية.

رابعا: انتقلنا للعيش في مدينة الزرقاء لقربها من عمل والدي في مصفاة البترول الأردنية، ولن أنسى ما حييت دموع أمي وهي تترك بيتها وحديقتها في إربد، وتجلس في المقعد الخلفي في السيارة، وقد حملت نبتة القرنفل بيدها، لم تحب هذه المدينة الجديدة التي وجدتُ أنا فيها عالمًا جديدًا غريبًا عما اعتدناه في إربد، كان الخليط المتعدد، والضوضاء والأسواق المزدحمة، حالة مثيرة للحس القصصي لدي، وبدأتُ أشارك في نشاطات الزرقاء الأدبية، وتعرفتُ إلى الأدباء بسرعة، وأخذوا يزورونني، ومنهم فخري قعوار، وبدر عبد الحق، جيراني ورفاقي في

الرأي، ومن بعد أسامة فوزي يوسف، ويوسف ضمرة وغيرهم. وللحق؛ فقد كان لانتقالنا للعيش في الزرقاء الأثر الأكبر في تفتح عالمي القصصي على نمط اجتماعي مُحفز، ولو بقينا في إربد لعشت في عالم الأهل والبيئة المحدودة.

خامسًا: كان لإقرار تدريس قصة المعطف في المدارس الثانوية مفعول السحر في حياتي، فقد بدأت المدارس تستضيفني لأتعرف إلى الجيل الجديد، وأناقشهم وأحبهم ويحبونني، كما أن اختيار العديد من أساتذة الجامعات لتدريس قصصي واستضافتي في محاضراتهم، أشعرني بأن اختياري لفن القصة القصيرة كان موفقًا ويناسب موهبتي، فأنا قاصة قبل أي شيء آخر في حياتي، هذا ما خلصتُ إليه بعد كل هذا المشوار الذي أوصلني إلى ما أنا عليه الآن.

سادسًا: عشتُ مرحلة صعبة من التجاذب بين الأدب والتاريخ والحياة الأكاديمية، فقد اخترتُ أن أستكمل دراستي العليا في الجامعة الأردنية في التاريخ، وكنتُ أشعرُ أني أمام خيار صعب، خاصة وأن مشواري في الأدب كان واضحًا ومعبدًا منذ بداياتي، لكني تعلقت بالدراسة والبحث، ولحسن حظي تتلمذت على الراحل الكبير الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، الذي اصطفاني واستمع إلي وتعامل معي بحزم ومحبة، علمني المنهج بصرامة، وكان يصنع لي فنجان القهوة أو الشاي بيده في مكتبه، ولا يتوانى عن الحديث الحاد وتأنيبي بشدة في حال أنه وجدني أحيد عن المنهج. وبعد أن اخترتُ رسالتي لنيل درجة الماجستير بإشرافه عن (حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة)، وأنهيت مرحلة جمع المادة، وكتبت الفصل الأول بما يتجاوز مائة صفحة، أبدى عدم إعجابه بأسلوب الكتابة التي تميل للغة الأدبية، فحزمتُ أمري وتركتُ الدراسة، وقررتُ أن أكون كاتبة تكتب المقالات في جريدة الدستور أولًا ثم في جريدة الرأي، وأشارك في كل نشاطات الساحة الأدبية.. وحتى لا أتراجع ذهبتُ في رحلة طويلة مدتها شهر إلى دول أوروبية عدة، بدأتها بالنمسا وهولندا وبلجيكا

وبريطانيا، ونسيتُ الرسالة والتاريخ، وبقيتُ عامًا كاملًا لا أذهب إلى الجامعة، وأرسل لأستاذي بطاقات المعايدة ولا أزوره في مكتبه لئلا أضعف، لكني فوجئتُ بيوم يستدعيني فيه مسجل الدراسات العليا ويعطيني ورقة بإعادتي للدراسة بأمر من أستاذي..!! وكانت هذه هي المرحلة الحاسمة في حياتي، فأنهيتُ الرسالة بسلاسة، ويوم أن تسلم الأستاذ نسخة الرسالة للمناقشة قال لي رحمه الله: بإمكانك تقديمها الآن إلى جامعة لندن لتحصلي على درجة الدكتوراه وليس الماجستير..!! وساهم في دعمي لنشرها عن طريق عمادة البحث العلمي، مع أن العمادة لا تنشر رسائل الطلاب، وصرتُ أجد الكتاب بيد طلاب مادة التاريخ الأموي، وأشعر بالفرح الكبير.

سابعًا: اخترتُ أن أرجع لدراسة الدكتوراه في التاريخ، لأجد نفسي عند اختيار مساري في كتابة الرسالة أن عليّ أن أختار بين الاستمرار في دراسة التاريخ الإسلامي، والذي أُشبع درسًا، بحضور شيخ المؤرخين الدوري، وبين أن أنتقل إلى عالم آخر وأرسم الخط القادم لحياتي، وكان للأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الحسم في الأمر؛ لأنه شكّل لنفسه مدرسة جديدة في كتابة تاريخ الأردن، وأقنعني بالحاجة لكتابة تاريخ الأردن بفتح مصادر جديدة، وعرض عليّ أن أكتب تاريخ إربد في العهد العثماني. وللحق؛ كنت أشعر بالخجل من كتابة تاريخ محلي، لئلا يقال بأنني (إقليمية)، وكان سؤاله لي ببساطة: لماذا لا يعتبر العراقي إقليميًّا عندما يكتب تاريخ العراق..؟ كذلك الحال مع السوري واللبناني والمصري.. وبدأتُ معه رحلة الألف ميل التي لم تنته حتى اليوم، والتي قادتني للتخصص في تاريخ الأردن، في إطار بلاد الشام في العهد العثماني، وللحق فقد كان للدكتور البخيت الفضل في إقناعي بهذا التحول ودفعي نحو الاستمرار.

ثامنًا: كان حصولي على الدكتوراه العام ١٩٩٤م مفصلًا رئيسًا من مفاصل حياتي؛ لأني

انتقلت للعمل في جامعة آل البيت عند تأسيسها مع الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، ومع عملي فيها سلمني الرئيس العمل بإصدار الوثائق الهاشمية عن جامعة آل البيت، ووجدتُ أمامي الباب مشرعًا للعمل في صحافة مميزة، وأشرفتُ على تأسيس جريدة الشورى للطلبة، وعلى تأسيس مجلة البيان، وتوليتُ رئاسة تحريرها حتى العام ٢٠١٨م عندما تركتُ الجامعة، فتوقفتْ عن الصدور، وكانت الشراكة الرائعة في المجلة في هيئة التحرير مع الناقد العربي الكبير الأستاذ الدكتور شكري عزيز الماضي هي السبب وراء نجاحها، حيث تولينا معًا مشاريع ثقافية عديدة وملفات كبيرة نشرناها في البيان، وأقمنا ندوات على مستوى متقدم، وبأوراق بمعايير أكاديمية، ونشرناها في المجلة التي كانت تصل إلى العديد من المنابر الثقافية والفكرية، ومنها معهد العالم العربي في باريس. ومن الندوات والملتقيات التي أقمناها في البيان، ندوة الحياة الثقافية في الجزائر، والحياة الثقافية في اليمن، والمرأة العربية المبدعة، ومئوية عرار، ومئوية بوشكين الثانية، والرواية التاريخية، والقصة القصيرة في الأردن. والآن صمتتْ المجلة التي قمتُ بتحويلها العام ٢٠١٨م إلى حالة إلكترونية ليسهل تداولها ووصولها إلى حيثما وصل الحرف العربي والبث الإلكتروني، وللحق فقد كان لوجود الرئيس البخيت، والناقد الكبير شكري عزيز الماضي، وجهود الزملاء في أقسام اللغة العربية والتاريخ، الدور الأكبر في تحفيز مسيرة البيان.

تاسعًا: مررتُ بتجارب جميلة وكبيرة في جامعة آل البيت، ومنها إدارة قسم التاريخ، ثم تولي موقع عميدة كلية الآداب والعلوم، ثم فصل كلية الآداب والعلوم إلى كليتين، وتأسيس كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وكان لوجود طاقم إداري مخلص ومدربّ وزملاء على درجة عالية من الوعي والمعرفة، فضل نجاح فكرة فصل كلية الآداب والعلوم إلى كليتين، وكان رفيقي في هذا المشروع نائب العميدة صديقي وزميلي الأستاذ الدكتور حسن الملخ،

الذي شاركني في التفكير والتنفيذ والبناء مع الزملاء من قسم اللغة العربية والتاريخ واللغة الإنجليزية، واللغات الحديثة (الفرنسية والإسبانية والإيطالية)، وللدكتور الملخ بصمة راقية في التعامل والإخلاص في العمل، وربما كانت شراكتنا في العمل الإداري نموذجًا لا يتكرر، بفضل أخلاقه ومعارفه ومقدرته على العمل الإداري الجاد والمميز، كما أن القيادات الأكاديمية المتميزة في الكلية ساندتني ودعمت المسيرة بنجاح لافت، على الصعيد الأكاديمي والنشاطات المرافقة.

عاشرًا: أما المحطة الرائعة في عملي فكانت بتسلمي إدارة مكتبة الجامعة الأردنية ودار النشر لعامين متتاليين، ومع أنني انتقلت إلى مجال آخر، إلا أن حبي العميق لهذا المكان الذي قضيتُ فيه كل عمري، جعلني أبذل كل طاقاتي ومواهبي، خاصة وأن رئيس الجامعة آنذاك معالي الأستاذ الدكتور خالد الكركي كلفني بتأسيس دار نشر الجامعة الأردنية، وفي هاتين السنتين حولتُ المكتبة إلى مركز ثقافي وفني، وتجرأتُ، منذ الأسبوع الأول، على هدم الجدران التي كانت تعزل القسم الإداري عن المكتبة، فانفتحتْ المساحات على إضاءة جميلة ومدهشة، وتوليتُ مهمة تغيير هوية المكان بتلبيس كل الجدران بالخشب، حيث أصبحتْ المكتبة تنعم بالجمال والهدوء، وحرصتُ على تأسيس قاعة كبيرة للمؤتمرات سميتها (قاعة عمان)، وأصبحتْ مكانًا جاذبًا للمؤتمرات والندوات والاجتماعات، وصار البهو المضيء مكانًا موسميًّا متجددًا للمعارض السنوية لكلية الفنون، ولمعارض الفعاليات المشتركة مع الزملاء من رابطة الكتاب الأردنيين والفنانين، كنت أشعر بأن المكان بيتي، وكان معي فريق رائع أحب التجديد، وخاصة تجديد مكتبات الكليات، وكنت أحرص على الطاقم الإداري والفني، وأحس بأني أحبهم لأني أعرفهم منذ أن كنت طالبة، لكن هذه التجربة لم تكتمل، فمع أن العمل على تأسيس دار النشر تحقق مع لجنة متخصصة، وأعلنا عن اكتمال العمل،

وعن استعداد دار النشر للبدء بالعمل بأعلى المواصفات، لكن عدم تجديد عملي مع الجامعة الأردنية، وعودتي إلى جامعة آل البيت قتلتْ هذا المشروع الكبير، وطوته في الأدراج بعد أن اجتهدتُ وهيأتُ مكانًا رائعًا لإدارة دار النشر، وأشرفتُ بنفسي على تجهيزه بالأثاث.. لا تعليق، ولا أضيف غير كلمة واحدة، فقد تركتُ روحي هناك في المكتبة، كل ما أحدثتُه من تغييرات سيظل يذكر بي، ولن ينسى الذين عملوا معي محبتي والتغيير الذي شهدته المكتبة على كل صعيد، هناك تركتُ روحي وعقلي وأسلوبي في التعامل، ولا أقول أكثر من أن الذين أفشلوا المشروع أخطأوا بحق الجامعة وليس بحقي.

حادي عشر: أجمل ما عشته في هذه المسيرة علاقتي مع الطلبة، أحس بأنني أمنحهم خلاصات عقلي وروحي معًا، أشعر بأن العلاقة مع الطالب الجامعي حالة راقية من العطاء الفكري والإنساني، لذلك فإن جميع طلبتي يتواصلون معي، وخاصة طلبة الدراسات العليا من العراقيين، ولا أذكر أن يومًا يمر من دون أن أتلقى اتصالًا أو رسالة من أحدهم، إن تواصل العقول والأرواح لا يموت بالتأكيد.

ثاني عشر: لا أستطيع أن أنسى ما حققته بالبحث عن الروائي المهاجر العم عقيل أبو الشعر، وأظن أني قمت بعمل ريادي لا أريد أن ينساه الوطن، فقد نجحتُ باستعادة ابن الوطن الغائب الذي يعرفه الغرب ويقرأون رواياته المبكرة منذ العام ١٩١٢م و١٩١٧م و١٩٣٥م بالفرنسية والإسبانية والإيطالية، ويعرفون مقطوعاته الموسيقية، في حين أننا لا نعرفُ عنه شيئًا، كان هاجسي هو استعادته إلى وطنه، وقد ساعدني على تحقيقه أصدقائي من جامعة آل البيت، الدكتور عدنان كاظم، والدكتور وائل الربضي، وأصدقائي من وزارة الثقافة هزاع البراري وصلاح جرار والراحل العزيز جريس سماوي، كلهم وقفوا معي، وها نحن وصلنا لترجمة ثلاث روايات، وبقي أمامنا ديوان شعر وعشر روايات ومقطوعات

موسيقية مستوحاة من الشرق، وكتاب يحمل عنوان: العرب تحت النير التركي، وهذا يتطلب جهدًا مؤسسيًا كبيرًا، لقد فتحتُ الباب بمساندة أصدقائي، وأسلّم الراية الآن للمؤسسات لاستكمال استعادة الإرث الفكري والثقافي لابن الوطن الذي ترك روحه بيننا وهاجر من أجل الحرية.

وأخيرًا، تجربتي مع الكتابة بالصحافة تنعش روحي وعقلي، فقد كتبت مئات المقالات، وشعرتُ بأنني جريئة، ولم يسبق أن حُجبت مقالاتي مع أن الكثير منها حمل طابع النقد للتعليم والتعامل في المؤسسات، وربما أكون نجحتُ في تشكيل حالة خاصة بالكتابة في الصحافة لسنوات ضمن زوايا تقدم مذكرات تاريخية أو تستعرض أحداثًا جمعية، وكانت أولى هذه التجارب زاوية سميتها: (ذاكرة الوطن)، وبقيتْ مدة عامين في جريدة الرأي، وكانت مقروءة جدًّا، حتى إن تعبير (ذاكرة الوطن) شاع بسببها، وتبعتها زاوية (أوراق الأجداد) ثم مذكرات خليل سماوي، وذاكرة الثورة العربية الكبرى، وأخيرًا مذكرات تحسين قدري، مرافق الملك فيصل الأول وشقيق الدكتور أحمد قدري، والتي لاقت إعجابًا خاصًّا؛ لأنها فتحت نوافذ التنوير لنهضة العرب، وأظن أن نجاح هذه الزوايا يعود لتوظيف قلمي الأدبي وخبرتي في خطاب الصحافة، مع الحفاظ على الروح الأكاديمية واحترامها، مع أنني كنت أستمر في الكتابة عامًا أو عامين، بواقع صفحة أسبوعية، وهذا التوجه اكتمل بمشاركتي مع الإذاعة الأردنية في برنامج (أوراق أردنية) الذي وثقت فيه لتاريخ الوطن، بواقع ٤٨ حلقة أسبوعية، مدة الحلقة نصف ساعة، وما زال البرنامج يذاع منذ العام ٢٠٠٥م حتى اليوم.

أيها الأحبة،

هل هذا كشف حساب أقدمه بين أيدي الذين شاركوني جزءًا من مسيرتي، أم إنه مقدمة لكتابة سيرتي خوفًا من أن يتوقف خطّ الحياة وأتوقف عن العدّ فجأة ..؟ أم إنه مقدمة

لاستذكار عالمي الذي يمكن أن يبدأ بسرد روائي..؟ أظنه طقسًا روائيًّا، فقد بدأتُ رواية أحسها التجلي الحقيقي في عالمي اليوم، لكنها توقفت بصورة قاسية لانشغالي بكتابة موسوعة «تاريخ الأردن في عهد الإمارة»، ولأسباب عائلية عندما ضربَنا زلزال كورونا واختطف أخي الحبيب الطبيب وليد. نعم، هذا الاسترجاع من أجلكم يقول بأني أختصر سيرتي بكلمة واحدة: المحبة..وهي خلاصة حياتي، فأنا لا أكره، ومشاعري أرق وأصفى من البلور.

أنهي كلمتي بعبارة واحدة كانت آخر ما سمعته من أخي الطبيب، في آخر عهده بالحياة، أوصاني بكلمة واحدة : (أحبوا بعضكم).. أقول أخيرًا: (أحبوا بعضكم)، فالحب هو سر الحياة والسلام.

الفهرست

تقديم:

غسان إسماعيل عبد الخالق ٥

الجلسة الأولى

هند أبو الشعر: أديبة ومبدعة

قصص هند أبو الشعر القصيرة: الماهية والدور

د. شكري عزيز الماضي ١٣

هند أبو الشعر: وجوه إبداع متعددة مع إجراء نقدي

د. نبيل حداد ٢٣

ألم الكتابة عن أحزان محكيّ في قصص «مارشات عسكرية»

د. منتهى طه الحراحشة ٣١

هند أبو الشعر والكتابة الإبداعية

د. زياد أبو لبن ٤٧

الجلسة الثانية

منهجية أبو الشعر: في كتابة التاريخ

منهجية أبو الشعر: في كتابة التاريخ

د. عليان الجالودي ٥٥

هند أبو الشعر ودورها في التوثيق التاريخي للمدن الأردنية كتاب إربد وجوارها أنموذجًا
د. علاء كامل سعادة ٦٣
هند أبو الشعر الإنسانة والباحثة المتميزة ـ مسيرة تجربة بحثية مشتركة
د. عبد الله مطلق العساف ٧١
هند أبو الشعر وكتابها حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في الكوفة (٦٤ ـ ٦٧ هـ/٦٨٤ـ٦٨٦م)
د. أنور عودة الخالدي ٧٧

الجلسة الثالثة

هند أبو الشعر وإدارة العمل الأكاديمي والثقافي

هند أبو الشعر وإدارة العمل الأكاديمي والثقافي
د. ياسين أحمد السعود ٩١
هند أبو الشعر أكاديمية وإدارية
د. زيد خليل القرالة ٩٧
هند أبو الشعر حين تتحدّث عنها الإنجازات: ذاكرة تظلّ وذِكرى تُظِلّ
د. حسن خميس الملخ ١٠٣
هند أبو الشعر ومسيرة «البَيان»
د. محمد محمود الدّروبيّ ١١٥

الجلسة الرابعة

هند أبو الشعر موثِّقة

هند أبو الشعر موثِّقة
د. حسين محمد القهواتي ١٢٣

جهود هند أبو الشعر في التوثيق.. منهج لاستشراف المستقبل

حسين دعسه ١٣٥

هند أبو الشعر: عين على القصة، عين على الوثيقة.. المؤرخة الأديبة

مفلح العدوان ١٥٥

هند أبو الشعر: موثِّقة

د. جورج طريف ١٦٣

قلبها ينبض عشقًا للأردن من رحاب القدس

محمد هاشم غوشة ١٧٣

الجلسة الخامسة

شهادات/ طلاّب وزملاء

هند أبو الشعر: الأكاديمية، والمؤرخة

د. أنس العموش ١٧٩

هند أبو الشعر كما عرفتها

د. محمد عدنان البخيت ١٨٣

هند أبو الشعر المؤرخة الأديبة

د. علي مفلح محافظة ١٨٧

الدكتورة هند أبو الشعر في عيون طلابها

د. إيهاب زاهر ١٩١

كلمة ختامية: ذاكرتي مثل حقل بنفسج..!!

د. هند أبو الشعر ١٩٧

الفهرست ٢٠٩